ڤ. افاناسييف

اسس الفلسفة الماركسية

المادية الديالكتيكية

ترجمة: عبد الرزاق الرصافي



ق. اڤاناسييف



المادية الديالكتيكية

دار الفارابي
بيروت

الى القارىء

لقد عرضنا في هذا الكتاب اسس الفلسفة الماركسية بشكل مبسط ليكون في متناول اوسع عدد ممكن من القراء . لقد كتبناه للقارىء الذي يقدم ، لاول مرة ، على دراسة هذا العلم في نطاق الفرق والحلقات الدراسية أو عن طريق المطالعة الخاصة .

الطبعة الرابعـــة ١٩٨٤
دار الفـــارابي - بـيروت

مقدمة

ماذا تعطي دراسة الفلسفة الماركسية ؟

ان الفلسفة (١) الماركسية تمثل نظاما متناسقا من وجهات النظر عن العالم ككل ، عن قوانين تطوره ، وعن طرق معرفته . ولذا فاننا بدراستنا للفلسفة نحصل على تصور متكامل لماهية العالم وكيفية تطوره ومكانة الانسان في هذا العالم ، وهل بامكانه معرفة الواقع ، ولماذا تتبدل الحياة الاجتماعية ، وكيف يمكن ان تنظم بشكل أفضل . . . الخ .

ما هي الاهمية العملية لهذه القضايا العامة ، وما هي الفائدة التي تجلبها للانسان في حياته المباشرة وعمله ؟

ان الاهمية للفلسفة الماركسية عظيمة جدا لانها كجزء مكون للماركسية اللينينية تكشف اعم قوانين تطور الطبيعة والمجتمع والفكر ، مبينة ضرورة وحتمية الثورة الاشتراكية . وبهذا تسدى مساعدة لا تثمن للشغيلة في نضالهم من اجل مستقبل أفضل للبشرية .

منذ قرون عديدة والناس يحلمون بالشيوعية . المجتمع الجديد الذي تتم فيه الى الابد تصفية الاستغلال والاضطهاد ويتمتع الانسان الشغيل بثمار يده وعقله ، حيث تكون المساواة الحقيقية والوفرة والسعادة من نصيب كل عضو في اسرة اناس العمل . لقد قطعت البشرية طريقا طويلا وشاقا في نضالها العظيم — انتصارات باهرة وهزائم مؤقتة — قبل ان تتحول الشيوعية من امنية الى مهمة مباشرة للتطور التاريخي وقوة عظيمة في عصرنا . ان المجتمع الشيوعي بالنسبة للشعب السوفياتي هو مستقبل قريب ، وان اشادته هي مهمة عملية تقوم بها اليوم اسرة شعوب الاتحاد السوفياتي المتآخية .

« ان الجيل الحالي من السوفياتيين سيعيش في ظل الشيوعية » .

هكذا اعلن الحزب الشيوعي في الاتحاد السوفياتي بمهابة عظيمة في برنامجه الجديد — اول برنامج لبناء الشيوعية في العالم .

ان النضال من اجل انتصار الشيوعية يفترض ليس فقط بناء القاعدة المادية والتكنيكية ، وصياغة العلاقات الاجتماعية الشيوعية ، بل التطور المتكامل المتناسق لشخصية الانسان . ولهذا الهدف لا يكفي ان يعرف عضو

---

(١) ان كلمة الفلسفة — فيلوسوفيا — هي كلمة يونانية قديمة مركبة من كلمتين فيلو وتعني احب وسوفيا وتعني الحكمة .

المجتمع اختصاصه في حقل الانتاج فقط ، اذ من المهم ان يستوعب مجموعة المعارف البشرية ، وبشكل رئيسي – ان يتعلم كيفية تطبيق هذه المعارف عمليا ، ومن اجل ان تتوافق في سلوك كل انسان – بشكل عضوي – في عمله وحياته ، الافكار الشيوعية والاعمال الشيوعية ، من الضروري ان يمتلك نظرة علمية عن العالم . ان تكوين وجهة نظر علمية عن العالم على اساس الماركسية – اللينينية كنظام متناسق متكامل من الآراء الفلسفية والاقتصادية والسياسية والاجتماعية لدى جميع شغيلة المجتمع السوفياتي يكتسب أهمية من الدرجة الاولى في الظروف المعاصرة .

ان انسان المجتمع الشيوعي ، انسان ذو مدارك فكرية عميقة ، ومبادىء اخلاقية سامية ، ومعارف واسعة ، انسان لا يمكن ان يفهم حياته دون العمل من اجل خير المجتمع . ان الفلسفة الماركسية هي احدى الوسائل الهامة لتطوير هذه الصفات السامية لدى الناس السوفيات . ان الفلسفة الماركسية المرتبطة بالحياة ، بشكل وثيق ، والتي تجمع في ذاتها التجربة الفكرية والعملية لاجيال متعددة ، تعلم الناس السوفيات ان يحبوا العمل والمعرفة وتكون لديهم المبادىء الفكرية السامية والاخلاص للشعب والحزب . وعدم التسامح تجاه الشرور الاجتماعية والظلم .

ان الفلسفة الماركسية تساعد بناة الشيوعية على ان يفهموا بعمق سير وآفاق التطور العالمي ، ان يقفوا موقفا صائبا تجاه الاحداث الداخلية والعالمية ، وتقنعهم بعدالة القضية الثورية ، وحتمية انتصار الاشتراكية والشيوعية في العالم أجمع ، تسلحهم في النضال ضد ايديولوجية الاستعمار والرجعية ، وضد بقايا الماضي ، وتساعد على كشف الصعوبات التي تعيق بناء الشيوعية للتغلب عليها ، تعلمهم العيش والعمل على النمط الشيوعي .

ان الفلسفة الماركسية تكون لدى الانسان نظرة واسعة وصحيحة عن العالم ، وقدرة على رؤية الامور الكبيرة حتى في أصغر الاشياء . انها تطور الفكر وتجعله اكثر مرونة وعمقا ومعاديا للركود والرتابة . ومن المعلوم جيدا كم هو ضروري العقل الذكي الوقاد في قرن التقدم التكنيكي والعلمي الذي لا سابق له ، في قرن تحطيم الذرة ، قرن الكهرباء والاجهزة الاتوماتيكية ، قرن السيطرة على الفضاء الكوني .

ان الفلسفة الماركسية تطور لدى الانسان شعور تثمين الجديد . ان الجديد يولد في حياتنا في كل مكان – في المصانع والمعامل ، في الكولخوزات والسوفخوزات ، في المدارس والمؤسسات ، لهذا فان العامل والكولخوزي والمثقف يجب ان يمتلكوا الشعور ، ان يروا الجديد وان يستطيعوا النضال من اجله وان يطمحوا الى انتصارات جديدة .

ان الاحساس بالجديد له اهمية خاصة كبيرة في ظروف بناء الشيوعية ، حيث تنطلق المبادرة الخلاقة الجبارة ، والنشاط الذاتي للجماهير الشعبية ، حيث المهام العظيمة ، – وبصورة خاصة مهام خلق المجتمع الجديد – تتطلب اشكالا مرنة وفعالة لقيادة الحياة الاقتصادية والسياسية والفكرية للدولة السوفياتية . ان البناء الشيوعي الذي يقوم على التجديد والابداع من البداية حتى النهاية ، لا يمكن ان ينسجم مع ظواهر الجمود والروتين والغرور واللامبالاة من أي نوع كان .

ان الفلسفة الماركسية توجه العالم الى الطريق الصحيح في ابحاثه العلمية . وهي تعطي للكاتب والفنان الوجهة الصحيحة في عملهما الخلاق ، وتساعدهما على ان يعكسا ، بعمق ووضوح ، في نماذج فنية عظيمة حياتنا ومآثر الانسان السوفياتي .

ان المعارف الفلسفية الماركسية ضرورية بشكل خاص لشبيبتنا السوفياتية ، التي يقع على عاتقها الشرف العظيم ، شرف بناء الشيوعية والعيش في ظلها ، انها تساعد الشبيبة على ان تكتسب نضوجا سياسيا وان تطور نضالها ضد الصعوبات ، هذه الخصائص التي بدونها لا يمكن خلق المستقبل الشيوعي الوضاء .

وبكلمة واحدة ، فان من يبني الشيوعية وسيعيش في ظلها ، ويحب الحقيقة ويسعى نحوها ويريد ان يتغلغل في اسرار الكون والحياة البشرية، يتوجب عليه ان يستوعب التعاليم الماركسية اللينينية التي لا تغلب ، وفلسفتها القهارة التي أثبتت الحياة صحتها .

الفصل الاول

الفلسفة كعلم

ان الفلسفة الماركسية ــ كأي علم آخر ــ لها موضوعها الذي تدرسه . ولكن قبل الحديث عن موضوعها ، يجب ان نلقي نظرة ليس فقط على المسائل التي تبحثها الفلسفة الماركسية . بل كل فلسفة . والمسألة الرئيسية بينهم . **ما هي المسالة الاساسية في الفلسفة .**

١ ــ المسالة الاساسية في الفلسفة
التضاد بين المادية والمثالية

ان الفلسفة هي أقدم العلوم . وقد عرف التاريخ العديد من الانظمة الفلسفية التي ظهرت في ظروف تاريخية متفاوتةواقطار مختلفة ، قام بوضعها ممثلو طبقات وفئات اجتماعية مختلفة ، ولكي نتعرف على هذه الانواع المتعددة للانظمة الفلسفية ونقدر قيمتها العلمية ونحدد مكان كل منها في تاريخ الفكر الفلسفي يتوجب علينا ان نرى اولا وقبل كل شيء كيف يبحث هذا النظام الفلسفي أو ذاك المسألة الاساسية في الفلسفة .

اذا ما نظرنا بدقة الى العالم الذي يحيط بنا نرى ان جميع الاشياء والظواهر فيه اما مادية او فكرية ، روحية . الظواهر المادية تتعلق **بكل ما هو موجود موضوعيا ، اي ما هو خارج وعي الانسان ومستقل عنه** (الارض وعملياتها ، الاجسام التي لا تحصى في الكون وغيرها) . اما ما هو موجود في وعي الانسان ويشكل ميدانا لنشاطه السايكولوجي (الافكار ، المشاعر ، الجن وغيرها) ، فيتعلق بالفكر والروح .

ولكن كيف نربط ما هو مادي بما هو روحي ؟ هل الروحي أو الفكري يولد المادي أم العكس ؟ **ان مسالة طابع هذه الرابطة ، العلاقة بين الفكر والوجود بين الروح والمادة هي بالضبط المسالة الاساسية في الفلسفة .**

ان علاقة الفكر بالوجود هي المسألة الاساسية في الفلسفة ، ويتوقف على حلها اعطاء الجواب على جميع المسائل الفلسفية الاخرى : حول وحدة العالم ، وطابع قوانين تطوره ، وجوهر وطرق معرفته الخ . . . حيث لا يوجد في العالم الا ما هو مادي أو روحي ، ولا يمكن اقامة نظام فلسفي او رسم لوحة متكاملة عن العالم دون حل المسألة الاساسية في الفلسفة .

ان للمسألة الاساسية في الفلسفة جانبان . الجانب الاول ويقع عليه حل القضية : **أيهما الاول — المادة ام الوعي ؟** هل المادة ولدت الوعي ام العكس؟ والجانب الثاني عليه ان يجيب على السؤال التالي : **هل يمكن معرفة العالم ؟** هل يستطيع عقل الانسان ان يتغلغل في اسرار الطبيعة ويكتشف قوانين تطورها ؟

وعندما ندخل في محتوى المسألة الاساسية في الفلسفة ليس من الصعب علينا ان ندرك بأنه يوجد احد حلين متناقضين جذريا : اما الاعتراف بأولوية المادة ، أو بأولوية الوعي . وعلى هذا الاساس تشكل منذ امد طويل تياران اساسيان في الفلسفة هما : المادية والمثالية .

ان الفلاسفة الذين يعتبرون المادة هي الاولى والوعي ثانوي ، ناتج عن المادة . يقفون في صف المادية . (مترياليزم : من الكلمة اليونانية متريايس وتعني مادي — شيئي) وهم يرون ان المادة ازلية لم يخلقها احد ، ولا توجد في هذا العالم اية قوى غيبية لا تخضع للقوانين الطبيعية . وان الوعي نتاج التطور التاريخي للمادة وخاصية جسم مادي معقد غير عادي هو دماغ الانسان .

اما الفلاسفة الذين يعطون الاولوية « للروح » او « الوعي » فيقفون في صف المثالية : وهم يرون ان الوعي وجد قبل المادة ، وان المادة نتاج ثانوي عن الوعي الذي هو الاساس الاولي لكل الموجودات .

حينما يسأل المثاليون : أي وعي «خلق» العالم ؟ عندها تختلف الاجابات. **فالمثاليون الذاتيون** يقولون ان العالم خلق من قبل وعي انسان منفرد — هو الذات . اما **المثاليون الموضوعيون** فيقولون بأن العالم قد «خلق» من قبل وعي موضوعي (موجود خارج الانسان) . ورغم ان هذه التسميات تظهر في الانظمة الفلسفية المختلفة مرة باسم « الفكرة المطلقة » وتارة باسم « الارادة الكلية » او ما شابه ذلك . فليس من الصعب اذا ان نتعرف منها على الله .

اما فيما يتعلق في الجانب الثاني من المسألة الاساسية في الفلسفة ، فالماديون يؤكدون بأن العالم يمكن معرفته . وان معارف الانسان عن العالم موثوقة ، وان عقله قادر على التغلغل في الطبيعة الداخلية للاشياء وان يتعرف على جوهرها .

اما المثاليون فالكثيرون منهم ينكرون امكانية معرفة العالم . «باللادريون» ورغم ان بعضهم يقول بامكانية معرفة العالم لكنهم يشوهون جوهر هذه المعرفة ويؤكدون ان الانسان لا يعرف العالم الموضوعي ، الطبيعة ، وانما يعرف افكاره الخاصة وخبرة « المثاليون الذاتيون » ، أو « الفكرة » الغيبة ، « الروح الكونية » « المثاليون الموضوعيون » .

من تخدم المادية ان المادية وجهة نظر تقدمية ، علمية تجاه العالم .
ومن تخدم المثالية انها تعطي لوحة صادقة عن العالم فتصوره كما هو في الواقع ، وبذلك تكون حليفا أمينا للعلم والنشاط العملي للناس – الاساس الذي ظهرت عليه المادية نفسها وتطورت فيه .

ان المادية عدو لا يعرف المهادنة للافكار الغيبية : ففي العالم الذي لا وجود فيه لغير المادة المتحركة لا مكان لاي روح غيبية . وليس من قبيل الصدفة ان يحارب رجال الكنيسة المفاهيم المادية وانصارها .

ان المادية كانت وستبقى ، دوما ، وجهة نظر الطبقات التقدمية في المجتمع ، الطبقات التي تهتم بتقدم البشرية وتطور اقتصادها وثقافتها . ففي المجتمع القائم على الرق استخدمت الفئات الديمقراطية المادية في النضال ضد الطغمة الارستقراطية الرجعية من مالكي العبيد . وفي مرحلة تكون الراسمالية خدمت المادية ، كسلاح فكري ، البورجوازية في معاركها ضد الكنيسة والاقطاع وفي ايامنا تمثل المادية اداة فعالة في نضال البشرية التقدمية ضد قوى الرجعية الاستعمارية .

ان المثالية تتعارض والعلم ، وتعتبره غير واقعي وموهوم . وقد نعت لينين المثالية بأنها الطريق الى الكهنوتية . كهنوتية ملطفة ومقنعة . وهذا واضح : فالمثالية تلبس الاساطير الدينية عن خلق العالم ، تعابير فلسفية معقدة . ان خطر المثالية يكمن بشكل خاص في انها تتقنع قناع العلم ، وتحاول ان تستند الى الى عقل الانسان دون ان تقيد نفسها بالايمان الاعمى .

ان المثالية تخدم ، دوما ، **القوى الرجعية** في المجتمع في صراعها ضد القوى الاجتماعية التقدمية ، وهذا ما **يقربها من الافكار الغيبية . فالمثالية والافكار الغيبية كانا باستمرار علاقة بين المستغلين للاستعباد الروحي للشغيلة ، ووسيلة لتبرير وتعزيز سيطرتهم** . ان النظام الراسمالي المحتضر يحصل اليوم هو بدوره على دفاع المثالية والدين ودعمهما المضمون .

ان الافكار الغيبية اذ تبشر بالخضوع والاستسلام وتعد الناس بالجنة في العالم الاخر فانها تحرف الشغيلة عن حل اهم المسائل الاجتماعية، وعن النضال ضد الاستغلال ومن اجل السلم والديمقراطية والاشتراكية .

هذا هو الجوهر الذي تهتم به المثالية فلا تعترف بالوجود الموضوعي للعالم ، بل تعتبره نتاج الوعي فقط ، وتفسر جميع التناقضات الاجتماعية وعيوب الراسمالية بأوهام الناس ونواقصهم الاخلاقية . **هكذا تضلل المثالية الشغيلة وتحرفهم عن النضال ضد قوى الرجعية الاستعمارية .**

ان المثالية والافكار الغيبية ، كما نرى ، قريبان متجانسان بطبيعتهما .

غير انه ينبغي عدم المطابقة بينهما بشكل كامل . لقد وجد بين المثاليين اناس قدموا قسطا معلوما في تطوير الفكر الفلسفي (وهذا ما سنتحدث عنه في الفصل القادم) . ولكن على العموم فحتى هؤلاء رسموا لوحة مشوهة عن العالم . وبالتالي انتقلوا الى مواقع الافكار الغيبية والكهنوت .

لقد برهنت منجزات العلم والتطبيق منذ زمن بعيد على افلاس المثالية. ومع هذا فان وجهات النظر المثالية حتى اليوم منتشرة انتشارا واسعا في البلدان الرأسمالية ، الامر الذي يمكن تفسيره بشكل رئيسي بالمصالح الطبقية للمستغلين .

ان المثالية ضرورية للمستغلين في صراعهم مع المادية ، كسلاح لاستعباد الشغيلة روحيا . ولهذا فانهم يدعمون المثالية بكل الوسائل ويعملون على نشرها .

اما في البلدان الاشتراكية فلا وجود للمستغلين ولذا لا يوجد اناس ذوو مصلحة بالمثالية التي لا تجد انتشارا فيها . في ظل الاشتراكية تسود تماما وجهة النظر المادية العلمية .

وبهذا نكون قد بينا بأنه تبعا للكيفية التي تحل بها المسألة الاساسية في الفلسفة ، فان الفلاسفة ينقسمون الى ماديين ومثاليين . ولكن بعد رسم لوحة العالم فان كلا منهم يستخدم اسلوبا للمعرفة . فما هو الاسلوب (الطريقة) ؟

٢ — مفهوم الاسلوب (الطريقة) . الدياليكتيك والميتافيزيق

ان الناس يضعون لانفسهم اهدافا محددة ومهمات معينة في مجرى معرفتهم ونشاطهم العملي ، ولكن اذا وضعنا لانفسنا هدفا ، او حددنا مهمة ، فان هذا لا يعني اننا نحقق فكرة . اذ من المهم جدا ان نجد طريقة فعالة لحل المهمة ، طرقا صحيحة للوصول الى الهدف . وهكذا فان طرق الوصول الى الهدف ومجموع المبادىء المحددة والاساليب النظرية للبحث والنشاط العملي هو ما يسمى بالاسلوب (الطريقة) .

وبدون الاعتماد على اسلوب معين ، فان اية مهمة علمية او عملية لا يمكن حلها . مثلا اذا اردنا ان نحدد التركيب الكيميائي لمادة ما ، فمن الضروري ان نعرف اسلوب التحليل الكيمائي ، ان نستطيع التأثير على هذه المادة بالكواشف الكيمائية اللازمة ، ان نحللها الى عناصرها الاولية المكونة ، وان نبين خواصها الكيمائية و . . . الخ . واذا اردنا الحصول على معدن ما بواسطة الصهر ، فمن الضروري ان نستوعب تقنية (تكنيك) صهر المعادن ، ان نستوعب المعارف العملية التي وضعت من قبل الناس في عملية الانتاج التعديني .

ان وجود اسلوب محدد ومعين هو ضرورة كذلك في دراسة الظواهر الفيزيائية والبيولوجية وسائر الظواهر الاخرى . ولهذا يهتم الناس اهتماما كبيرا في اعداد اساليب العمل النظري والتطبيقي وفي استيعابها والتمكن منها .

ان الاسلوب ليس جمعا ميكانيكيا لهذه الطرق الدراسية او تلك التي يختارها الناس وفق رغباتهم ، بصرف النظر عن الظواهر المدروسة نفسها ، بل انه يتعلق الى درجة كبيرة ، بطبيعة هذه الظواهر والقوانين اللازمة لها . ولهذا فان كل ميدان من ميادين العلم او التطبيق يعد اساليبه الخاصة . فأساليب الفيزياء تختلف عن اساليب الكيمياء واساليب الاثنتين تختلف عن اساليب البيولوجيا ... الخ .

انالفلسفة العلميةالتي تعمم منجزات مختلفالعلوم والنشاط التطبيقي للبشرية قد اعدت الديالكتيك المادي كأسلوب لها للمعرفة . انه اسلوبيختلف عن اساليب العلوم لانه يعطي المفتاح ليس لفهم بعض الجوانب المنفردة من الواقع ، وانما لجميع الميادين الطبيعية والمجتمع والفكر دون استثناء ، ولفهم العالم ككل .

ان كلمة « ديالكتيك » ذات أصل اغريقي قديم . ان المقدرة على خوض النقاش والوصول الىالحقيقة عن طريق كشف التناقضات في اقوال الخصم والتغلب عليها كانت تسمى بـ « الديالكتيك » . ومن ثم صارت الكلمة تعني اسلوبا لمعرفة الواقع . ان الدياليكتيك ينظر للعالم في حركته الدائمة وتطوره ، ينظر اليه كما هو في الواقع . ولهذا فانه الاسلوب العلمي الوحيد . واستنادا الى منجزات العلم والتطبيق الاجتماعي ـ التاريخي فان الدياليكتيك يحلم بأن العالم مجرى دائم الحركة ، يتكرر فيه باستمرار موت القديم وانبثاق الجديد . كتب انجلز (١) : « لا يوجد بالنسبة للفلسفة الدياليكتيكية شيء قائم الى الابد ، بدون شرط ... فعلى كل شيء ، وفي كل شيء ترى الفلسفة الدياليكتيكية طابع الانحلال ولا يمكن ـ بالنسبة لها ـ بقاء شيء سوى عملية الظهور والزوال الدائمة والصعود الذي لا نهاية له من الاسفل الى الاعلى» .

ان الدياليكتيك اذ يشرح عملية التطور ونضال الجديد ضد القديم وحتمية انتصار الجديد فانه يخدم القوى الاجتماعية التقدمية في نضالها ضد العلاقات الاجتماعية التي ولى زمانها وضد القوى الطبقية الرجعية . وفي ايامنا هذه فان الديالكتيك يمثل وسيلة فعالة بأيدي الطبقة العاملة واحزابها الماركسية لمعرفة العالم وتغييره ثوريا .

ان الاسلوب الذي يعارض جذريا اسلوب الديالكتيك المادي هو

---

(١) ك . ماركس و ف . انجلز ـ المؤلفات الممتازة ، الجزء الثاني ص ٤١١ ـ الطبعة

الميتافيزيق .

لقد ظهر الاسلوب الميتافيزيقي في دراسة الظواهر اول الامر في العلوم الطبيعية . وخلال القرنين السابع عشر والثامن عشر انتشر في الفلسفة . وكان الميتافيزيق يومذاك ينكر التطور ويفهم انبثاق الجديد والحركة كانتقال بسيط في المكان . اما اليوم وفي عصر الاكتشافات العلمية العظيمةوالتحولات الاجتماعية فلم يعد الانكار المكشوف للتطور امرا ممكنا ولهذا توجه الميتافيزيق المعاصر الى تشويه جوهر التطور . فالميتافيزيق يعتبر التطور مجرد زيادة او نقصان في الكمية ، وتكرار بسيط لما هو موجود ، دون ظهـور جديد . والميتافيزيق ينكر التناقضات كمصدر للتطور .

وهكذا فان الميتافيزيق المعاصر ، اذ ينكر الطابع التقدمي للتطور ونضال الجديد ضد القديم . وحتمية انتصار الجديد ، فانه يتجاوب مع مصالـح القوى الرجعية التي تستخدمه بدورها في النضال ضد كل ما هو تقدمي وطليعي . فالى الميتافيزيق يستند مثلا التحريفيون الذين تخلوا عن الصراع الطبقي والثورة الاشتراكية ودكتاتورية البروليتاريا ويبشرون بالسلـم بين المستثمرين والمستثمرين . وبفكرة « تحول » الراسمالية الى اشتراكية .

ان الحياة اليومية والعلم والتطبيق تؤكد صحة الديالكتيك . وان قوته الحيوية تظهر بوضوح ، وبشكل مقنع بالتطور المعاصر للمجتمع . ان الانتصار التام والنهائي للاشتراكية في الاتحاد السوفياتي ودخولمرحلة بناء الشيوعية على نطاق واسع وقيام النظام الاشتراكي العالمي الجبار ، والنمو المتعاظم لقوى الديمقراطية والسلم والاشتراكية ؛ دليل مقنع على تفوق مبـــادىء الديالكتيك الماركسي .

بعد هذه النبذة العامة عن المادية والديالكتيك يمكننا الان ان ننتقل الى تحديد موضوع (مادة) الفلسفة الماركسية وهو المادية الديالكتيكية والمادية التاريخية .

٣ ـ موضوع (مادة) الفلسفة الماركسية

ان تحديد موضوع الفلسفة الماركسية يعني ان نحـــدد دائرة القضايا والمسائل التي تدرسها ، او ان نوضح بأي شيء تختلف عن العلوم الاخرى .

لقد تغير موضوع الفلسفةكعلم ، باستمرار خلال التطور عبر القرون . في البداية كانت الفلسفة تشمل كل المعارف الموجودة آنذاك : عن العالم ككل، عن الاشياء والظواهر المنفردة في عالمنا ـ الارض ، الانسان ، الحيوانات ، المعادن . . . الخ . ومع تطور الانتاج ، وتراكم المعارف العلمية انفصلت العلوم عن الفلسفة واحدا بعد الاخر ـ الميكانيك ، الفيزياء ، الكيمياء ، الجيولوجيا (علم طبقات الارض) ، التاريخ وغيرها . وفي ايامنا توجد عشرات العلوم

التي تدرس ميادين مختلفةجدا من الواقع .

ماذا تدرس الفلسفة الماركسية ؟

ان الموضوع الرئيسي في الفلسفة الماركسية هو حل المسألة الاساسية في الفلسفة ، العلاقة بين الوعي والوجود . ان هذه المسألة ـ كما نعرف ـ حلت من قبل جميع الانظمة الفلسفية ؛ غير ان الفلسفةالماركسية هي الوحيدة التي حلتها تماما بشكل علمي وصحيح .

ان الفلسفة الماركسية **مادية دياليكتية** . فهي **مادية** لانها تنطلق عند حل المسألة الاساسية في الفلسفة من نقطة انطلاق تقول ان المادة ـ الوجود ـ هي الاولى وان الوعي ـ ثانوي . كما تؤكد ايضا ان العالم مادي ويمكن معرفته ، وتنظر اليه كما هو فيالواقع والفلسفةالماركسية **دياليكتيكية** لانها تنظر الى العالم المادي باعتباره في حركة دائمة وتطور وتجدد مستمرين.

وانطلاقا من الحل الصحيح للمسألة الاساسية في الفلسفةتكشف المادية الدياليكتيكية **اعم قوانين** تطور العالم المادي التي هي موضوعها ايضا .

من المعروف ان قوانين تطور العالم المادي تدرس من قبل العلوم الخاصة . غير ان كلا منها يدرس ميدانا محددا من الواقع : فالفيزياء تدرس : الحرارة ، الكهرباء ، المغناطيسية وغيرها من الظواهر الفيزيائية ، والكيمياء تدرس : العمليات الكيمياوية لتبدل الاجسام ، والبيولوجيا تدرس العمليات التي تجري في النباتات والحيوانات ... الخ . ان قوانين هذه العلوم تحدد طابع التطور في ميدان **معين** من الواقع ولا يمكنها ان تفسر سائر الميادين . لنأخذ قوانين الميكانيك مثلا ، نرى انها تكشف جوهر الحركة الميكانيكية فقط ـ الانتقال البسيط لجسم ما في المكان . غير انها لا تستطيع ان تشرح العمليات الكيمياوية والبيولوجية وغيرها . ورغم ان قوانين الميكانيك تؤثر في جميع العمليات التي عددناها ، فانها ليست بذات اهمية مستقلة في هذه المجالات ، بل خاضعة لقوانين اخرى ، تكشف جوهر هذه العمليات ، (ففي العمليات الكيمياوية تخضع لقوانين الكيمياء وفي البيولوجية تخضع لقوانين البيولوجيا وهكذا) .

وخلافا للعلوم الخاصة فان المادية الدياليكتيكية تدرس **القوانين العامة** ، التي تخضع لها جميع ميادين الواقع . مثلا : ان جميع الاشياء في الطبيعة الحية وغير الحية ، وجميع الظواهر فيالحياة الاجتماعية والفكر تتطور وفقا لقانون وحدة وصراع المتضادات ، ووفقا لقانون تحول التغيرات الكمية الى تغيرات كيفية . هذه وغيرها من قوانين الدياليكتيك المادي سندرسها بالتفصيل فيما بعد .

ان موضوع المادية الدياليكتيكية يشمل ايضا قوانين عملية المعرفة التي تمثل انعكاس قوانين العالم الموضوعي . والمادية الدياليكتيكية اذ تسلم الانسان

بمعرفة قوانين الطبيعية والمجتمع والفكر انما توجه الناس ليس الى طريق معرفة العالم وحسب بل **وتحويله ثوريا ايضا** .

وبالتالي **فان المادية الديالكتيكية هي العلم الذي يكشف - استنادا الى الحل الصحيح للمسالة الاساسية في الفلسفة - اعم القوانين الديالكتيكية لتطور العالم المادي ، وطرق معرفته وتحويله ثوريا** .

ان محاولات كشف اعم قوانين التطور وتكوين صورة موحدة متكاملة عن العالم ، قام بها الفلاسفة قبل ماركس ، وان العديد منهم افلحوا في تحقيق نجاحات في هذا الشأن . غير انهم لم يستطيعوا ان يعطوا صورة علمية حقيقية عن العالم . فقد اعاقت بعضهم وجهات نظرهم المثالية واعاقت البعض الاخر محدودية الاسلوب الميتافيزيقي . وفيما عدا هذا (وهو الامر الرئيسي) فقد كانوا جميعا بعيدين عن الخبرة العملية للنضال الثوري وعن مصالح الشعب الشغيل .

ان مساهمة ماركس وانجلز الفعالة في نضال الطبقة العاملة الثوري ، وخدمتهم الشعب بتفاني ونكران ذات ، ومعرفتهما الرائعة للمنجزات الهامة في العلم والفلسفة في ايامهما اعطتهما امكانية كشف هذه القوانين العامة وكشف الجوهر المادي الديالكتيكي للواقع .

ومن المهم ان نشير الى ان ماركس وانجلز قد كشفا الطابع المادي الديالكتيكي للتطور والحياة الاجتماعية . وانهما اوجدا المادية التاريخية - النظرية العلمية الوحيدة عن التطور الاجتماعي - اسلوبا لمعرفة المجتمع واعادة بنائه ثوريا . ان المادية التاريخية التي تمثل علم اعم قوانين تطور المجتمع تشكل جزءا لا ينفصل عن الفلسفة الماركسية .

الفلسفة الماركسية والعلوم الاخرى

ان قوانين المادية الديالكتيكية لها طابع عام شامل ، كما عرفنا . انها تعمل في كل مجال سواء فيما يتعلق بالطبيعة غير الحية أو بالاجسام الحية وبالانسان وتفكيره . ان هذا الشمول لقوانين الفلسفة الماركسية ذو اهمية استثنائية فائقة : اذ يمكن استخدامها لمعرفة مختلف الظواهر في العالم . وهنا تكمن الاهمية العظيمة للمادية الديالكتيكية بالنسبة لتطور العلوم الاخرى . **ان المادية الديالكتيكية التي انبثقت على اساس منجزات التطبيق ونجاحات العلوم الخاصة ، والتي تمثل تعميما لمنجزاتها تساعد على تطوير العلوم وتسلحها باسلوب علمي للدراسة والبحث .**

ان بعض ممثلي الفلسفة البورجوازية المعاصرة « الوضعيون » ينكرون اهمية الفلسفة ووجهة النظر العلمية لتطور العلم ، ويشوهون جوهر العلاقة المتبادلة بين العلم والفلسفة . وتحت ستار المعرفة العلمية « الموضوعية » يفصلون الفلسفة عن العلم ويسعون الى البرهنة بان العلم عموما لا يحتاج الى

اي فلسفة وان « العلم بذاته فلسفة لنفسه » .

ان تاريخ الفلسفة والعلم يدحض وجهات النظر الوضعية . ويبين بشكل مقنع ان العلم والفلسفة لا ينفصلان . ان المفكر الروسي العظيم هرتسن شبه الفلسفة بجذع شجرة جبارة تشكل العلوم فروعه واغصانه المتعددة . فكما انه لا وجود لشجرة دون جذع واغصان كذلك من غير المعقول ان يكون هناك علم بدون فلسفة وبالعكس القد قال : « اذا قطعتم الاغصان فلن تبقى سوى خشبة ميتة وان زال الجذع فان الاغصان ستسقط ايضا » .

وبتطور العلوم الطبيعية توثقت علاقاتها وتأثيرها المتبادل مع الفلسفة اكثر فأكثر . ان هذه العلاقة اصبحت اليوم اكثر عمقا حيث يحل العلم مهمات معقدة جدا في حقل العلوم الطبيعية عن طبيعة الاجزاء « الاولية » للمادة ، ومن منشأ الحياة وعن تطور الاجسام الفضائية وكثير غيرها . وفي قرن المنجزات العلمية العظيمة لا يمكن بالمرة السير الى امام دون تعميمات فلسفية عميقة . ان التقدم الكبير للعلوم الطبيعية ، والتغيرات الثوريةالعميقة التي تمر بها تفترض اتحادا وثيقا بين الفلسفة والعلم . وكما كتب لينين فان العالم الطبيعي يجب ان يكون ماديا دياليكتيكيا .

ولهذا ليس صدفة ان يتزايد عدد الباحثين في حقل العلوم الطبيعية في البلدان الراسمالية الذين يصبحون انصارا واعين للفلسفة الماركسية . ذلك لانها تساعدهم على السير في الطريق الصحيح في العالم الموضوعي على رؤية طابعه المادي باستمرار . لذلك يأخذون دياليكتيك الطبيعة بالحسبان في ابحاثهم العلمية .

٤ ـ سلاح نظري للبروليتاريا

ان الفلسفة الماركسية تعطي تفسيرا علميا حقيقيا للطبيعة والمجتمع . ولهذا فانها سلاح ماض لتحويلها تحويلا ثوريا .

ان البروليتاريا وحزبنا فقط ذات مصلحة المعرفة الصحيحة للتحويل الثوري للعالم ، ولهذا فان المادية الدياليكتيكية ظهرت وتطورت كوجهة نظر للبروليتاريا وكسلاح فكري لها في النضال ضد الراسمالية من اجل الاشتراكية والشيوعية . ان الفلسفة الماركسية ثورية بجوهرها . وهي ، اذ لا تعترف بديمومة النظام الاجتماعي وخلود اساس الملكية الخاصة ، فانها تبرهن نظريا على حتمية فناء الراسمالية وانتصار النظام الاشتراكي الجديد . وتشير الى طرق ووسائل بناء الاشتراكية والشيوعية .

في عصرنا ، عصر الانقلاب الاجتماعي الجذري ، عصر الانتقال من الراسمالية الى الشيوعية غدا استيعاب الفلسفة الماركسية امرا ضروريا جدا . ان هذا الاستيعاب يساعد الاحزاب الماركسية على ان تجد طريقها في الوضع

المعاصر المعقد وان تعطي التحليل العلمي للحالة الراهنة وان تحدد ، وفقا لهذا ، اهم المهام وتكشف اكثر الطرق فعالية لحل هذه المهمات . اذا لم ينطلق الحزب السياسي الماركسي . لدى دراسته القضايا التي تواجهه ، من الديالكتيك والمادية ، فان هذا سيؤدي به الى نظرة وحيدة الطرف ، الى الذاتية والتحجر الفكري والانقطاع عن التطبيق ، الى فقدان القدرة على القيام بالتحليل الملائم للاشياء والظواهر والوقوع في اخطاء التحريفية والجمود العقائدي والى الخطأ في السياسة . ان تطبيق المادية الديالكتيكية في النشاط العملي وتربية الكوادر العمالية والجماهير الواسعة بروح الماركسية اللينينية هو احدى المهام الانية التي تواجه الاحزاب الشيوعية والعمالية (١) .

ان الفلسفة الماركسية تمثل سلاحا نظريا جبارا لمعرفة العالم وتغييره ، غير ان دورها يكمن في **الاستفادة منها بشكل خلاق ، وان يحسب الحساب للظروف التاريخية الملموسة التي تظهر فيها قوانينها ومبادؤها** . ان استيعاب الفلسفة الماركسية لا يعني الاستظهار البسيط لمقولاتها واستنتاجاتها وانما يعني ان نستشف جوهرها وان نتعلم كيفية تطبيقها عمليا عند حل المهام الملموسة في البناء الشيوعي .

ان نشاط الحزب الشيوعي في الاتحاد السوفياتي هو نموذج للاستيعاب والتطبيق الحاذقين للفلسفة الثورية ، للماركسية اللينينية . ان التقدير المعقول للظروف التاريخية ولتناسب القوى الطبقية من قبل حزبنا ، ومهارته في تبديل ستراتيجيته وتاكتيكه تبعا للتغيرات الموضوعية والدمج العضوي للمبادىء الماركسية اللينينية بالتطبيق الثوري الملموس ضمنت الانتصار التاريخي ذا الاهمية العالمية للاشتراكية في بلادنا ومهدت للدخول في مرحلة جديدة من التطور مرحلة البناء الواسع للشيوعية .

---

(١) من بيان الاحزاب الشيوعية والعمالية في البلدان الاشتراكية الصادر عن اجتماع موسكو المنعقد من ١٤ الى ١٦ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٥٧ .

الفصل الثاني

ظهور وتطور الفلسفة الماركسية

لقد وضعت الفلسفة الماركسية من قبل القائدان العظيمان للطبقة العاملة كارل ماركس (١٨١٨ – ١٨٨٣) وفردريك انجلز (١٨٢٠ – ١٨٩٥) . فهل كانت نتاج عبقرية خالقيها أم نتاج العصر وسمة الزمن ؟ وما هي اسباب ظهورها ؟

ان ظهور الفلسفة الماركسية كان نتيجة حتمية عن قوانين التطور التاريخي ، وفي ظروف اقتصادية واجتماعية ملائمة ، وكانت له مقدمات معينة في العلوم الطبيعية والفلسفة .

١ – ظروف ومقدمات ظهور الفلسفة الماركسية

الظروف الاجتماعية والاقتصادية

لقد حلت الرأسمالية محل الاقطاعية في العديد من الاقطار حوالي منتصف القرن التاسع عشر مما سبب نهوضا عظيما في الانتاج وتطورا عاصفا في التكنيك والعلم والثقافة .

ان ظهور الرأسمالية قد ادى الى ظهور البروليتاريا ، الطبقة المدعوة لابادة النظام الرأسمالي والقيام بالتحويلات الاشتراكية . ان البروليتاريا التي تعاني من استغلال البورجوازية لها والمحرومة من ابسط الحقوق الانسانية دخلت في نضال ضار ضد مستعبديها وان التناقضات الطبقية تفاقمت كثيرا وبشكل غير اعتيادي في ظل الراسمالية ، واتخذت شكل سلسلة مر النضالات المكشوفة من جانب البروليتاريا ضد البورجوازية . لقد انتفض العمال الفرنسيون في ليون والحائكون الالمان في سيليزيا، واتسعت حركة الشارتيين

الشارتيين في انجلترا . لقد طالب العمال بتحسين ظروف عملهم ، وزيادة اجورهم ، وتخفيض ساعات يوم العمل وغيرها من المطالب . غير ان اعمالهم وقتذاك كانت ذات طابع غير منظم وعفوي ولم يدرك العمال بشكل واضح الاهداف النهائية التي ينبغي ان يناضلوا من اجلها ولم يعرفوا الطرق والوسائل الحقيقية الفعالة لنضالهم ضد اعدائهم الطبقيين . كل هذا أعاق الحركة البروليتارية ولم يهيء لها فرص النجاح . وكانت الحاجة الى نظرية علمية تبدو اكثر الحاحا تعطي البروليتاريا امكانية معرفة قوانين تطور المجتمع ، وان فناء الراسمالية امر محتوم ، وان البروليتاريا هي حفارة قبر البرجوازية وخالقة النظام الجديد ــ الاشتراكية .

ومن خلال تطور البروليتارية وضع امام العلم احدى المهام الفائقة الاهمية ــ الا وهي ايجاد نظرية علمية تعطي البروليتاريا سلاحا فكريا في نضالها ضد الراسمالية ومن اجل الاشتراكية . وان العلم نفذ هذه المهمة الملحة في شخص أعظم ممثليه عبقرية ، ماركس وانجلز ، حينما اكتشفا الماركسية التي تشكل المادية الدياليكتيكية والمادية التاريخية جزءا مكونا واساسا نظريا لها .

مقدمات الفلسفة الماركسية في العلوم الطبيعية ومصادرها النظرية

ان ظهور الماركسية كان نتيجة لتطور العلوم الطبيعية والفكر الفلسفي. لقد تطورت العلوم الطبيعية في القرن التاسع عشر بشكل سريع غير إعتيادي. ولم يعد العلم الطبيعي ذلك العلم الذي يجمع المعطيات ويدرس الاشياء المنفردة ، وانما تحول الى علم نظري يحاول تفسير هذه المعطيات واقامة علاقة بينها . حتى ان الميتافيزيق اعتمد في العلوم الطبيعية على الافكار الدياليكتيكية عن وحدة العالم وتطوره التاريخي .

ان اول صدع في وجهة النظر الميتافيزيقية عن الطبيعة أحدثه الفيلسوف الالماني **كانت** ، عندما قال في فرضيته عن منشأ العالم : بأن الارض والمجموعة الشمسية ليستا ازليتان وانما هما نتيجة تطور مستمر للمادة . ثم ظهرت الجيولوجيا التي كشفت تطور القشرة الارضية وتطورت الفيزياء والكيمياء و (علم الاحياء) البيولوجيا وسائر العلوم بشكل عاصف .

ان الاكتشافات العظيمة الثلاثة في العلوم الطبيعية : قانون حفظ الطاقة وتحولها ، نظرية البناء الخليوي للجسم الحي ، ونظرية التطور لدارون ، تحتل اهمية كبيرة في صياغة ودعم وجهات النظر المادية الدياليكتيكية. ان اكتشاف قانون حفظ الطاقة وتحولها ، بجهود مواطننا العظيم لومونوسوف والعالم

الالماني ماير والفيزيائي الانجليزي جوول ، يمثل دليلا مقنعا عن وحدة العالم المادية وعن خلود المادة والحركة وعدم فنائهما . كما انه يدلل على ان للمادة والحركة اشكال نوعية مختلفة وانهما متغيرتان ويمكن ان تتحولا من شكل الى آخر . ان نظرية البناء الخليوي للانسجة الحية التي وضعها الروسي كوريانينوف والبيولوجي الجيكي بوركينه والعالمان الالمانيان شلايدن وشقان . قد دللت على ان الجسم الحي ـ مهما كان بسيطا او معقد ـ اساسه بداية مادية هي الخلية . وباشارتهما الى ان الخلية لها القدرة على التبدل قد كشفا الطريق الى الفهم الصحيح لتطور الجسم الحي . لقد وضع العالم الطبيعي الانجليزي العظيم جاركس دارون في نظريته عن التطور ـ كما لاحظ لينين ـ حدا لوجهة النظر القائلة بأن انواع النباتات والحيوانات انما هي عفوية وليست مرتبطة ببعضها وانها مخلوقة من قبل الاله ولا تتبدل ، عندما برهن عاميا بأن الاجسام الحية المعقدة العالية التركيب قد تكونت من اجسام حية ابسط وأدنى ، ليس بارادة اله وانما بقوة تأثير قوانين الانتقاء الطبيعي الموجودة في الطبيعة نفسها. وبرهن ايضا بأن الانسان هو نتاج الطبيعة ، نتيجة الارتقاء المستمر للمادة الحية . وبهذا تأكدت الفكرة الاساسية للدياليكتيك ، فكرة التطور والانتقال من الادنى الى الاعلى ، من البسيط الى المركب .

ان النجاحات التي احرزها الفكر الفلسفي الى جانب منجزات العلوم الطبيعية في ذلك الوقت ، كان لها اهمية كبيرة في صياغة وجهة النظر الماركسية عن العالم . عندما وضع ماركس وانجلز المادية الديالكتيكية والمادية التاريخية كانا قد درسا ، بشكل اساسي . تاريخ الفلسفة واستفادا من كل ما هو جيد قد وصل اليه الفكر الفلسفي في تطوره خلال القرون. ان المصدر النظري المباشر للفلسفة الماركسية كان الفلسفة الكلاسيكية الالمانية في القرن التاسع عشر وقبل كل شيء فلسفة هيغل (١٧٧٠ ١٨٣١) وفورباخ (١٨٠٤ ـ ١٨٧٢) .

ان ماركس وانجلز قطعا طريقا معقدا في تطورهما الفلسفي والسياسي. فهما لم يقفا منذ البدء في مواقف المادية الديالكتيكية . ففي شبابهما كانا من انصار فلسفة هيغل المثالية التي كانت منتشرة انتشارا واسعا في المانيا يومذاك . لقد كان هيغل مثاليا موضوعيا ويعتقد ، بشكل خاطيء ، بان العالم هو نتيجة فعالية او خلق وعي ما خارج الانسان ، يوجد موضوعيات «الفكرة المطلقة » ، « الروح الكوني » . ورغم هذا فان هيغل قد ساهم جديا في تطوير الفكر الفلسفي ، وأعد نظاما متناسقا للدياليكتيك المثالي كمجموع من القوانين والمفاهيم المنطقية الاساسية .

لقد صاغ هيغل القوانين الاساسية للدياليكتيك التي تتطور على اساسها؛

الافكار والآراء . واشار الى ان الافكار لا تتطور في دائرة مغلقة وانما بشكل تقدمي ، من الاشكال السفلى الى العليا . وفي مجرى هذا التطور تتحول التغيرات الكمية الى تغيرات كيفية . وان التناقضات هي مصدر التطور كما اعطى هيغل تحديدا للمفاهيم الاساسية للديالكتيك .واشار الى علاقاتها المتبادلة وقدرتها على التحول من واحدة الى اخرى . ان الديالكتيك كان الشيء الايجابي الذي اخذه ماركس وانجلز من فلسفة هيغل ونزعا عنه قشرته المثالية ، واستفادا منه في وضع المادية الديالكتيكية والمادية التاريخية .

كان ماركس وانجلز من حيث افكارهما السياسية في ذلك الوقت ديمقراطيين ثوريين يدافعان عن مصالح جميع الشغيلة . وعندما انتقدا بشدة دولة اليونكرز البروسية توصلا الى استنتاج مفاده ان دولة الشعب فقط هي التي يمكن ان تعبر عن مصالح الاكثرية الكادحة .

ان مادية فورباخ (١٨٠٤ — ١٨٧٢) كان لها تأثيرا كبيرا على صياغة وجهات نظر ماركس وانجلز . كان فورباخ ماديا مرموقا في زمانه ، رفض المثالية .والدين واشار الى ان الفلسفة يجب ان لا تظل رهينة الفكر المجرد ، وان مهمتها دراسة الطبيعة والانسان . ان الطبيعة توجد خارج الانسانوانها « اولى ، اولية ، وجوهر لم يخلق » . اما الانسان فانه جزء من الطبيعة ونتاج تطورها الطويل . والوعي ، بالنسبة لفورباخ . لم يسبق الطبيعة في الوجود وانما يعكسها ويتعرف من خلالها فقط . ان المادية الطبيعية يمكن ان تفهم وانها في متناول الانسان ويمكن ان يدركها بكل حواسه .

ان الافكار المادية التي تتضمنها فلسفة فورباخ قد ساعدت ماركس وانجلز على التخلص من المثالية الهيغلية .واستفادا منها في صياغة المادية الديالكتيكية والمادية التاريخية . غير ان مؤسسا الماركسية وان استفادا من فلسفة فورباخ ولكن لم تعجبهما سلبيتها وانقطاعها عن الحياة وعن نضال الشعب التحرري . ذلك ان ماركس وانجلز كانا على اقتناع تام بان اهم القضايا الفلسفية والاجتماعية ينبغي ان تحل ليس فيالمكاتب الهادئة وانما في التطبيق وفي النضال السياسي الثوري .

ان مساهمة ماركس وانجلز في النضال السياسي والاجتماعي الى جانب الشغيلة ، والدراسة المعمقة للعلوم الطبيعية والفلسفة والتاريخ اقنعتهما بافلاس المثالية ، وادت الى انتقالهما الحازم الى مواقع الطبقة العاملة . ان هذا الانتقال كان يعني من وجهة النظر الفلسفية وضع فلسفة من نوع جديد — هي المادية الديالكتيكية والمادية التاريخية .

ان ماركس وانجلز في صياغتهما فلسفتهما استفادا من ديالكتيك

هيقل ومادية فورباخ بعد ان اعادا صياغتيهما بشكل انتقادي وبذلك حررتا من رواسبهما اللاعلمية واغتنتا بالتجربة الهائلة لنضال الطبقة العاملةالثوري وبأحدث المنجزات العلمية .

ان ماركس وانجلز بوضعهما المادية الدياليكتيكة والمادية التاريخية قاما بثورة هائلة حققت انقلابا في الفلسفة .

٢ ـ بماذا يتمثل جوهر الثورة التي انجزتها الماركسية في الفلسفة

ان تبيان جوهر الثورة التي انجزتها الماركسية في الفلسفة ـ يعني توضيح **الجديد** الذي اضافه ماركس وانجلز للفلسفة يعني كشف الفوارق **النوعية** بين الفلسفة الماركسية والانظمة الفلسفية التي سبقتها .

ان الفلسفة الماركسية من الناحية المبدئية تختلف عنالانظمة الفلسفية التي سبقتها **بطبيعتها الطبقية ودورها في الحياة الاجتماعية .**

ان الفلاسفة الذين سبقوا ماركس ، باستثناء عدد قليل منهم ، خدموا المستغلين لذلك لم يضعوا امامهم هدف اعادة بناء العالم لصالح الانسان الشغيل .

بينما الفلسفة الماركسية ، لا تخدم حفنة من المستغلين وانما تعبر عن مصالح اكثر الطبقات تقدمية وهي البروليتاريا ومصالح الجماهير الشعبية الغفيرة من صانعي التاريخ الحقيقيين : ان مؤسسي الماركسية ، ماركس وانجلز ، لم يكونا مؤسسي فلسفة جديدة فقط وانما كانوا **قادة الحركة البروليتارية الثورية المتنامية.** لقد اشارا بكلتأكيد الى ان الثورةالاشتراكية ودكتاتورية البروليتاريا هما الطريق الوحيد لتحرير الشغيلة ، وقدما عبقريتهما كلها ، وطاقتهما الخلاقة الجبارة ، وملكاتهما التنظيمية الرائعة للقضية النبيلة ، قضية تحرير الشغيلة من الاستثمار ومن اجل انتصار الاشتراكية .

ان انتقال ماركس وانجلز الى مواقع الطبقة المضطهدة ، البروليتاريا ، ادى الى وضع الفلسفة التي اضبحت سلاحها الفكري في النضال ضد الرأسمالية ، واداتها الجبارة لاعادة بناء المجتمع . ان دور الفلاسفة في التطور الاجتماعي قد تعاظم بشكل كبير وتحولت الى قوة مادية عظيمة بعد ان شملت الجماهير . « ان الفلاسفة فسروا العالم فقط باشكال مختلفة ، بينما المهم تغييره » ؛ هكذا حدد ماركس هذه **الخاصية** الهامة **للمادية** الدياليكتيكية والمادية التاريخية . ان قوة الفلسفة الماركسية تكمن في ارتباطها العضوي بالتطبيق ، وفي انها تخدم نضال الطبقة العاملة ضد

الراسمالية من اجل الاشتراكية والشيوعية .

ان العضوية بين المادية والدياليكتيك تشكل تعبيرا هاما عن الانقلاب الثوري الذي قامت به الماركسية في الفلسفة .

ان تاريخ الفلسفة قد اوضح ا نالدياليكتيك والمادية قد ظهرا منذ امد طويل قبل ظهور الماركسية. غير ان عيب الفلسفة القديمة يكمن في انالمادية والدياليكتيك غالبا ما كانا منفصلين فيها . فهيغل كان دياليكتيكيا غير انه لم يكن ماديا ، وفورباخ كان ماديا غير انه لم يكن دياليكتيكيا . ان ماركس وانجلز وحدهما قد تغلبا على ذلك الانقطاع الموجود بينالدياليكتيك والمادية، ووحداهما عضويا في وجهة نظر المادية الدياليكتيكية. ان هذا التوحيد هو احدى اهم خصائص الفلسفة الماركسية التي تميزها نوعيا عما سبقها من انظمة فلسفية .

ان ظهور الماركسية كان بمثابة انقلاب عظيم في وجهات النظر تجاه المجتمع .

لقد نظر الفلاسفة قبل ماركس الى التطور الاجتماعي نظرة مثالية : كانوا يرون ان قوى هذا التطور موجودة فقط في افكار الناس، فيوعيهم. لكن ماركس وانجلز عارضا وجهات النظر المثالية هذه بفهم مادي للتاريخ . فهما اول من وضع وحل بشكل صائب المسألة الاساسية في الفلسفة — مسألة العلاقة بين الفكر والوجود — مطبقة على المجتمع . وبرهنا بشكل لا يدحض ان ليس الوعي الاجتماعي للناس هو الذي يحدد وجودهم وانما العكس وجودهم الاجتماعي ، وقبل كل شيء انتاج الخيرات المادية ، هو الذي يحدد الوعي الاجتماعي . وان تطور المجتمع يعود لاسباب مادية ليس لافكار ورغبات ونوايا الناس . لذلك فان تاريخ المجتمع ليس تراكم لا نظام له من الظواهر ، وانما عملية ذات طابع قانوني وضرورة طبيعية ، لتبديل الاساليب البدائية للانتاج بأساليب ارقى . وان هذا لا يحدث عفويا ، وانما بموجب قوانين موضوعية مستقلة عن ارادة ووعي الانسان .

حزبية الفلسفة الماركسية

كثيرا ما يردد الفلاسفة البورجوازيون بان فلسفتهم « ليست حزبية » ، وانها تعكس مصالح الناس كلهم بصرف النظر عن انتماءاتهم الطبقية . ولكن كيف يمكن ان تفسر حقيقة هؤلاء الفلاسفة انفسهم عندما يقفون باستمرار الىجانب الرأسماليين ايام الصراعات الاجتماعية ويدافعون عنالملكية الخاصة، ويبررون الاستغلال والحروب ؟ ان هذه الحقيقة تؤكد ان وقوف الفلاسفة البورجوازيين خارج الطبقات والاحزاب لا قيمة له ، وان قناع اللاحزبية

ضروري لهم لاخفاء الطابع الطبقي الحزبي لفلسفتهم وخدمتهم الفعالةلمصالح الراسمال . لقد اعلنمؤسسا الماركسية بصراحة وخلافا لمفكريالبورجوازية مبدأ حزبية الفلسفة الذي يميز الرابطةالتي لا تنفصل بينالفلسفة والسياسة والطبقات الاجتماعية والاحزاب المعينة . ا نالفلسفة نتاج عصر معين وفلسفة معينة ولهذا فانها تعبر دائما عن متطلبات هذا العصر وتدافع عن مصالح هذه الطبقة ، وحزبية الفاسفة تعني بالضبط خدمة قوى اجتماعية معينة .

ان الفلسفة الماركسية ظهرت كسلاح فكري للطبقة العاملة في نضالها ضد البورجوازية . وحزبيتها البروليتارية تكمن بالضبط وقبل كل شيء في خدمتها المتفانية للطبقة العاملة والشعب الشغيل ، وفي عدم مهادنتها للبورجوازية الرجعية . ان مبدأ حزبيةالفلسفة يتطلب -كما كتب لينين- : « اننطبق **نهجنا** واننناضل **ضد كامل نهج** القوى والطبقات المعاديةلنا».(١)

ان كوننا حزبيين في الفلسفة يعني ان نتخذ مكانا محددا في النضال المستعر منذ اكثر من الفي سنة في تاريخ الفكر الفلسفي بينالمادية والمثالية. ان هذا النضال لم يخف اليوم بل اشتد اكثر فاكثر ، ويجد تعبيره فيالمعركة الضارية بين المادية الدياليكتيكية والفلسفة المثالية للبورجوازية الرجعية . ان حزبية الفلسفة الماركسية تتطلب ان نقف بقوة في مواقع مادية ثابتةخلال نضالنا وان ندافع عن المادية الدياليكتيكية والمادية التاريخية وان نطورها بشكل شامل ، وان نشن نضالا لا هوادة فيه ضد الايديولوجية المعادية للماركسية ، ضد كل مظاهر المثالية والكهنوت . ان هذا النضال يكتسب اهمية ملحة في ايامنا ، حيث يستعر نضال لا هوادة فيه بين ايديولوجيتين- اشتراكية وبورجوازية وحيث تستخدم البورجوازية فينضالها ضدالفلسفة الماركسية ادق اشكال المثالية والكهنوت . وتزداد اليوم اكثر من اي وقت مضىضرورة المبدئية العاليةواليقظة والصرامة الحزبية الشديدة فيالفاسفة.

ان المحرفين المعاصرين يجارون الايديولوجيين البورجوازيين ويشوهون جوهر المبدأ الماركسي اللينيني عن حزبية الفلسفة فيزعمون بان الحزبية لا يمكن ان تنسجم مع العلمية والموضوعية . ولذا فانهم يعرضون ايديولوجية البورجوازية باعتبارها فوق الطبقات ، ويعتبرونها الايديولوجية العلمية الوحيدة . انهم يريدون التخلي عن النضال ضد هذه الايديولوجية لانها تحوي معارف بشرية عامة مفيدة وضرورية لجميع الطبقات في المجتمع .

ان البورجوازية في الواقع تشوه باستمرار قوانين تطور المجتمع من

---

(١) لينين : مجموعة المؤلفات ، الجزء ١٤ ص ٣٦٤ .

اجل ان تخلد الرأسمالية التي حكم عليها التاريخ بالفناء . اما البروليتاريا التي تريد اعادة بناء العالم فانها لهذا الهدف بالذات ينبغي عليها ان تتعرف على قوانين الواقع وان تقف الى جانب العلم لان وجهة النظر العلميـة هي وحدها التي يمكن ان تخدم كدليل امين للعمل .

ان هدف البروليتاريا الطبقي هو انتصار الشيوعية . وان السير نحو الشيوعية يعبر عن المحتوى الموضوعي لتطور المجتمع المعاصر . وبالتالي فان السير الموضوعي للتاريخ والمصالح الطبقية للبروليتاريا يتطابقان تمامـا . ولهذا فان تطابق الدفاع الثابت عن مصالح البروليتاريا والموضوعية العلمية يمثل اهم خاصية في حزبية الفلسفة الماركسية اللينينية .

٣ ـ الطابع الخلاق للفلسفة الماركسية اللينينية

ليست الفلسفة الماركسية مجموعة قواعد ثابتة وضعت لتبقى الى الابد وتقبل على اساس الايمان ، وانما هي **علم خلاق متطور** . لا تقف في مكانها، بل تتحرك الى امام بسيرها المستمر خطوة فخطوة مع الحياة المتغيرة المتبدلة، وتغتني كل يوم بأحدث منجزات التطبيق الاجتماعي والتاريخي ومنجزات العلوم الطبيعية .

لقد ظهرت الماركسية في ظروف الرأسمالية الصاعدة المتطورة حيث التطور الاجتماعي يسير ببطء وهدوء نسبي . وفي نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين تغيرت اللوحة التاريخية جذريا . لقد بلغت الرأسمالية مرحلتها النهائية ــ الاستعمار، ووصلت التناقضات الاقتصادية والسياسية درجة من الحدة لم تبلغها من قبل . وتبدل عهـد التطور السلمي النسبي للرأسمالية بعهد العواصف الثورية والانقلابات الاجتماعية .

لقد رافق تحطيم العلاقات الاجتماعية جذريا ثورة في العلوم الطبيعية . ان اكتشـاف الالكترون وقدرة بعض العناصر على ان تشع الطـاقة بشـكل اشعة وغيرها من المنجزات العظيمة في العلم حطمت التصورات الميتافيزيقية عن المادة وخصائصها .

من المعروف تماما ان الظروف الجديدة دللت علـى التطور الخـلاق للفلسفة الماركسية . واصبح من الاهمية فكـان تعميم التجربة الجديـدة للنضال الثوري للبروليتاريا واحدث منجزات العلوم الطبيعية . ذلـك ان القوى المعادية للماركسية كانت قد انتعشت وشددت هجماتها ضد الاساس النظري لوجهة نظر الطبقة العاملة ــ المادية الدياليكتيكية والمادية التاريخية. في نهاية القرن التاسع عشر بدأ ينتقل مركز الحركة العمالية العـالمية

الى روسيا حيث كانت تنضج الثورة الاشتراكية ، واصبحت روسيا موطنا للينينية . **ان اللينينية هي الماركسية في العصر الجديد ــ عصر الاستعمار والثورات البروليتارية ، والانتقال من الراسمالية الى الاشتراكيـة وعصر بنـاء الشيوعية .**

ولهذا ليس صدفة ان يرتبط التطور المبدع والخلاق للفلسفة الماركسية بقائد البروليتاريا الروسية والعالمية العظيم فلاديمير ايليتش لينين (١٨٧٠ــ ١٩٢٤) . ان نشاط لينين في ميدان الفلسفة هو من الضخامة بحيث يشكل مرحلة كاملة وعصرا في تاريخ الفكر الفلسفي .

المرحلـة اللينينيـة في تطـور الفلسفة ان المرحلة اللينينية في تطور الفلسفة تشمل، تاريخيا ، عهدا يمتد من نهاية القرن التـاسـع عشر الى ايامنا هذه .

ان الخدمة التي اسداها لينين هي انه صان المادية الدياليكتيكية والمادية التاريخية وطورهما الى امام في الظروف التاريخية الجديدة. وكان نشاطه النظري يرتبط مبـاشرة بنضـال البروليتاريا الثوري وبتطبيقات البنـاء الاشتراكي في الاتحاد السوفياتي . ولم يغن لينـين الفلسفة الماركسيـة فحسب ، وانما قاد عملية تحقيق مبادئها في التطبيق . فقد اسس الحزب الشيوعي ــ حزبا ثوريا من نوع جديد ــ وتحت قيـادة هذا الحزب حطم العمال والفلاحون الراسمالية في روسيا واقاموا اول دولة اشتراكية في العالم . لقد اعد لينين خطة بناء الشيوعية وظل حتى اخر ايام حياته يقود الشعب والحزب اللذين يحققان بابداع هذه الخطة في الواقع العملي.

ان العصر التاريخي الجديد يضع امام الطبقة العاملة وحزبها الماركسي مهمة اعادة بناء المجتمع ثوريا ، بتحطيم الراسمالية وبناء الاشتراكية. ولذا فان لينين اعار اهتماما بالغا لتحليل قوانين التطور الاجتماعي ولشرح جوهر الاستعمار . وقد طور لينين النظرية الماركسية عن الثـورة الاشتراكية ، آخذا بعين الاعتبار تبدل الظروف التاريخية . وبرهن علـى ان الموضوعـة الماركسية القائلة بان الثورة الاشتراكية يمكنهـا ان تنتصر فقط في حـالة نشوبها في جميع الاقطار الراسمالية المتطورة في آن واحد ، قد شـاخت في الظروف الجديدة . واستنادا الى قوانين الاستعمار التي اكتشفها لينين بين الامكانية الواقعية لانتصار الاشتراكية في البداية في عدة اقطار او حتى في بلد واحد . ان النظرية اللينينية عن الثورة الاشتراكية كان لهـا تأثـير عظيم على المجرى اللاحق للتطور الاجتماعي .

لقد اغنى لينين التعاليم الماركسية عن الطبقات والصراع الطبقي وعن

ديكتاتورية البروليتاريا واشكالها ودور الجماهير الشعبية في التاريخ ودور حزب الطبقة العاملة والافكار التقدمية الخ... وساهم مساهمة عظيمة في اعداد قضايا الدياليكتيك حيث حلل بعمق وشمول جوهر ازمة العلوم الطبيعية التي ظهرت في اواخر القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، وعلاقتها بأحدث الاكتشافات العلمية ، واشار الى ان هذه الازمة يمكن التغلب عليها فقط على اساس مبادىء الدياليكتيك المادي .

لقد ناضل لينين بثبات ضد الايديولوجية البورجوازية والتحريفية والجمود العقائدي . وسلح الماركسيين للنضال ضد التحريفيين المعاصرين واصحاب الجمود العقائدي عندما كشف الملامح الجوهرية للتحريفية والجمود العقائدي واشار الى اتجاهات تطورهما .

وسنعرض في الفصول القادمة من هذا الكتاب بتفصيل اكبر مساهمة لينين في الفلسفة الماركسية .

لقد تطورت وتتطور الفلسفة الماركسية بعد لينين على ايدي رفاق لينين وتلامذته ، القادة البارزون للحزب الشيوعي في الاتحاد السوفياتي والاحزاب الشيوعية والعمالية الشقيقة .

ان التطوير اللاحق للفلسفة الماركسية هو في قرارات المؤتمرات والكونغرسات واجتماعات اللجنة المركزية للحزب الشيوعي في الاتحاد السوفياتي وسائر الاحزاب الماركسية وقرارات اللقاءات العالمية للشيوعيين.

ان هذه الوثائق اذ تطور الفلسفة الماركسية فانها تشهد على المهارة في تطبيق موضوعاتها واستنتاجاتها لدى تحليل الوضع التاريخي وفي التطبيق الحسي للنضال الثوري وفي بناء الاشتراكية والشيوعية .

لقد ساهمت المؤتمرات العشرون والحادي والعشرون والثاني والعشرون للحزب الشيوعي في الاتحاد السوفياتي بنصيب عظيم في اغناء النظرية الماركسية اللينينية. فان قرارات ومواد المؤتمرات وخطب الرفيق خروشوف تتميز بانطلاق خلاق حقيقي تجاه القضايا الاساسية للبناء الشيوعي والحركة التحررية العالمية . وقد حلت حلا مبدعا قضايا نظرية هامة جدا كقضية دكتاتورية البروليتاريا في الظروف المعاصرة ، وقانونية تحول الاشتراكية الى الشيوعية ، وطرق خلق القاعدة المادية والتكنيكية للشيوعية ، وصياغة العلاقة الاجتماعية الشيوعية وتربية الانسان الجديد ، وتعدد اشكال الانتقال من الراسمالية الى الاشتراكية ، ودخول البلدان الاشتراكية في الشيوعية في وقت واحد تقريبا ، وامكانية درء الحرب العالمية في عصرنا ، وطابع العصر الذي نعيش فيه وغيرها .

ان اعظم عمل نظري للحزب الشيوعي في الاتحاد السوفياتي يتجسد

في برنامجه الجديد الذي اقره المؤتمر الثاني والعشرون للحزب والذي يمثل **برنامجا حسيا معززا** ، بشكل علمي لبنــاء الشيوعية . ان برنامج الحــزب الشيوعي في الاتحاد السوفياتي وثيقة نظرية وسياسية هامة تسجل **مرحلة جديدة** في تطور نظرية ماركس وانجلز ولينين الثورية . واغنى بشكل خلاق خبرة بناء الاشتراكية آخذا بعين الاعتبار تجربة الحركة الثورية في العالم اجمع .

ان تحديد البرنامج للمهام الرئيسية والمراحل الاساسية لبناء الشيوعية قد عبر عن العقل الجماعي للحزب .

تتطور الفلسفة الماركسية في خضم نضال ضــار ضد الايديولوجية البورجوازية الرجعية المثالية والكهنوت : وان تاريخ الفلسفة الذي يمتــد عبر القرون لم يلغ انقسام الفلاسفة الى معسكرين متعــارضين – مــاديين ومثاليين . وان الصراع بين هذين الاتجاهين هو انعكاس للصراع بين القوى الطبقية التقدمية والرجعية .

ان الفلسفة المادية الماركسية اللينينية كوجهة نظر للبروليتاريا الثورية ولكل الشغيلة هي بمثابة سلاح ماض في النضال ضد الرجعية الاستعمارية ومن اجل الاشتراكية والتقدم . انها تعارض الفلسفة المثالية للبورجوازية الاستعمارية الرجعية التي ولّى زمانها والتي تأخذ على عاتقها دور الدفــاع عن النظام الراسمالي وابقاء ملايين الشغيلة اسرى المثالية ، ودحض الماركسية اللينينية ومنع تأثير افكار المادية والشيوعية العلمية على الفئــات الواسعة من الشعب .

توجد في الفلسفة البورجوازية المعاصرة حاليا اتجاهــات ومدارس كثيرة ، غير انه لا وجود لفوارق جوهرية بينها ، ذلك لانها في الامر الرئيسي، في الجوهر المثالي ، في خدمة الرجعية الاستعمارية ، كلهــا على السواء . فبعض هذه الاتجاهات يبشر صراحة بالمثالية والتصوف وكره العلم، واخرى تحاول ان تستخدم بلباقة اكبر احدث المنجزات العلمية لتتكيف مع متطلبات الحياة الاجتماعية ، واتجاهات ثالثة تعمل بصراحة على احيــاء الفلسفــة المدرسية للقرون الوسطى (السكولاستيكا) ودعم المعتقدات الدينية .

غير انه مهما حاول مفكرو البورجوازية المعاصرون فانهم لم يستطيعوا دحض النظرية الماركسية اللينينية . ان التاريخ اثبت بشكل مقنع انتصــار الماركسية اللينينية وفلسفتها المادية .

ان الفلسفة الماركسية اليوم هي وجهة النظر الســائدة في البلــدان الاشتراكية ، التي يعيش فيها اكثر من مليار انسان . وان المادية التاريخية تسيطر اكثر فاكثر على عقول وقلوب الناس في البلدان الراسمالية. ويقتنع

الناس الشرفاء باطراد. وفي العالم اجمع ، بافلاس المثالية وبعدم انسجامها مع تقدم الحياة الاجتماعية وتطور العلوم ؛ وينتقلون الى مواقع المادية الدياليكتيكية . ومما يشير الى هذا بشكل خاص موقف الفيلسوف الياباني الشهير يانا هيتراكيندز بورو الذي انتقل الى مواقع المادية الدياليكتيكية تحت تأثير الحياة نفسها بعد سنين طويلة من الشك والبحث ، وترك المثالية التي كان من انصارها عشرات السنين .

ان مواقع المادية الدياليكتيكية اقوى من المثالية في العالم الطبيعي المعاصر . والمادية الدياليكتيكية هي السائدة عند الباحثين الطبيعيين في البلدان الاشتراكية وتكتسب اليوم انصارا من العلماء في البلدان الرأسمالية يتزايدون باستمرار يوما بعد يوم، ولقد وقف في مواقع المادية الدياليكتيكية اكبر العلماء الفرنسيين – جوليو كوري والعالم الانكليزي جون برنال وغيرهما. ويتخلص من اوهام المثالية باستمرار كثيرون من الباحثين الطبيعيين .

ان عصرنا هو عصر انتصار المادية ، عصر الازمة العميقة للمثالية وانهيارها . ورغم ان المثالية تصارع بيأس ضد الفلسفة المادية فان نتيجة الصراع ليست مجال شك . فالمستقبل هو لوجهة النظر العلمية ، الماركسية اللينينية .

القسم الأوّل

المادية الديالكتيكية

الفصول ٣ ــ ٨
المادة واشكال وجودها .
المادة والوعي .
الديالكتيك الماركسي كتعاليم عن التطور والروابط العامة .
القوانين الاساسية للديالكتيك المادي .
مفاهيم الديالكتيك المادي الاساسية .
نظرية المعرفة في المادية الديالكتيكية .

الفصل الثالث

المادة واشكال وجودها

عرفنا فيما سبق ان الامر الرئيسي في موضوع المادية الدياليكتيكية هو حل المسألة الاساسية في الفلسفة ، مسألة العلاقة بين المادة والوعي . وسنبحث الان بالتفصيل **ما هي المادة وفي اي الاشكال توجد .**

١ ــ ما هي المادة ؟

تحيط بالانسان اجسام مختلفة لا حصر لها ، اذ توجد اجسام الطبيعة غير الحية من أصغر اجزاء الذرة حتى الكواكب والنجوم والاجرام الكونية الهائلة . كما توجد الاجسام الحية ايضا من ابسطها حتى اكثرها تعقيدا . بعضها قريب منا ونعيش وسطه ونحس بوجوده باستمرار ، وبعضها بعيد عنا وعلى مسافات هائلة جدا ، وبعضها نراه بالعيون المجردة وآخر نحتاج لرؤيته الى اجهزة ومعدات معقدة غاية التعقيد . هذه الاجسام ذات صفات وخصائص ونوعيات مختلفة .

ان الانسان ، وقد ادهشه هذا التعدد والتنوع ، فكر منذ امد بعيد بهذا الامر ــ أليست هذه الاجسام التي تحيط به ذات اساس موحد وخصائص متقاربة .

وشيئا فشيئا اقنعت التجربة الحية وتطور العلم والتطبيق الانسان ، بانه مهما تعددت الاشياء والظواهر ومهما اختلفت صفاتها فانها مادية توجد خارج الوعي ومستقلة عنه . وهكذا برهنت العلوم الطبيعية بشكل لا يدحض ، بأن الارض وجدت منذ ملايين وملايين السنين قبل ان يظهر الانسان او اية موجودات حية على سطحها .

وهذا يعني ان المادة ، الطبيعة ، انما هي موضوعية ، مستقلة عن الانسان

ووعيه . وان الوعي نفسه ليس سوى نتاج التطور المستمر الطويل العالـم المادي .

ان المفهوم الاساسي الفلسفي ـ المادة ، يعكس بالضبط الصفةالمشتركة بين جميع الاشياء والظواهر وهي كونها واقع موضوعي ، وانها توجد خارج وعينا ويعكسها الوعي .

ان الاعتراف بموضوعية العالم الذي يحيط بنا ، وكذلك بقدرة العقل الانساني على معرفة هذا العالم ، هو المبدأ الاساسي لوجهة النظر الماديـة الدياليكتيكية . وهذا يعني ان مفهوم المادة الذي يعكس اهم المبادىء هذه ، هو أهم مفهوم اساسي في المادية الدياليكتيكية ويعتبر مفهوما مركزيا .

ان المفهوم الاساسي ـ المادة هو مفهوم واسع : اذ يشمل ليس شيئـا منفردا واحدا وليس مجموعة منفردة من الاشياء والظواهر وانما يشمـل **كل الواقع الموضوعي** . وبعد ان يجرد مفهوم المادة الاشياء المنفردة منخواصها وصفاتها وروابطها الحسية وتأثيراتها المتبادلة يعكس ما **هو عـــام ورئيسي** في جميع هذه الاشياء وجو موضوعيتها ، اي وجودها المستقـــل عن وعي الانسان .

ان مفهوم المادة لا يعطي فقط ادراكا للصفات العامة للعالم الموضوعي كما هو عليه ، وانما هو مفهوم اساسي هام جدا للمعرفة . فهو اذ يشير الى قدرة الانسان على معرفة العالم الذي هو مصدر معارفنا ، فان مفهوم المادة يمثل اساسا لحل اهم قضايا نظرية المعرفة في المادية الدياليكتيكية .

ولمفهوم المادة اهمية عظيمة بالنسبة للعلوم الاخرى ايضا ، وخصوصا العلوم الطبيعية . ذلك ان اي علم يمكن ان يتحول الى لعبة للعقل البشري لا معنى لها اذا لم يدرس هذه الناحية او تلك من الواقع الموضوعي .

ولقد أعطى لينين تعريفا علميا حقيقيا شاملا المادة في كتابه « الماديـة والنقد التجريبي » ، حيث كتب يقول :

« ان المادة مفهوم فلسفي اساسي يعني الواقع الموضوعي الموجود بشكل مستقل عن حواس الانسان ، هذا الواقع الموضوعي الذي تعكسه وتصـوره وتنسخه حواسنا » .

ان التعريف اللينيني للمادة ذو اهمية عظيمة . فهو اذ يعمم التجربـة الطويلة للبشرية والتي استمرت قرونا عديدة ، يسلح الناس بفهم صحيـح للعالم الذي يحيط بهم ويعلمهم الانطلاق من الواقع ، ومن الظروف الماديـة الموضوعية سواء في التطبيق او المعرفة ، وليس من تصوراتهـم الذاتية الخاصة . وهو اذ يؤكد امكانية معرفة العالم ، يكشف امام العقل البشري آفاقا غير محدودة ويوقظ الفكر ويساعد الانسانعلى التغلغل في اسرار العالم

الدفينة .

ويعكس التعريف اللينيني للمادة التضاد الجذري بين المادية الدياليكتيكية والمثالية واللاادرية (وللتعريف اللينيني مغزى الحادي عميق، **فهو يقوض من الاساس الاوهام الغيبية عن خالق العالم**) . وفي الواقع : اذا كانت المادة هي الاولى ووجدت منذ الازل فهذا يعني انها لم تخلق ولن تزول ، وانها السبب الداخلي النهائي لكل ما هو موجود . وهكذا! ففي هذا العالم ، حيث المادة هي السبب الاول والاساس الاول لكل شيء ، **لا يقوى اخرى لا تخضع للقوانين الطبيعية .**

ولذا فان المثاليين وانصار الكنيسة كانوا معارضين بشدة وعلى الدوام للاعتراف بالمادة . وقد انشغل المثاليون في الماضي من أفلاطون الى بركلي ب « تحطيم » مفهوم المادة وشن الماخيون (١) حملة صليبية حقيقية ضد مفهوم المادة . وعلى اثرهم تسير اليوم غالبية ممثلي الفلسفة البورجوازية والتحريفية . وهدف الهجمات التي لا حصر لها ضد مفهوم المادة هو تقويض المفهوم الاساسي للمادة وطرد المادة من الفلسفة والعلم . وبهذا يتم فتح الطريق حرا امام الايمان والمثالثة واللاادرية .

غير ان هذه الهجمات فاشلة تماما . ذلك ان تطور العلم وكل نشاط البشرية العملي يدلل بشكل مقنع بأن المادة توجد كواقع موضوعي ، وانها وجدت منذ الازل وخالدة ، لا نهاية لها . وان جميع الاشياء والعمليات هي مظاهر واشكال للمادة المتحركة . ولهذا فالعالم الذي يحيط بنا هو **عالم مادي موحد** . غير ان انواع واشكال المادة كما تقنعنا التجربة الشخصية والمنجزات العلمية متعددة ومختلفة . وهذا يعني ان العالم هو **وحدة اشكال ونماذج كثيرة** . وفي العالم المادي لا يمكن لاي شيء مهما صغر ان يظهر من لا شيء او ان يزول دون أثر . ذلك ان فناء شيء ما هو بداية شيء آخر ، وفناء هذا الشيء الاخر هو بداية ثالث وهكذا الى ما لا نهاية . ان الاشياء الحسية تتبدل وتتحول من واحد الى آخر ، غير ان المادة لا تفنى ولا تستحدث .

مفهوم المادة واللوحة التي تعطيها العلوم الطبيعية عن العالم

ينبغي التفريق بين المادة كمفهوم فلسفي والصورة التي تعطيها العلوم

---

(١) الماخيون هم ممثلو تيار مثالي في الفلسفة في نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين . وسموا بالماخيين نسبة للفيلسوف النمساوي ماخ . وقد انتقد لينين الماخية نقدا عميقا وشاملا في كتابه « المادية والنقد التجريبي » الصادر عام ١٩٠٩ .

الطبيعية عن العالم ، اي المعارف عن تركيب وحالة وصفات الانواع الحسية الملموسة للمادة ، هذه المعارف التي تتوصل اليها العلوم الطبيعية في مجرى تطورها . ذلك ان هذه المعارف تتبدل وتتطور باستمرار ، واحيانا تتحطم من اساسها . غير ان هذا لا يزعزع واقعية وصحة المفهوم الفلسفي للمادة كواقع موضوعي يوجد خارج وعينا .

ان المثاليين عندما يحاولون « دحض » المادية يخلطون بشكل متعمد المفهوم الفلسفي عن المادة بالمعارف التي تعطيها العلوم الطبيعية عن تركيب الاجسام المعينة ويصورون تبدل هذه المعارف ، اي التخلي عن القديمة ، واستبدالها بجديدة اضبط واتقن باعتباره « زوال » للمادة و « هزيمة » للمادية .

فمثلا كان الماديون الميتافيزيقيون طوال قرون عديدة يجعلون المادةوالذرة نفس الشيء ، اي يطابقون بينهما ، وقالوا بأن الذرة لا تخترق ولا يمكن تجزئتها . ولكن اكتشف الالكترون في نهاية القرن التاسع عشر ، وهو اصغر جزء مكون للذرة ـ ومن ثم تم اكتشاف اجزاء اخرى . وبالنتيجة فان الذرة التي اعتبرت قرونا عديدة الكتلة النهائية التي لا تتجزا في الكون ، ظهر انها ظاهرة معقدة جدا . وظهر ان صفات الالكترون لا تشبه نهائيا صفاتالذرة . وهذا ما اربك المفكرين الفيزيائيين الميتافيزيقيين . اما الفلاسفة المثاليون فقد استخدموا المصاعب التي ظهرت كذريعة للقول بـ « لا مادية » « الذرة وزوال المادة » .

وقد دلل لينين في كتابه « المادية والنقد التجريبي » على الافلاس التام لهذه المزاعم . واشار الى ان المادة لم تختف نتيجة الاكتشافات الحديثة في العلوم الطبيعية وانما اختفى الحد الذي وصلت اليه معرفتنا للمادة حتى ذلك الوقت . فبالامس كان حد معرفتنا الذرة واليوم الالكترون وغدا سيزول هذا الحد ايضا . ان معرفتنا تتغلغل عميقا في المادة وتكشف صفاتها الجديدة وتركيبها الاعمق والادق . هذا النوع من المادة يمثله بالتأكيد الالكترون المكتشف في حينه . واورد لينين فكرة عبقرية اذ اشار الى« ان الالكترون غني وليس هو النهاية ، فالمادة لا نهاية لها وان المعرفة لا حدود لها » . « ان الالكترون ، شأنه شأن الذرة لم يستنفذ بعد وان الطبيعة لا حدود لها » (1) ، هكذا اكد لينين معمما منجزات العلم .

ان افكار لينين عن التعدد النوعي لاشكال المادة ولا نهائية تركيبها وصفاتها وجدت تأكيدا ساطعا في منجزات العلم الحديث وفي الفيزياء قبل كل شيء .

---

(١) لينين مجموعة المؤلفات ، الجزء ١٤ ص ٢٧٥ .

ان احد انواع المادة المعروفة في الفيزياء الحديثة هو الكتلة ، ويقصد بالكتلة كل ما له كتلة ميكانيكية ، او كما يقال في الفيزباء كتلة في سكون . والكتلويات هي كل ما هو منظور او كما تدعى ايضا الاجسام المرئية بالعين المجردة ، التي تحيط بالانسان . هذه الاجسام تتكون من جزئيات (٢) . والجزئيات من ذرات . فالاجسام والجزئيات والذرات هي ذات اشكال معقدة جدا . غير ان تعدد اشكال المادة نوعيا لا يقتصر ، على هذا ، فالذرات نفسها ذات تركيب معقد . فهي مؤلفة من جزئيات اولية ـ هي البروتونات والنيوترونات التي تؤلف النواة . وان الالكترونات التي تشاهد حول النواة ذات سرعة كبيرة . وما عددناه وغيره مما هو معروف للعلم من الجزئيات الاولية (الميزونات الهيبرونات والنيوترونات وغيرها) هي اصغر الجزئيات المعروفة من الكتلة وهي تدعى « اولية » اي الاكثر بساطة لانه لم تجر تجزئيتها حتى الان الى ما هو اصغر . غير انه مما لا شك فيه ان هذه الجزئيات الاولية هي بدورها كالذرة ذات تركيبمعقد . والامر المميز هو انالجزئيات«الاولية» توجد ليس فقط في تركيب الذرات والنواة وانما في حالة حرة ايضا .وان اكثرية هذه الجزئيات توجد في الاشعاع الكوني . وخلال السنوات الاخيرة كان قد اكتشف ما يسمى بالجزئيات المضادة وهي (البوزيترون) والانتي بروتون وغيرها ، التيتتميز عن الجزئياتالمقابلة لها في الكتلة وهي(الالكترون والبروتون) بالشحنة الكهربائية المضادة التي تحملها .

عندما الف لينين كتابه « المادية والنقدالتجريبي » كان يعرف جزء « اولي » واحد فقط هو الالكترون . واليوم يعرف من هذه الجزئيات اكثر من ثلاثين جزء مختلفة ومتحركة ومتغيرة وتتحول من واحد الى آخر . ان الفيزياء كشفت ليس فقط كثرة من جزئيات الذرة وانما برهنت ايضا ، بالتعرف على خصائص هذه الجزئيات ، انها كالذرة غنية التركيب فالالكترون مثلا لا يمكن تصوره الان ككرة لا تتغير . فهو يملك صفات الانقطاع(المحدودية في المكان) ، وعدم الانقطاع (اللامحدودية في المكان) او صفاتالجزئيوالموجة وكذلك الكتلة من شحنة كهربائية ، ومغناطيسية وغيرها . وكذلك حال الجزئيات « الاولية » فانها هي بدورها ايضا تملك خصائص كثيرة .

كذلك يعرف ، في العلوم المعاصرة ، من الانواع الاساسية للمادة المجال. فالمجال الفيزيائي هو تكوين مادي يربط الاجساموينقلتأثير جسم ما للاخر . ومنذ القرن التاسع عشر عرف مجال الجاذبية والمجال الكهرومغناطيسي واحد انواعه الضوء) . ان عناصر وجزئيات المجال الكهرومغناطيسي هو

(٢) اصغر اجزاء الكتلة والذي يوجد مستقلا ويحافظ على خصائصه الكيماوية ويتكون من عدة ذرات ترتبط فيما بينها بقوة ذات طابع كهربائي .

الفوتونات . ان الفوتونات تختلف عن جزئيات الكتلة . اذ ان الفوتونات لا تملك صفات كتلة في حالة سكون . وما عدا هذا فانها تشاهد باستمرار فيالفضاء الخالي بسرعة ثابتة هي ۳۰۰ الف كم في الساعة . في حين ان سرعة حركة جزئيات الكتلة يمكن ان تكون مختلفة جدا ولكنها لا تزيد عن سرعة الفوتونات.

وما عدا المجال الكهرومغناطيسي ومجال الجاذبية يوجد المجال النووي والميزوني والكهرويوزيتروني . ومن هذه المجالات توجد جزئيات معينة توافقه . ولا تتفق خصائصها مع خصائص الفوتون .

وبالتالي فان الكتلة والمجال ذات اشكال متعددة وغير محدودة من حيث التركيب والخصائص .

ان الحدود بين الكتلة والمجال تظهر بوضوح في العالم المرئي فقط . غير ان هذه الحدود تكون نسبية في ميدان العمليات المجهرية . فبعض جزئيات الكتلة (مثلا الميترون) هي في نفس الوقت جزئيات المجال المعين . ان الكتلة والمجال مرتبطان ببعضهما ويؤثران في بعضهما البعض وقادران في ظل بعض الشروط على ان يتحولا من واحد الى آخر . فاذا كان لدينا جزئيان من كتلة مثلا الكترون ويوزيترون فيمكن - بشروط معينة ان تتحول الى فوتونات ، وهي جزئيات المجال الكهرومغناطيسي . ان التحقيق العملي لهذه التجربة هو انجاز عظيم للغاية من قبل علم الفيزياء ، ذلك انه برهن الوحدةالمادية للعالم وتبدله وحركته .

ان دراسة الجزئيات التي هي اكبر من الاعتيادية اي ما يسمىبالجزئيات العالية او الاتحادات الكيمياوية العالية (الكاوتشوك والبروتينات والسيليلوز والنشأ وغيرها) ، تسدى مساهمة هامة في تعاليم تركيب المادة . اذ ان الخاصية المميزة لهذه الاتحادات هي انها مكونة من تكرارمتعدد لنفس المجاميع من الذرات متحدة بسلسلة منالتشكيلات اكثر او اقل تعقيدا .

وباكتشاف هذه الاتحادات الكيمياوية المعقدة فان العقل البشري يتغلغل في هذا المجال من الواقع حيث الحدود بين العالم المرئي بالعين المجردة وما لا يرى بالعين المجردة . ذلك ان الكثير من هذه الاتحادات الكيمياوية وخصوصا البروتينات تخدم كمادة في تكوين الحياة ، وان معرفتها بنجاح تمثل خطوة هامة نحو تفسير جوهر ظاهرة الحياة ، ونحو السيطرة على العمليات الحياتية وتوجيهها .

وهكذا فان جميع منجزات العلوم الحديثة ، كالفيزياء والكيمياء وسائر العلوم تؤكد بسطوع موضوعة المادية الدياليكتيكية عن موضوعية المادة وعن وحدة العالم وتنوعه ولا نهائية وعدم محدودية المعرفة البشرية . غير انه ينبغي ان نلاحظ ان كل علممن العلوم رغم منجزاته العظيمة ، له.مصاعبه الخاصة ،

وقضاياه غير المحلولة . وهذا بالضبط ما يستغله خصوم المعرفة العلمية . فانصار الكنيسة مثلا يعلنون بأن العلم غير قادر على التغلب على هذه الصعوبات ويدعون الناس الى التخلي عن الطرق العلمية في الدراسة والتوجه الى الله والاستعانة بالايمان . فهم يقولون ان الايمان ، « اندماج الانسان بالله » ، هو الكفيل بكشف اللوحة الواقعية للعالم . كما يضارب بالمصاعب التي تجابه العلوم الفلاسفة البورجوازيون وبعض الفيزيائيين المثاليين بهدف « دحض » المادية ؛ فهم يستخدمون حقيقة ان الجزئيات « الاولية » لا يمكن ان تلاحظ بشكل مباشر ليقولوا بأنها تركيبات من صنع المنطق والفكر ، وليست اجساما مادية . فالفيلسوف الانجليزي المعروف ب . رسل يدعم مثل هذا الراي .

غير ان اجزاء الذرة في الواقع هي ايضا مادية وموضوعية كما هو حال الذرة نفسها وكما هو حال الجزئيات المكونة من ذرات والاجسام المكونة من هذه الجزئيات . فهي جميعا ليست سوى عناصر في الطبيعة الموحدة والعالم المادي ، فاذا لم توجد الذرة والاجزاء المكونة لها وجودا حقيقيا ما كان من الممكن ان توجد المراكزالكهربائية الذرية التي بنى السوفيات اول مركز منها في العالم ، وما كان من الممكن ان تشق عباب المحيط اول حاطمة جليد ذرية في العالم وهي التي تحمل اسم لينين العظيم .

وهكذا فان معارفنا عن تركيب التكوينات المادية الحسية وخصائصها سواء أكانت الالكترون او الذرة او جزيء او اي جسم آخر ، انما هي نسبة ومتبدلة . فلقد تغيرت في الماضي وستتغير في المستقبل ايضا . غير انه رغم كل هذا فان المادة تظل واقعا موضوعيا . وهكذا فان الاعتراف القاطع غير المشروط بوجود المادة خارج وعي واحساس الانسان هو بالضبط ما يميز المادية الدياليكتيكية عن جميع انواع اللاادرية .

وهكذا نكون قد بينا بأن العالم مادي بطبيعته ، وان جميع الموجودات تمثل اشكالا وانواعا مختلفة من المادة . وان المادة ليست شيئا ساكنا راكدا. بل انها في حركة دائمة تتم في الزمان والمكان . ان الحركة والمكان والزمان هي الاشكال الاساسية لوجود المادة . ولكي نفهم بشكل اعمق الجوهر المادي للعالم من الضروري ان ندرس هذه الاشكال . ولنبدأ بالحركة .

٢ ــ الحركة ــ شكل من اشكال وجود المادة

ان المادة توجد فقط في حركة وعن طريق الحركةتظهر المادة ونكتشفها. تقنعنا بهذا الحقائق اليومية وتطور العلم والتطبيق .

لنأخذ ، مثلا ، الذرة فانها كجسم مادي محدد توجد ما دامت الاجزاء

« الاولية » المكونة لهافي حركة . وخارج حركة هذه الاجزاء لا يمكن للذرة ان توجد . كما انه لا يمكن ان يوجد بدون حركة اي جسم آخر . واذا ما توقف تبادل الاشياء بين الجسم الحي والوسط (وهذا نوع من الحركة ايضا) فان الجسم الحي سيموت حالا .

وبفضل الحركة تظهر الاجسام المادية وتؤثر على حواسنا . فالشمس مثلا تشع باستمرار في الفضاء الكوني جزئيات متحركة كثيرة لا عد لها . وعند وصول هذه الجزئيات الى الارض تؤثر على حواسنا وتدلنا على ان الشمس موجودة . فاذا لم تكن حركة هذه الجزئيات لم تكن لنفكر بوجود الشمس ، ذلك انها توجد على بعد حوالي ١٥٠ مليون كم عن الارض .

وكذلك حال جميع الاجسام المادية الاخرى فانها توجد وتظهر فقط في الحركة . فليست الاجزاء « الاولية » في الذرة وحدها هي التي تتحرك ،وانما الذرات في الجزيء . والجزئيات في الجسم هي في حركة مستمرة ايضا . وتتحرك الإجسام الارضية والكونية الكثيرة التي لا حصر لها . وتتبدل ايضا الاجسام الحية والحياة الاجتماعية . وليس من الممكن ان يوجد اي جزء في العالم المادي من غير حركة ولا تبدل .

وهكذا **فان الحركة شكل لوجود المادة وخاصة ملازمة لها** . قال انجلز : « الحركة شكل لوجود المادة . ولم توجد ولا يمكن ان توجد مادة بدون حركة في اي زمان او مكان » (١) .

الحركة مطلقة والسكون نسبي

ان حركة المادة مطلقة وخالدة ولا يمكن ان تفنى ولا ان تستحدث . ذلك ان المادة نفسها لا تفنى ولا تستحدث . ان البرهان الذي تقدمه العلوم الطبيعية على عدم امكانية استحداث الحركة او افنائها هو قانون ضغط الطاقة وتحولها. ووفقا لهذا القانون فان الحركة كالمادة لا تزول ولا تظهر من جديد ، وانما يتبدل نوعها فقط وتتحول من شكل الى آخر .

ولكن اذا كانت الحركة مطلقة وخالدة فهل يمكن الحديث عن السكون ؟

طبعا يمكن ويجب . ففي المجرى الشامل للتبدلات المادية توجد ايضا لحظات توازن وسكون . غير انها تتعلق ليس بالمادة بشكل عام بل بهذه الاشياء او العمليات المنفردة او تلك فقط . فكون الحركة مطلقة بالتأكيد السكون . حيث ان السكون شرط ضروري في الحركة ، لتطور العالم . في الحركة يظهر الشيء ،اما السكون فيكون كما لو انه يؤكد ويحدد نتيجة

---

(١) فريدريك انجلز ـ ضد دوهرنغ ، طبعة ١٩٥٤ البلغارية ص ٦٣ .

الحركة . هذه الحركة التي يحافظ الشيء بموجبها على ذاته لوقت معلوم ويبقى الشيء ذاته وليس شيئا آخر .

وخلافا لكون الحركة مطلقة فانالسكون **نسبي** . غير انالسكون لا يجب ان يفهم طبعا كحالة موت او همود . ان جسما ما يكون في حالة سكون فقط بالنسبة لجسم آخر . غير انه يساهم بالتأكيد في الحركة العامة للمادة . مثلا البيت الذي نسكن فيه هو في سكون بالنسبة لسطح الارض غير انه يتحرك سوية مع الارض حولمحورها ويدور معها حول الشمس وهكذا . وما عدا هذا فان في اي جسم يوجد في سكون تتم باستمرار عملياتفيزيائية وكيميائية وغيرها من العمليات . وبالتالي فان حركة المادة خالدة ومطلقة . اما السكون فانه ذو طابع وقتي ونسبي . انه فقط لحظة في الحركة .

اشكال حركة المادة

ان الطابع الشامل لحركة المادة كان معترفا به من قبل الماديين قبل ماركس ، غير انهم ادركوا بشكل محدود وميتافيزيقي . ذلك انهم لم يربطوا الحركة بتغيير الجسم وتطوره ، وغالبا ماتصوروا الحركةعلى اعتبار انهاانتقال ميكانيكي في المكان .

ان المادية الدياليكتيكية لا تقصر اشكال الحركة المتعددة على شكل واحد ميكانيكي او اي شكل آخر ، وانما تربط الحركة بالتغير ، وبتطور الاجسام ، بظهور الجديد واضمحلال القديم . ان المادية الدياليكتيكية تفهمالحركة بشكل واسع ، كأي تغير ، تغير بشكل عام يشمل جميع العمليات التي تتم فيالكون من ابسط انتقال ميكانيكي الى اعقد عملية كالتفكير الانساني .

ان اشكال وانواع الحركة كثيرة . واستنادا الى منجزات العلومالطبيعية فان المادية الدياليكتيكية تصنف انواع الحركة منتقية من اشكالها الكثيرة عددا من الاشكال الاساسية الرئيسية . ان اول تصنيف علمي لاشكال حركة المادة كان قد قام به انجلز . وقد عد بين الاشكال الاساسية : الشكل الميكانيكي والفيزيائي والكيميائي والبيولوجي والاجتماعي ، رابطا كلا من هذه الاشكال بنوع معين من المادة (فالشكل الميكانيكي بالاجسام السماوية والارضية والفيزيائي بالجزئيات ... الخ) .

ان التصنيف الذي قام به انجلز لاشكال الحركة الاساسية لا يزال يحتفظ بقيمة العلمية حتى اليوم . غير ان معارفنا عن هذه الاشكال قد اغتنت بشكل ملحوظ بسبب نجاحات العلوم الحديثة .

فالحركة الميكانيكية كانت تفهم في القرن التاسع عشر ، بصورةرئيسية ،

على اعتبارها انتقال للاجسام المرئية . اما اليوم فقد ثبت ان الانتقالات في المكان هي خاصية لجميع الاجسام المادية ـ من الجزئيات « الاولية » حتى الجسم الحي . ان الحركة الميكانيكية يجب ان لا تربط بنوع واحد فقط من المادة وهو الاجسام المرئية . فهذه الحركةملازمة لكل انواع المادة ، ولكل اشكال الحركة الاخرى ، رغم ان الشكل الميكانيكي للحركة هو ذو طابع خاص ، جزئي في اشكال الحركة الاخرى .

هذا وقد تعمقت واغتنت معارفنا عن **الشكل الفيزيائي** لحركة المادة . وجاء هذا الاغتناء اولا وقبل كل شيء من ان علم الفيزياء قد تغلغل عميقا في داخل الذرة . ونتيجة لهذا كانت قد اكتشفت ودرست انواع جديدة من الحركة الفيزيائية لم تكن تعرف سابقا ، كالحركة داخل الذرة وداخل النواة . ان انجلز كان قد ربط الحركة الفيزيائية بشكل رئيسي بعمليات الجزئيات . غير انه على ضوء المعطيات الحديثة فان هذا الشكل من الحركة يشمل عددا هائلا من الظواهر : حرارية وكهربائية ومغناطيسية والحركة داخل الذرة وداخل النواة وعددا كبيرا من العمليات في الاجسام الصلبة والسائلة والغازية المرتبطة بحركة الجزئيات الاولية وغيرها .

ان الشكل الكيميائي للحركة مرتبط باتحاد الذرات او تحللها ـ انفكاكها ـ الذي تتشكل الجزئيات نتيجة له او تنحل . هذه الجزئيات التي تتألف منها جميع الاتحادات الكيميائية . وتصحب العمليات الكيميائية حركة الالكترونات التي تشكل القشرة الخارجية من الذرة . ان التحولات الكيميائية منتشرة بشكل واسع سواء في الطبيعة العضوية او غير العضوية .

وتشكل **الحركة البيولوجية** احد اعقد اشكال حركة المادة . فهي تشمل جميع انواع العمليات التي تتم في الجسم الحي . هذه العمليات المرتبطة بالاجسام البروتينية ـ حاملة الحياة والتي تصاحبها باستمرار عملية استحالة الغذاء الذي تحصل عليه من الوسط المحيط . ونتيجة استحالة الغذاء هذه يتم باستمرار تجديد ذاتي للتركيب الكيميائي للجسيمات البروتينية التي هي المميز الرئيسي للمادة الحية .

والشكل الاعلى لحركة المادة هو **الحياة الاجتماعية** ، تاريخ المجتمع البشري . ان شكل الحركة هذا يختلف جوهريا ونوعيا عن جميع الاشكال السابقة . فلقد ظهر مع ظهور المجتمع البشري . واهم خصائصه هي عملية الانتاج المادي التي تحدد جميع جوانب الحياة الاجتماعية الاخرى .

ان اشكال حركة المادة **مترابطة مع بعضها البعض وغير منفصلة** . واساس وحدتها وترابطها المتبادل هو الوحدة المادية للعالم . ان شكلا ما من اشكال الحركة في ظل ظروف معينة يمكن ان يتحول الى شكل اخر .

فالحركة الميكانيكية مثلا تولد الحرارة والصوت والضوء والكهرباء وغيرها من انواع الحركة الفيزيائية . والتأثير المتبادل بين العمليات الفيزيائية يؤدي الى تحولات كيميائية ، والعمليات الكيميائية في ظروف معينة تولد الحياة العضوية . والشكل العالي لحركة المادة تلازمه بالضرورة اشكالا اوطأ . فالحركة البيولوجية مثلا مرتبطة بعمليات ميكانيكية وفيزيائية وكيميائية معينة . غير ان تحديد الاشكال العليا للحركة بالاشكال السفلى غير جائز . وذلك ان الشكل الحالي للحركة له قوانينه الخاصة التي تميزه عن الاشكال الواطئة وتحدد نوعيته وكيفيته . فقوانين استحالة الغذاء تميز الحياة العضوية عن الطبيعة غير الحية . اما فيما يتعلق بما يلازم الاجسام الحية من عمليات ميكانيكية وفيزيائية وكيميائية فليس لها هنا اهمية مستقلةوانما هي خاضعة للامر الرئيسي في الجسم الحي وهو استحالة الغذاء .

وهكذا فانالاعتراف بكون الحركة مطلقة وشاملة معالاخذ بعينالاعتبار الاختلاف النوعي لكل شكل من اشكالها ، وقدرة هذه الاشكال على التحول الى الشكل الاخر وعدم الهبوط بالاشكال العلا للحركة الى الاشكال السفلى ـ هذا هو الامر الرئيسي في الفهم المادي الدياليكتيكي للحركة .

الى الذين يفصلون المادة عن الحركة

اشرنا اعلاه الى انه لا يمكن ان توجد حالة تكون فيها المادة بدون حركة . وقلنا ان المادة والحركة مرتبطتان وغير منفصلتين . ومع هذا فهناك ـ حتى الان ـ اناس يحاولون ان يصوروا المادة بدون حركة وان يفصلوا المادة عن الحركة .

هؤلاء هم ، مثلا ، انصار النظرية المسماة بالموت الحراري للكون، الذين يشوهون معطيات العلم ويتحدثون عن « نهاية » العالم المقبلة وعن « فناء » كل ما هو موجود . فهم ينطلقون من حقيقة علمية معروفة منذ امد طويل تقول بان جميع انواع الطاقة من السهل ان تتحول الى حرارة . اما العكس فهو عملية تجابهها صعوبات معينة وتتطلب صرف طاقة اضافية . ومنالمعلوم جيدا ايضا ان كل جسم ملتهب اذا ما وضع في وسط ذي حرارة اقل فانه يبرد اي انه يفقد حرارته . ان هؤلاء يعممون هذه الحقيقة على الكون كله ويصلون الى استنتاج مفاده ان الاجرام السماوية المشعة الملتهبة سوف تعطي ، بمرور الزمن ، كل حرارتها الى الفضاء الكوني البارد. فما دام الامر كذلك فان الكون في النهاية سيصل الى حالة « التوازن الحراري » ، الى « الموت الحراري » الذي يمثل بالنسبة لهم اكداسا هائلة من الاجسام الجامدة . وان جميع اشكال حركة المادة ستتحول الى حرارة هذا الشكل

هي جزئيات من المجال ـ الذي هو نوع خاص من المادة . وينشأ عن هـذا بانه عند تحول الالكترون والبوزيترون الى فوتونات يتم ليس تحول المـادة الى طاقة وانما صيرورة نوع من المادة هو الكتلة الى نوع اخر هو المجال .

وتتحدث منجزات الفيزياء المعاصرة وخصوصا قانون العلاقةالمتبادلة بين الكتلة والطاقة الذي اكتشف في بداية هذا القرن عن الافـلاس التـام لـ « نظرية الطاقة » .

فوفقا لهذا القانون ترتبط كتلة الجسم في كل وقت بكميـة الطـاقة المطابقة . ان هذه العلاقة من الصعب التدليل عليهـا في السرعات الصغيرة نسبيا ، ولكن في حركة الجسم بسرعة قريبة من سرعة الضوء ، وهذه هي سرعة الجزئيات « الاولية » في التحولات النووية ، فان تنامي الكتلةالجديدة يصبح ملحوظا . ان تغير الكتلة المتعلق بسرعة الحركة قـد تأكد بالتجربة ، غير ان الكتلة هي معيار المادة والطاقة معيار الحركة . وبالتالي فان القانون المشار اليه يكشف العلاقة المباشرة والوحدة بين المادة والحركة .

وينتجمما قلناه ان لا وجود لمادة بدونحركة ولا وجود لحركة «صرفة» منفصلة عن المادة ولا يمكن ان توجد . ان المادة والحركة متحدتان .

٣ ـ المكـــان والزمـــان

المفهوم الفلسفي عن المكـان والزمـان

اذا ما نظرنا بانتباه الى ما يحيطنا من اشياء ، فسنرى انها جميعـا توجد ليس في حركـة فحسب ، وانما لها ايضا امتداد وقياسات .

وكل الاشياء لها طول وعرض وارتفاع وتشغل مكانا معينا ولها حجم. غير ان الاشياء في الطبيعة ليس لها امتداد فحسب بل هي توجد بشكل معـين بالمنسبة لبعضها البعض . بعضها قريب منا واخر بعيد ، عالي او داني على اليمين او اليسـار .

ان **المكان** كمفهوم فلسفي يجد انعكاسه في الخاصية الشاملة للاجسام المادية في كونها ذات امتداد وتحتل مكانا محددا وتوجد بوضع خـاص بين الاشياء الاخرى في العالم . فالاشياء لا توجد في المكان فحسب ، بل يتبع بعضها بعضا وفق تسلسل محدد . وفي مكان بعضها تاتي اخرى ، وهـذه الاخيرة تستبدل بثالثة وهكذا . ان كل شيء له استمرارية ، لـه بدايـة ونهاية . وفي تطور كل شيء توجد مراحل وحالات معينة مختلفة . فبعض الاشياء تظهر الان واخرى موجودة منذ وقت معين وثالثة تنحل وتضمحل.

ان الخاصية الشاملة للعمليات المادية في ان يجري بعضها بعد بعض

الذي سيكون غير قادر على التحول من جديد . وان المادة ستفقد قدرتها على الحركة .

ورغم ان هذه النظرية كانت قد انتقدت ونبذت من قبل انجلز (١) ، فان المثاليين وانصار الكنيسة يدافعون عنها حتى الان ويحاولون استخدامها « للبرهنة » على الخرافة الدينية عن « نهاية العالم » .

ان « نظرية الموت الحراري للكون » مفلسة تماما من وجهة النظر العلمية . فهي تتجاهل قانون حفظ الطاقة وتحولها الذي يؤكد استحالة افناء الحركة كميا ونوعيا . ان الحركة لا يمكن ان توجد في شكل معين واحد : ان هذا يتنافى مع القانون المذكور . واكثر من هذا لا يمكن للمادة ان توجد في حالة انعدام الحركة او في حالة تتوقف فيها الحركة عن التحول والانتقال من شكل الى اخر. ان تحول اشكال الحركة هو ايضا سنة طبيعية، وكذلك حال المحافظة الكمية على الحركة في هذه التحولات .

ان احدث المنجزات في علم الفلك تبرهن بان دوران المادة المستمر في الكون لا ينقطع ولا للحظة واحدة . فالمادة والطاقة تنتشران في مناطق في الفضاء الكوني وتتركزان في اخرى معطية دفعا لاجسام سماوية جديدة . وقد دلل العالم الاكاديمي السوفياتي ف. ا. امبارتسوميان بان نجوماتتكون في ايامنا هذه . وهذا لا يتم بشكل انفرادي وانما على هيئة مجموعات بكاملها (منظومات) ، مما يبرهن بانه لا يمكن للمادة أن توجد في حالة انعدام الحركة.

ولكن هل يمكن ان توجد حركة بذاتها دون وجود مادة تحملها ؟

ان ممثلي ما يسمى بنظرية الطاقة – وهي اتجاه في الفلسفة والعلوم الطبيعية ظهر في نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين – يفكرون بالضبط على هذه الشاكلة . انهم يختزلون المادة ويعتبرونها حركة فحسب، طاقة . ولا يعني هذا سوى التخلي عن الاعتراف بالمادة والوقوف مواقف مثالية صرفة .

ان انصار « نظرية الطاقة » المعاصرون يدعون بداب للمثالية . فهم يزيفون احدث المنجزات العلمية ويتحدثون بصراحة عن « ابادة » المادة وعن تحول المادة الى طاقة صرفة . ولهذا الغرض فانهم يفسرون بصورة مثالية حقيقة تحول الجزيء « الاولي » الثنائي للمادة (الالكترون والبوزيترون) الى فوتونات – جزيئات المجال الكهرومغناطيسي (الضوء) . واذ يعتبر ممثلو « نظرية الطاقة » الضوء طاقة صرفة ، طاقة بدون مادة ، ويعتبرون الكتلة النوع الوحيد للمادة ، فانهم يصلون الى استنتاج خاطيء جدا مفاده ان المادة في هذه الحالة تزول وتتحول الى طاقة. غير اننا نعرف بان الفوتونات

---

(١) انجلز – دياليكتيك الطبيعة ، ص ٤٦ – ٤٧ .

في تتابع محدد ، وان يكون لها استمرار وان تتطور في مراحل وفترات ، هي ما يعكس بالضبط المفهوم الفلسفي ــ **الزمان** .

ان المكان والزمان **يمثلان شكلين عامين لوجود المادة** . يقول لينين « لا يوجد في العالم سوى المادة المتحركة والمادة المتحركة لا يمكن ان تتحرك بغير مكان وزمان » (۱) ان اهم خاصية للزمان والمكان هي كونهما موضوعيين . وهذا يعني استقلالهما عن الوعي . وهذا معروف تماما : فما دام الزمان والمكان شكلين اساسيين للمادة الموجودة موضوعيا فلا يمكن ان لا يكونا موضوعيين .

ان المثالية تنكر موضوعية المكان والزمان . فالمثاليون الذاتيون يعتبرونهما نتاجا لوعي الانسان. ووفقا لمايقوله المثاليون الموضوعيون فان المكان والزمان هما نتاج الفكرة المطلقة والروح الكونية .

لقد برهن لينين ، بشكل مقنع ، على افلاس وجهات النظر المثالية عن الزمان والمكان في كتابه « المادية والنقد التجريبي » . وكتب يقول : اذا آمنا بما يقوله المثاليون عن المكان والزمان باعتبارهما نتاج العقل البشري فمـا العمل تجاه الحقيقة التي لا تدحض والتي أثبتها العلم وهي ان الارض قـد وجدت في الزمان والمكان زمنا طويلا قبل ظهور الانسان ؟ ألم توجد الارض منذ مليارات السنين في حين ان الانسان المعاصر وجد على الارض منـذ عشرات الوف السنين فقط ! ومن الواضح ان لا وجود لاي « تكوين » أو « خلق » للزمان والمكان من قبل الانسان، كما لا وجود للفكرة المطلقة الموهومة أو العقل العالمي المختلق من قبل المثاليين .

ان المادية الديالكتيكية اذ تشير الى موضوعية المكان والزمـان فهـي تكشف عن خصائصها العامة الاخرى ايضا . وينتج عن هـذا ان هـذه الخصائص تتحدد بطبيعة المادة نفسها . فخلود المادة ولا نهايتها مثلا يعنـي **خلود** الزمان **ولا نهائية** المكان . وهذا يعني انهما لم تكن لهما بداية ولن تكون لهما نهاية . لقد تغلغل العلم الحديث في الاجواء الكونية البعيـدة وادرك الابعاد الهائلة للزمان . فالفلكيون مثلا ، يدرسون بواسطة تلسكوبات ضخمة الاجسام المادية البعيدة عن الارض مليارات السنوات الضوئية . فاذا مـا اخذنا بعين الاعتبار بأن الضوء ينتشر بسرعة ۳۰۰ الف كيلومتر في الثانية فان مسافة مليار سنة ضوئية سيعادل الرقم ۹٫٥ مـع ۲۱ صفرا مـن الكيلومترات . ومهما كانت هذه المسافات هائلة فانها صغيرة وتافهة بالنسبة لسعة العالم اللامتناهي وكذلك تافهة ايضا بالنسبة الى ازلية الكون ، الابعاد

(۱) لينين ، المؤلفات المختارة ج ١٤ ص. ١٧٩ .

الزمنية التي تقدر بمليارات السنين التي تعرفها الجيولوجيا المعاصرة .

ان ميزة المكان الخاصة . كشكل من اشكال وجود المادة هي احتوائــه على ثلاثة ابعاد ، اي ان كل جسم مادي له ثلاثة ابعاد هي : طول وعــرض وارتفاع . وطبقا لذلك فان هذا الجسم يمكن ان يتحرك في ثلاثة اتجاهـات متعامدة (عمودية على بعضها البعض) .

وخلافا للمكان فليس للزمان سوى بعد واحد . ولـذا فان جميـع الاجسام تتطور في الزمان في اتجاه واحد فقط ـ من الماضي نحو المستقبل . والزمان ليس له اتجاه معاكس اذ انه يسير الى امام فقط . ذلك ان اعـادة مجراه الى الوراء وارجاع الماضي امر مستحيل . ان السياسيين الرجعيين في الغرب لا يريدون ان يقروا بهذه الحقيقة الطبيعية ويحاولون ان يعيدوا عجلة التاريخ الى الوراء ليعيدوا عهد السيطرة الراسمالية الذي ذهب الـى غير رجعة الى العالم من جديد .

غير ان سير التاريخ لا يمكن ان يعود الى الوراء . وعالم القرن العشرين ليس عالم القرن التاسع عشر . والزمان اليوم غير آنذاك وتوازن القوى على المسرح العالمي لم يعد كما كان . ففي المجتمع المعاصر يوجد معسكر اشتراكي جبار يقف للدفاع عن العدالة والسلم ولا يسمح للاستعماريين بأن يدوسوا ـ دون عقاب ـ حقوق الشعوب في السيادة .

هذه هي أعم خصائص المكان والزمان .

تصورات العلوم الطبيعية عن المكان والزمـان

ينبغي التفريق بين المفاهيم الفلسفية عن المكان والزمان التي بحثناها فيما سبق ، كأشكال شاملة لوجود المادة وبين تصورات العلوم الطبيعية عن خصائص زمان ومكان الاشياء الماديـة الملموسة .

فالميكانيك الكلاسيكي رغم اعترافه بموضوعية المكان والزمان فانه كان يفصلهما عن المادة ويعتبرهما من اصل واحد وثابتين بصورة مطلقـة . ان مؤسس هذا الميكانيك ـ الفيزيائي الانجليزي المعروف اسحق نيوتن (١٦٤٢ ـ ١٧٢٧) مثلا كان يتصور المكان كمخزن هائل توجد فيه الاشياء « علـى رفوف » وفق نظام معين ، غير ان هذه الاشياء نفسها لا علاقة لها بالمكان .

وقد اعتبر نيوتن الخصائص المكانية لجميع الاجسام في الكون متشابهة ويمكن ان تستنفد تماما بهندسة اقليدس التي درسناها كلنا فـي المدرسة الثانوية ، باعتبارها الهندسة الوحيدة الممكنة . كما كانت وجهات نظر نيوتن ميتافيزيقية بشأن الزمان ايضا .

ان الرياضي الروسي العظيم ن.ى. لوباجيفسكي (١٧٩٢ ـ ١٨٥٦) اعد هندسة جديدة سميت الهندسة غير الاقليدسية ، وهي التي دحضت الاراء الميتافيزيقية عن المكان ووسعت تصوراتنا عن الخصائص المكانية للاجسام . فقد اكد لوباجيفسكي بأن خصائص المكان في المناطق المختلفة من الكون ليست واحدة ، وانها تتعلق بطبيعة الاجسام الفيزيائية نفسها ، والعمليات المادية التي تحدث في داخلها . فمن المؤكد انه توجد في الطبيعة اجسام لا يمكن لاطار هندسة اقليدس ان يحتوي خصائصها . واكتشف لوباجيفسكي هذه الخصائص الجديدة عندما برهن خصوصا بان مجموع زوايا المثلث على بعض السطوح هو ليس ١٨٠ درجة كما تقول هندسة اقليدس وانما اقل .

ان النظرية المعاصرة في العلوم الطبيعية عن المكان والزمان هي **النظرية النسبية** التي وضعها الفيزيائي الكبير أ. انشتاين (١٨٧٩ ـ ١٩٥٥) . هذه النظرية التي كشفت العلاقة العضوية بين الزمان والمكان من جهة وبينهما وبين المادة المتحركة من جهة اخرى .

فالنظرية المسماة بـ **النظرية النسبية الخاصة** تؤكد تبعية خصائص الاجسام الزمانية والمكانية بسرعة حركة هذه الاجسام . ففي السرعات القليلة نسبيا لا يمكن ان تلحظ هذه التبعية، ذلك ان التغيرات في الخصائص الزمانية والمكانية يمكن ان نلحظها بشكل عملي فقط في المجالات التي فيها سرعات قريبة من سرعة الضوء . ان النظرية النسبية تقول بأن طول الجسم عندما يتحرك بسرعة قريبة من سرعة الضوء وعند زيادة سرعته ، يصبح اقل بالنسبة لطول الجسم نفسه في حالة السكون . وبهذا لا يبقي الزمان على حاله : فبزيادة السرعة يتباطأ سير الزمن. ان هذه الاستنتاجات التيتوصلت اليها النظرية النسبية قد اكدتها التجربة . فالميزون مثلا (جزىء « اولي » يظهر عنه تفكك نواة الذرة) يوجد لفترة قصيرة جدا من الزمن ، وبزيادة سرعة الحركة فانزمن « حياة » الميزو نسيزداد .

ووفقا للنظرية النسبية فان المكان والزمانلا يتبدلان تلقائيا من نفسهما وانما بعلاقة لا انفصام لها فيما بينهما . ان هذه العلاقة وثيقة لدرجة انهما يشكلان هنا كلالاينفصل ويصبح الزمان ـ كما لو انه ـ بعدا رابعا يضاف الى الابعاد الثلاثة للمكان (التي هي الطول والعرض والارتفاع) . ان النظرية النسبية تقدم تعبيرا رياضيا مضبوطا عن العلاقة العضوية بينالمكا نوالزمان.

وتشير نظرية **النسبية العامة** الى ان خصائص الزمان والمكان تتعلق ايضا بكتل المادة . فبالقرب من الاجسام ذات الكتلة الضخمة وقوى الجاذبية الكبيرة فان المكان يتغير ، او كما يقال في الفيزياء يتقلص . وطبقا

لذلك يتغير الزمن: حيث يسير بشكل ابطا .

ان استنتاجات النظرية النسبية تبدو لاول وهلة كما لو انها تتعارض مع تصوراتنا الاعتيادية عن خصائص الزمان والمكان . غير ان هذه الاستنتاجات موثوقة ومؤكدة بالتجارب العلمية . وان غرابتها وكونها غير اعتيادية يدلل على اننا يجب ان لا نتحدد ــ في قضايا المعرفة ــ بالتصورات الاعتيادية البسيطة ،ولنما يجب ان نذهب ابعد من ذلك ، الى ما هو اعمق وان نكشف كل تعقيدات وتنوع العالم المادي .

وهكذا فان تصورات العلوم الطبيعية عن الزمان والمكان تبدو متغيرة. غير ان هذا التغيير لا يحملنها على التذبذب ولو للحظة واحدة بشأن ما تؤكده المادية الدياليكتيكية عن وجودها الموضوعي . بل على العكس فان كل نجاح جديد للعلم يأتي بدعم جديد لما تقوله المادية الدياليكتيكيةعن موضوعية الزمان والمكان وارتباطهما الذي لا انفصام له بالمادة والحركة .

الفصل الرابع

المادة والوعي

عرفنا من الفصل السابق ما هي المادة ، وما هي اشكال وجودها . وعرفنا ايضا بأن المادة توجد خارج وعي الانسان ومستقلة عنه . فما هو الوعي ؟ وما هي علاقته بالمادة ؟ وكيف ظهر ؟ دعنا نبحث هذه القضايا .

١ . الوعي ــ خاصية لمادة ذات تركيب عالي

قبل ان نتحدث عن جوهر الوعي لا بد ان نذكر ان أفكار الانسان ومشاعره ، ارادته وطابعه ، احساساته وتصوراته وآرائه ... الخ تتعلق بنشاطه العقلي الواعي . فما هو جوهر جميع هذه الظواهر، وأين مصدرها ؟

لقد اجتازت العلوم الطبيعية والفلسفة طريقا طويلا وشاقا قبل ان تنجح في اعطاء جواب صحيح عن هذا السؤال وبرهن العلم الحديث بأن الوعي هو نتيجة تطور طويل للمادة . فالمادة ــ الطبيعة كانت موجودة دائما . اما الانسان فهو نتيجة تطور ، متأخر نسبيا ، للعالم المادي . وقد توجب ان تمر ملايين عديدة من السنين حتى تم الوصول الى الوضع الذي يولد فيه الانسان القادر على التفكير من المادة غير الحية . ان الوعي هو نتاج الطبيعة ، خاصية للمادة . ولكن ليس كل مادة وانما فقط مادة ذات تركيب عالي هي الدماغ البشري .

ان الوعي الذي ظهر كنتيجة لتطور المادة مرتبط بها ارتباطا وثيقا . فهو لا ينفصل عن المادة المفكرة ــ الدماغ . فالوعي هو خاصية الدماغ . ان الفيزيولوجيين الروسيين العظيمين ى.م. سيجينوف (١٨٢٩ ــ ١٩٠٥) و ى.ب. بافلوف (١٨٤٩ ــ ١٩٣٦) اكدا بأن النشاط السايكولوجي كلمة تكمن في اساسه عمليات مادية فيزيولوجية ، وهي التي تتم في الدماغ وفي

قشرة الدماغ على وجه الخصوص. وان اضطراب النشاط الحيوي الاعتيادي للدماغ واصابته بأذى ، جراء المرض والجروح او اية اسباب اخرى ، يؤدي الى اضطراب حاد في النشاط الفكري للانسان واضطرابه نفسيا .

لقد استنتج بافلوف استنادا الى معطيات تجريبية كثيرة بأن «النشاط السايكولوجي هو نتيجة النشاط الفيزيولوجي لكتلة معينة من الدماغ » .

ان تعاليم بافلوف عن النشاط العصبي العالي هي تأكيد ساطع **للموضوعة الرئيسية للمادية الديالكتيكية عن تبعية الوعي للمادة . وهي** تبين بشكل مقنع بأن الدماغ والعمليات الفيزيولوجية التي تجري فيه تمثل اساس الوعي الانساني وهي الشرط المادي الذي يصبح النشاط الفكري ، بدونه ، غير ممكن .

ولكن هل يكفي الدماغ البشري وحده للقيام بوظيفة الوعي ؟ وهل يمكن ان يفكر وحده وبنفسه ، مستقلا عن تأثير العالم المحيط به ؟

كلا ، ان الدماغ وحده وبنفسه ليس قادرا على ان يفكر . قال بافلوف ان الدماغ ليس بيانو كبيرا نستطيع ان نعزف عليه كل الإلحان وجميع ما نرغب . ان الوعي **مرتبط بشكل وثيق بالوسط المادي الذي يحيط بالانسان،** وبدون تأثير هذا الوسط لا يمكن ان يقوم بوظيفته . ان احساسات البصر والسمع والشم وغيرها تظهر في الدماغ تحت تأثير الاشياء الموجودة موضوعيا ، وما يرافقها من الوان وروائح ، واصداء وصفات اخرى . هذه الاشياء وخصائصها تؤثر على اعضاء الحس ، وبعد هذا تنقل التأثيرات المستلمة عن طريق الحواس بواسطة الاعصاب الى قشرة الدماغ حيث تظهر الاحساسات المطابقة . وعلى اساس الاحساسات هذه تتكون الانطباعات الحسية والتصورات وكذلك المفاهيم وسائر اشكال التفكير وجميعها ليست سوى صور هي انعكاس مضبوط للاشياء والظواهر الموجودة موضوعيا ، بهذه الدرجة او تلك ، ولا يمكن لهذه الصور ان تنبثق في وعي الانسان ، خارج الاحساسات (اي بدونها) . وينشأ عن هذا ان الميزة الخاصة للوعي ، كخاصية الدماغ ، هي قدرته على **عكس** العالم المادي .

وهكذا فللاجابة على السؤال الذي وضعناه في البداية عن طبيعة الوعي يمكننا ان نجيب **بأن وعي الانسان يمثل خاصية مميزة لمادة ذات تركيب عالي ، هي الدماغ ، في ان تعكس الواقع المادي .**

افلاس المادية المبتذلة والمثالية

ما دام الوعي جزءا لا ينفصل من المادة ذات التنظيم العالي ، ونتاجها ، افليس هو نوعا من المادة ، اليس هو مطابقا لها ؟ هكذا

بالضبط يعتقد الماديون المبتذلون (١). فهم يضاربون بالصلة بين المادة والوعي ، ويعتبرونهما متطابقين . يقول المادى المبتذل فوكف مثلا بأن الدماغ يفرز الفكرة ، وان الفكرة بالنسبة للدماغ هي تقريبا كالصفراء بالنسبة للكبد

ان المادية الدياليكتيكية ، منسجمة تمام الانسجام مع منجزات العلوم الطبيعية ، ترفض هذا الفهم المادي المبتذل للوعي . فرغم ان الوعي يرتبط بعمليات مادية فيزيولوجية معينة فلا يمكن اقتصاره على هذه العمليات وحدها . ان التفكير لا ينفصل عن المادة ، عن الدماغ ، غير انه يجب ان لا يطابق بالمادة . ان لينين اشار الى اننا اذا قلنا ان الفكرة مادية فان هذا يعني اننا نخطو خطوة خاطئة لنخلط المادية بالمثالية .

ان الفكرة ليست شيئا ولا يمكن ان ترى او تصور فوتوغرافيا . ان الفكرة هي **صورة** للاشياء والظواهر في العالم ، غير انها ليست مادية وانما صورة ذهنية . انها ليست صورة فوتوغرافية بسيطة للواقع ، وليست نسخة عنه لا حياة فيها ،وانما الواقع المعاد تشكيله بشكل ما في راس الانسان . كتب ماركس يقول ان الفكرة ، « ان الشيء الذهني ليس سوى الشيء المادي منقولا الى راس الانسان ، حيث اعيد تشكيله فيه » . ان الواقع اذ يؤثر على الانسان يمر دائما من وجهة نظر ذاتية عبر بعض قوانين التفكير ، كالتحليل والتركيب والتعميم وغيرها . ان الانسان يختلف عن الحيوان في هذا الشيء بالضبط ، في انه قادر على ان يفكر ، وهذا يعني ان يعكس الواقع بفعالية ، وان يؤثر فيه وان يضع هذا الهدف او ذاك وان يطمح الى تحقيقه .

ان المادية الدياليكتيكية اذ ترفض الفهم المادي المبتذل للوعي تعتبر ان من الخطأ الفادح كذلك الزعم بأن الوعي والتفكير ملازمان للمادة . ذلك ان المادي الهولندي المشهور سبينوزا مثلا ، كان يعتقد ان الوعي سجية وخاصية ضرورية لكل الطبيعة بأي حال كانت .

ان خطأ وجهة النظر هذه يكمن في انها تهمل الفوارق النوعية بين المادة غير الحية والمادة العضوية ــ وقبل كل شيء المادة المفكرة . وقد اشار لينين الى أن الاحساس هو خاصية فقط للاشكال العليا للمادة العضوية (الحية) . في حين ان المادة كلها تمتلك خاصية الانعكاس فقط ، وهذا يعني القدرة على ان تجيب بطريقة محددة على المؤثرات الخارجية . وهذه الخاصية تشبه الاحساس الى حد ما ، ولكنها ليست مطابقة له . ولهذا فان الوعي يجب ان لا يعتبر كخاصية للمادة كلها .

ان محاولات اضفاء قدرات عقلية على الاشياء غير الحية ترتبط اليوم بالنجاحات التي حققها العلم الجديد ــ الكيبيرنتيكا . وعلى اساس

هذا العلم الذي يدرس مختلف انظمة السيطرة والادارة فقد صنعت مكائن مدهشة فبعضها يستطيع ان يدير طائرة او قطار او عمليات انتاجية معقدة ، وبعضها الاخر يستطيع ان يترجم نصا من لغة الى اخرى ، وقسما ثالثا يقوم بأصعب العمليات الرياضية و ... الخ . ان هذه المكائن بامكانها ان تستلم من الخارج مختلف المعطيات و « المعلومات » لـ « تتذكرها » وتقوم باعدادها من جديد والقيام بأعمال مختلفة جدا . وهذا ما اعطى ذريعة لبعض العلماء للقول بأن المكائن الاوتوماتيكية ذات قدرة على الاحساس بل وحتى على التفكير .

وفي الحقيقة فان المكائن الاوتوماتيكية مهما كانت متقنة فانها لا تمتلك القدرة على ان تحس ، ومن باب اولى فانها لا تستطيع ان تفكر . ان الاحساس والتفكير يلازمان الانسان فقط ، الانسان الذي هو نتاج تطور طويل للعالم المادي وقبل كل شيء للوسط الاجتماعي . ان الانسان فصل نفسه عن الطبيعة ، وتعرف على الواقع الذي يحيط به واثر فيه بفعالية ، وكيفه ، واكتسب امكانيات خلاقة لا تنضب ، وابدع قيما ثقافية عظيمة . في حين ان الماكينة لا تملك شيئا من هذا ، فهي من صنع العقل المبدع واليد الماهرة للانسان الذي يضع ، اولا واخيرا ، اساس الماكينة ويحدد مسبقا جميع وظائفها و « قدراتها » مهما بدت معقدة ومدهشة .

وبالتالي فلا ينبغي ان نطابق الوعي والمادة . ولكن هل يعني هذا ان الوعي يمكن ان يوجد مستقلا عن المادة ومنفصلا عنها ؟

ان المثاليين اذ يضاربون بذهنية الوعي ، أي عدم وجوده ماديا ، يعتبرونه مستقلا عن المادة ومنفصلا عنها . ولذا فانهم يضعون القضية بالشكل التالي : ما دامت الفكرة ذهنية (غير موجودة ماديا) وليست شيئا ، ولا يمكن العثور عليها في دماغ الانسان فانها بالتالي ليست مرتبطة بالمادة التي هي الدماغ وانما توجد بشكل مستقل . وهذا يعني ان الفكرة ليست مستقلة عن المادة فحسب ، وانما هي « خالقة » المادة . انهم لا يريدون ان يروا وراء نموذجها الاولي — اي الاشياء والمواد في العالم الموضوعي . ان محاولات عزل الفكرة عن الدماغ مفلسة تماما . وقد سمى لينين بحق الفلسفة التي تقبل مثل هذه المحاولات والمزاعم القائلة بوجود فكرة بدون دماغ : الفلسفة عديمة الدماغ . وكتب يقول : ان العلوم الطبيعية تقف بقوة في المواقع التي تقول بأن الوعي لا يوجد مستقلا عن الجسم وانه ثانوي ، ووظيفة من وظائف الدماغ ، وانعكاس للعالم الخارجي .

كما عارض لينين ، في الوقت نفسه ، المعارضة المطلقة بين الوعي والمادة . وقال ان هذا القضاء او التعارض المطلق يوجد فقط في اطار

المسألة الاساسية للفلسفة اي في مسألة ايهما اول · المادة أم الوعي ؟ ولكن خارج نطاق المسألة الاساسية فان التعارض بين المادة والوعي نسبي . ان هذه النسبية تظهر اولا : في ان الوعي يمثل خاصية للمادة ذات التركيب العالي التي ظهرت وتطورت تحت تأثير العوامل المادية ، وثانيا : ان الوعي بعد ان ظهر على اساس المادة اكتسب استقلالا معينا وانه يؤثر بفعالية على تطور العالم المادي .

والان لنتوقف عند مسألة منشأ وتطور الوعي .

٢ ـ الوعي ـ نتاج تطور المادة .
منشأ الوعي وتطوره .

سبق ولاحظنا ان المادة كلها تلازمها خاصية عامة هي **الانعكاس** ، اي **انها تستطيع اعادة تنظيم نفسها داخليا تجاه التاثيرات الخارجية والرد عليها بطريقة ما** . ان الانعكاس يرتبط باستمرار بتأثير متبادل بين جسمين او اكثر : الجسم الذي يؤثر والجسم الذي يتحمل التأثير . ولهذا فان **طابع الانعكاس** يتعلق بالتأثيرات الخارجية وبالوضع الداخلي للجسم الذي يرد على التأثيرات ، على السواء .

فاذا ما نظرنا الى الجسم غير الحي ، والاجسام العضوية والانسان من هذه الوجهة فسنلاحظ انها لا تعكس العالم بصورة واحدة .

ان الجسم غير الحي له خاصية بسيطة ، فهو ذو انعكاس **سلبي** . وهو لا يفرق بين عوامل المحيط ولا يفصل بين العوامل الملائمة ، ولا يستطيع ان يتقي العوامل غير الملائمة .

ويرد الجسم الحي على المؤثرات الخارجية بشكل آخر . انه **يتكيف** تجاه الوسط المحيط به ، ويرد على المؤثرات الخارجية بطرق مختلفة ، حيث يستفيد من العوامل الملائمة ويتجنب العوامل الضارة وغير الضرورية . وبفضل التكيف الناجح تجاه الوسط يستطيع الجسم الحي ان يعيش ويتطور .

ويوجد لدى الانسان شكل اعلى ، جديد نوعيا . ذلك الانسان يمتلك القدرة على ان يعكس الواقع **بوعي** . انه لا يتكيف بشكل بسيط تجاه المحيط ، وانما يؤثر فيه . ويعيد تكوينه على اساس المعارف التي حصل عليها . وبالتالي فاذا ما اردنا ان نعرف **منشأ الوعي** فان هذا يعني ان ندرس كيف تم تحول الانعكاس غير الحي ، السلبي الى انعكاس مميز حي ، فعال ، انتقائي ، ومن هذا الاخير تطورت القدرة على التفكير . ينبغي ان ندرس كل

هذا بالعلاقة بالانتقال من المادة غير الحية الى المادة الحية ومنها الى المادة المفكرة ، اي دامغ الانسان .

من المادة غير الحية الى الحية ومنها الى المادة المفكرة

ان العلوم الطبيعية تعرض عددا كبيرا من الحقائق التي تشير الى **ان الطبيعة الحية قد نشات من الطبيعة غير الحية ، غير العضوية .** وليس بين الاثنين حدود لا يمكن تجاوزها . ان التحليل الكيماوي اثبت ان الاجسام غير الحية والاجسام العضوية الحية مكونة من نفس العناصر الكيماوية . ويوجد بكميات كبيرة في الاجسام الحية الاوكسجين والهيدروجين والازوت وخصوصا الكربون الذي هو اساس التركيب للاجسام العضوية ولمنتجات نشاطها الحيوي .

ان العلم يفترض ان المادة الاولى التي تكونت منها ارضنا في الماضي البعيد كانت تحوي أبسط اتحادات الكربون والهيدروجين وسائر المواد الهيدروكربونية التي تشكلت منها اتحادات عضوية أكثر تعقيدا . وعندما دخلت الاتحادات العضوية بعلاقات كيماوية فيما بينها اصبحت اكثر تعقيدا. **وظلت تزداد تعقيدا حتى تشكلت حوامض الامونيا التي تشكل العناصر الاساسية في الجزئيات الزلالية . ويتنوع وتعقد المواد العضوية أصبحت قدرتها على الانعكاس اكثر تنوعا وتعقيدا .**

وقد مرت مئات ملايين السنين قبل ان تتحول هذه الزلاليات الكيماوية الاولية المكونة من حوامض الامونيا الى جسم خليوي حي ، واكتسبت بهذا القدرة على استحالة الغذاء هذه الاستحالة التي هي العلامة الاساسية للحياة. وكانت هذه الاتحادات العضوية المعقدة والزلالية في البداية قد اختلطت بأملاح لا عضوية وكونت جسيمات خاصة قادرة على ان تدخل في تبادل مع الوسط المائي الذي يحيط بها وان تبتلع المواد العضوية الاخرى . وبعد هذا تكونت من هذه الجسيمات الاكثر ثباتا زلاليات كثيرة الجزئيات اكثر تعقيدا قادرة على الحياة وعند وقوعها في وسط ملائم دخلت في تبادل معه وتحولت الى كائن عضوي — حي .

ان استحالة الغذاء هي عملية متناقضة من تمثيل واحتراق (التمثيل هو استيعاب المواد الغذائية من المحيط الخارجي وتحويلها الى خلايا حية في انسجة الجسم الحي . والاحتراق هو انحلال وتفكك الانسجة الحية) . ان هذه العملية ملازمة للزلاليات الحية في الجسم العضوي فقط . والتبادل مع الوسط المحيط والتجدد الذاتي المستمر هو ما يميز أبسط الاجسام

العضوية الحية عن أعقد الاجسام غير الحية . فبالتغذية فقط ، اي استيعاب المواد الغذائية وافراز ما ينتج عن احتراقها ، يستطيع الكائن العضوي ان يعيش ويتطور . « ان الحياة هي شكل لوجود الاجسام الزلالية . هذه الاجسام التي يكون التبادل المستمر للاشياء بينها وبين الطبيعة المحيطة بها عنصرها الجوهري . هذا التبادل (استحالة الغذاء) الذي تتوقف بتوقفه الحياة نفسها » (١) .

ان ظهور الاجسام العضوية الاولى ، البسيطة جدا ، يمثل خطوة هائلة في تطور الخاصية الملازمة للمادة بشكل عام – واقصد الانعكاس ، وفي تكون الوعي . ان ابسط اشكال الانعكاس البيولوجي هو (التهيج ، والانفعال ، التأثر) الذي يلازم جميع الاجسام العضوية ويخدم كوسيلة للتوجه في الوسط المحيط بها والتكيف معه .

فالنباتات مثلا ذات حساسية شديدة تجاه ضوء الشمس . فهي تسعى اليه بالمعنى الحرفي للكلمة ، لان ضوء الشمس بالنسبة اليها مصدر الحياة. ان أبسط العضويات ذات الخلية الواحدة ، وهي الاميبا تتأثر بمؤثرات الغذاء ، فاذا ما التهمت غذاءها الان فان هذه المؤثرات لا تعود تؤثر فيها فورا . وهذا يعني بأن الاميبا شأنها شأن جميع الاجسام الحية ، التي تمتلك خاصية التأثر ، تعكس العالم الخارجي ليس بشكل لا ابالي وانما بشكل انتقائي . ان الجسم العضوي يبدو ، كما لو انه ، يميل الى المؤثرات المفيدة الضرورية ويهرب من الضارة غير الضرورية . غير ان قدرته على الانتقاء ليست كبيرة . فالجسم العضوي لا يزال يفتقد الاجهزة والانسجة والخلايا المختصة بأنواع المؤثرات . انه يجيب على المؤثرات الخارجية بكامل كيانه .

وفي مجرى التطور اللاحق ونتيجة تعقد الاجسام العضوية نفسها وتعقد الظروف المحيطة بوجودها وعلى اساس التأثر ، ظهر شكل جديد اعلى للانعكاس هو **الاحساس** . وكما أشار لينين ففي الاحساس تحولت طاقة التأثر الخارجي الى عامل الوعي . فالاحساس كالتأثر هو نتيجة لتأثير العالم الخارجي على الجسم العضوي . ولكن هنا اتسعت بشكل ملحوظ دائرة المؤثرات الخارجية التي كان يرد عليها التأثر بهذا الشكل او ذاك . لقد اصبح الجسم العضوي يرد على شتى المؤثرات كالالوان والروائح والاصوات ويحس بالطعم ويتقبل البرودة والحرارة والرطوبة ويجيب على التأثيرات الاخرى من ميكانيكية وفيزيائية وغيرها . وظهرت في الجسم

---

(١) انجلز – ديالكتيك الطبيعة ص ٣٣٢ .

العضوي اجهزة تستطيع ان تتقبل دائرة محدودة من التأثيرات الخارجية فقط (لون ، صوت ، رائحة .. الخ) ومن ثم ، وبتطور الاجسام العضوية اصبحت الحواس اكثر غنى وتعددت جوانبها . وتعاظمت قدرة التكيف لدى الجسم الحي مع الوسط المحيط وظهر جهاز خاص لربطه بالمحيط ـ وهو الجهاز العصبي المركزي .

لقد وضع علم البيولوجيا نظرية الردود التي تبرهن بوضوح بأن القدرة على عكس العالم المحيط ، والتكيف تجاه الوسط ليست واحدة لدى الحيوانات الدنيا والعليا . ان الانعكاسات هي ردود الجسم العضوي على التأثيرات الخارجية وتنقسم الى انعكاسات غير ارادية وارادية. فالانعكاسات **غير الارادية** تشكل خاصية لجميع الاجسام العضوية سواء الدنيا منها او العليا وتكتسب بالولادة اي وراثيا . ومثال هذه الانعكاسات سحب يد الانسان عندما يقترب منها جسم ملتهب . ان التشابك المعقد للانعكاسات غير الارادية بشكل الغرائز (الغريزة الجنسية وغريزة الاكل وغيرها) التي تلعب دورا كبيرا في حياة وتطور الجسم العضوي .

الا ان الحيوانات العليا تمتلك **انعكاسات ارادية** ايضا وهذه الانعكاسات لها طابع مؤقت وتتشكل في ظروف محددة . فاذا ما تم اعطاء الطعام للكلب مصحوبا بدق جرس عدة مرات ، فسيأتي وقت ينفعل فيه الكلب بدق الجرس كانفعاله تجاه الطعام ، أي بفرز اللعاب . ففي دماغ الكلب تتكون رابطة مؤقتة : حيث يصبح رنين الجرس اشارة الى الطعام . وعلى هذا الاساس تتكون جميع الانعكاسات الارادية الاخرى التي ، بفضلها ، يتكيف الجسم الحي ، بانتباه شديد ، مع الوسط ويرد بحساسية على تأثيراته . ان هذه الانعكاسات الارادية ، التي تكتسب اهمية بالغة للجسم العضوي تترسخ وتصبح غير ارادية . وعلى اساس هذه الانعكاسات غير الارادية تظهر الروابط المؤقتة التي يتعزز قسم منها . وهكذا يتحقق في مجرى تطور الاجسام العضوية الحية تقدم مستمر في (البسيكولوجيا) القدرة على عكس الواقع الموضوعي ، الامر الذي يؤدي في النهاية الى ان تكسب المادة الحاسة القدرة على **التفكير** .

دور العمل الحاسم في ظهور الوعي

ان القدرة على الاحساس تلازم الحيوانات العليا كما تلازم الانسان . وهذه القدرة ترتكز ، وفقا لتعاليم ي . ب . بافلوف على اساس فيزيولوجي مشترك لدى الانسان والحيوانات وهو ما يسميه ـ **نظام الاشارة الاول** ،

الذي يمثل الكيفية التي يرد بها الجسم الحي على التأثيرات المباشرة للاشياء والظواهر الحسية . ان هذه الاشياء التي تمثل الاشارات الوحيدة بالنسبة للحيوان ، تؤثر على حواسه وتسبب الاحساسات الموافقة لها في جهازه العصبي .

غير ان احساسات الانسان تختلف عن احساسات الحيوانات بكونها مضاءة بنور العقل دائما . ان الانسان يمتلك القدرة على **التفكير المجرد** . وهذا يعني تعميم انعكاسات الواقع في مفاهيم معبر عنها **بكلمات** . ان كل كلمة تعني شيئا محددا ، ترتبط به بشكل لا ينفصل . ولذا فان الانسان يرد على الكلمة كما يرد على التأثير المباشر للاشياء نفسها . فكما ان الاشياء نفسها تمثل الاشارات الاولى فان الكلمات التي تعني هذه الاشياء تكتسب دور الاشارات الثانوية . وهي كما اشار بافلوف « اشارات الاشارات » ، وقد سمى بافلوف الكيفية الفيزيولوجية التي يرد الانسان بواسطتها على الكلمات بـ **نظام الاشارة الثاني** . وهذا النظام موجود لدى الانسان فقط .

ان نظامي الاشارة الاولى والثاني يوجدان في علاقة عضوية تضمن للانسان معرفة الواقع معرفة شاملة وعميقة .

وهكذا نكون قد بينا ان وعي الانسان يختلف نوعيا عن بسيكولوجيا الحيوان (بمعنى قدرته على عكس الواقع الموضوعي ـ المترجم) . فمن أين ينشأ هذا الفارق ؟ ان هذا الفارق ينشأ من واقع ان بسيكولوجيا الحيوانات هي نتيجة التطور البيولوجي ، في حين ان وعي الانسان هو نتيجة لتطور **تاريخي ، اجتماعي** .

ان احساسات الانسان الان تختلف جذريا عن احساساتالحيوانات. فعين الصقر مثلا ترى أبعد بكثير مما تراه عين الانسان ، ولكن عين الانسان ترى في الاشياء اكثر ، بما لا يقاس ، مما تراه عين الصقر .

قال ماركس : ان نشوء الحواس الخمس عند الانسان هو نتاج كل التطوّر العالمي . وعلى اساس التطبيق الاجتماعي والتاريخي تطورت الاذن الموسيقية لدى الانسان وعينه التي تستطيع ان تتفهمجمال الطبيعة ، وذوقه الدقيق وغيرها من اجهزته الحسية .

ان العامل الحاسم في ظهور الانسان ونشوء وعيه وتطوره هو العمل اي النشاط الانتاجي المادي . وقد اشار انجلز الى « ان العمل هو الذي خلق الانسان نفسه » . وبفضل العمل اكتسب جدنا الاول ، المتوحش ، سمة الانسان . ان العمل اعطى الانسان المأكل والملبس والمسكن وحماه ليس من قوى الطبيعة العمياء فحسب ، وانما اعطاه القدرة على قهرها

واخضاعها . وبالعمل تغير الانسان نفسه بدرجة كبيرة وتغير وجه كوكبنا . ان العمل هو اعظم مآثر الانسان والشرط الضروري لحياته وتطوره .

ان مقدمات العمل وجدت ايضا لدى القرود الشبيهة بالانسان التي تستخدم العصا والحجارة وغيرها من الاشياء الطبيعية لجمع الطعام . غير انها تقوم بهذا بلا وعي وبشكل عفوي . فلا القرود ولا اية حيوانات اخرى قادرة على ان تصنع ادوات العمل حتى ولو كانت بأبسط الاشكال . اما الانسان فانه يصنع الادوات ويستخدمها في الانتاج وهذه هي الخاصية النوعية لعمله . ولقد توجب ان تمر مئات الوف السنين من اجل ان يتعلم الانسان هذا ، وقد تمت خلال هذه الالوف من السنين عملية معقدة للغاية لصيرورة الانسان ولنشوء وعيه وتطوره في الوقت نفسه . ومما له اهمية بالغة في خلق ظروف النشاط الانتاجي وظهور الومضات الاولى للوعي هو انتقال القرود ذات الشكل الانساني الى المشي بقامة منتصبة ، الامر الذي أدى الى تحرر اطرافها الامامية من استخدامها في المشي ، واصبح بالامكان استخدامها للنشاط العملي . وفي البداية استخدام اجدادنا الاوائل ، بأيديهم . ما يوجد في الطبيعة من « ادوات » انتاجية جاهزة (عصي واحجار) ، ومن ثم بدأوا يصنعونها بأنفسهم شيئا فشيئا ، ويصنعون اشياء مماثلة لتلك الموجودة في الطبيعة . وكانت الادوات الاولى بسيطة جدا (الاحجار المسننة الحادة بشكل بسيط والعصي المدببة وغيرها) . وكان وعي الانسان البدائي بسيطا ايضا . فهو لم يكن يعرف جوهر الاشياء ولم يجد الشيء العام فيها ، ولم يعرف بأي شيء يمكن ان تصبح نافعة له .

وبتطور العمل واتقانه المستمررين تطور الوعي وصار يتكامل . ان الانسان عندما اصطدم ، في عملية جمع المواد ، بالاشياء الطبيعية ، صار يتعرف على خصائصها ويصنفها ويقارب بينها ويتعرف على الشيء العام المتكرر فيها .

وكان لصنع واتقان ادوات العمل اهمية خاصة كبيرة في تطور وعي الانسان . ان الادوات التي كانت تنتقل من جيل الى جيل كانت تحمل الخبرة الانتاجية والمعرفة . وكانت الاجيال البشرية اللاحقة ، بتعرفها على اساليب صنع واستخدام الادوات التي سار عليها الاجداد ، تكتسب القدرة على تحسين وتطويرر هذه الادوات اكثر فأكثر .

ان وعي الانسان البدائي كان مرتبطا بعمله بشكل عضوي ، ويمكن القول انه ملتحم بنشاطه العملي . ومن الواضح ايضا ان الانسان تعرف اولا وقبل كل شيء على ما هو مرتبط مباشرة بعمله ولتأمين حاجياته

الاستهلاكية . وليس صدفة ان الفن البدائي للانسان كثيرا ما يصور نشاطه العملي .

وهكذا تطور الوعي الانساني في وحدة بين العمل والتفكير وعلى أساس النشاط العملي الانتاجي .

اللغة والتفكير

لقد كان للغة والكلام ذي المقاطع اهمية بالغة في تكون الوعي الانساني. فاللغة التي انبثقت سوية مع الوعي على اساس العمل ، كانت قوة جبارة ساعدت الانسان على ان يخلص نفسه من مملكة الحيوان وان يطور تفكيره وينظم الانتاج المادي . ان العمل كان دائما اجتماعيا . فالناس منذ الايام الاولى لوجودهم كانوا مضطرين لان يناضلوا بصورة جماعية ضد قوى الطبيعة الجبارة ، وان ينتزعوا منها وسائل عيشهم الضرورية بصورة مشتركة . ولهذا ففي مجرى العمل ظهرت لديهم الحاجة الى **العيش المشترك** والى **التخاطب** فيما بينهم . وتحت تأثير هذه الضرورة الملحة تحولت حنجرة القرد غير المتطورة الى جهاز قادر على تلفظ اصوات ذات مقاطع متقطعة وظهر الكلام ذو المقاطع ، اي اللغة .

لقد سمى ماركس اللغة الواقع المباشر للفكرة . ذلك ان الفكرة يمكن ان توجد فقط في داخل غلاف مادي هو الكلام . وسواء فكر الانسان مع نفسه او مع غيره او عبر عن افكاره بشكل مسموع او وضعها في صيغة مكتوبة ، فان الفكرة تتلبس بالكلام . وبفضل اللغة فان الافكار لا تتم صياغتها فحسب بل يجري نقلها وقبولها ايضا . وبالكلمات وتركيبها يؤكد الانسان نتائج انعكاس الاشياء الموضوعية في وعيه الذي يعطي امكانية تبادل الافكار ليس بين الناس من جيل واحد فحسب بل اعطاء الافكار من جيل الى جيل . فلولاوجود اللغة والكتابة لضاعت تماما التجربة الثمينة للاجيال، ولكان كل جيل مضطرا لان يبدأ من جديد الطريق الصعب جدا لدراسة العالم .

ان اللغة مرتبطة بالواقع ولكن ليس بشكل مباشر وانما عن طريق التفكير . ولهذا فليس من السهل احيانا اقامة علاقة مباشرة بين كلمة معينة وشيء مادي حسي . وفي مختلف اللغات وفي اللغة الواحدة كثيرا ما تصادف كلمة واحدة تعني اشياء مختلفة او كلمات عدة تعني شيئا واحدا. وهذا كله يخلق وهما مفاده ان اللغة مستقلة ولا علاقة لها بالواقع .

ان ممثلي ما يسمى بالمثالية السيمانتية (الكلامية) ــ وهي احدى

التيارات في الفلسفة البووجوازية المعاصرة ــ يستخدمون هذا الامر ويفصلون اللغة عن التفكير والتفكير عن الواقع . فهم يقولون بأن الكلمات يخلقها الانسان بشكل تحكمي وهي لا تعني شيئا في الواقع ولا تزيد عن كونها تركيبات صوتية بسيطة . ومن هنا يحاول بعضهم ان يبرهن على ان الراسمالية المعاصرة والاستغلال والعدوان ليست سوى كلمات فارغة ، اصوات . ويكفي ان تستبدل بكلمات اخرى لتصفى حالا جميع مصادر النزاعات الاجتماعية وتختفي جميع قزوح الراسمالية المعاصرة .

ان الكلمات ، في الواقع ، لا توضع من قبل الناس ، بشكل تحكمي ، وانما هي تحديد لشيء او ظاهرة معينة في عملية المعرفة والنشاط التطبيقي . ولا تتبدل هذه العمليات الموضوعية ولا تختفي بتبديل الكلمات الدالة عليها . ان المدافعين عن الراسمالية ابتدعوا عشرات الكلمات ذات الرنين اللطيف لتعريف النظام الراسمالي الذي تكرهه الشعوب ، من قبيل: « الراسمالية الشعبية » و « الاقتصاد العملي » و « الانسانية الاقتصادية » وغيرها . ولكن الراسمالية وما ينشأ عنها من استغلال وبطالة وصدامات طبقية لم تختف . ان الراسمالية سوف تختفي فقط نتيجة نضال البروليتاريا ضد البورجوازية ، والثورة الاشتراكية .

ان الوعي هو نتاج تطور مستمر للمادة . ولكن بعد ظهوره على اساس المادة اصبح يؤثر بشكل فعال على تطورها

ان المثاليين في سعيهم لتشويه المادية يؤكدون بأنه ما دام الماديون يعتبرون المادة أساسا لكل الوجود ويبرهنون على موضوعية الاشياء واستقلالها عن الوعي ، فانهم ــ اي الماديين ــ يحطون من دور الوعي ويعتبرونه سلبيا وانعكاسا ميتا للوجود .

غير ان المادية الدياليكتيكية في الواقع بعيدة عن فكرة الحط من دور الوعي في تطور المادة والوجود . ان الوعي اذ يمثل نتاجا للمادة ويعكسها فانه لا يبقى سلبيا ، وانما **يؤثر بفعالية** على العالم . وبهذا المعنى قال لينين : « ان وعي الانسان ليس فقط يعكس العالم الموضوعي ولكن يكونه ايضا » . وطبيعي فان هذا لا يعني التأثير المباشر للوعي على الوجود ولا خلق او ايجاد العالم من قبل وعي الانسان . فالفكر بمفرده ليس بمقدوره ان يحرك عشبة صغيرة . وانما يعني بأن الوعي اذا ما عكس العالم بشكل صحيح فان بامكانه ان يخدم كموجه لنشاط الانسان الخلاق المبدع .

اما الحديث عن فعالية الوعي ، بتفصيل ، وعلى الاخص في الحياة الاجتماعية فسنسوقه فيما بعد .

الفصل الخامس

الديالكتيك الماركسي كتعاليم عن التطور والرابطة الشاملة

ان الفلسفة الماركسية هي المادية الدياليكتيكية التي ترتبط فيها المادية والديالكتيك بشكل لا ينفصل . وقد شرحنا في الفصول السابقة جوهر المادية الفلسفية الماركسية ومهمتنا الان ان نبين بشكل اكثر تفصيلا ماذا يمثل الدياليكتيك المادي الماركسي وما هي اهميته العملية .

١ ـ الدياليكتيك : كتعاليم عن التطور

ان الدياليكتيك الماركسي ـ كما بينا ـ ينظر الى العالم باعتباره حركة وتبدل وتطور مستمر . تقنعنا بهذا ، أي ان الاشياء والظواهر في العالم لا تبقى ثابتة ، التجربة اليومية وتطور العلم والتطبيق الاجتماعي .

ان كل شيء في العالم يتطور . الاجرام التي لا حصر لها في الكون، النظام الشمسي ، الارض وكل ما هو موجود فيها ، كل هذا نتيجة تطور مستمر للمادة . وفي مجرى تطور العالم المادي ، كما نعرف ، ظهر الانسان، ارقى الاحياء في الطبيعة .

ويتطور ايضا المجتمع الانساني ويشهد على ذلك خصوصا القرن الذي نعيش فيه ، قرن التقدم التاريخي العظيم ، والتحولات الاجتماعية التي لا مثيل لها ، حيث يتحطم النظام الرأسمالي المتفسخ ويقوم مكانه حتما المجتمع الجديد ، الشيوعي . ان عالم الاشتراكية قد توطد نهائيا فوق جزء هام من كوكبنا . وان هذا العالم ينمو ويتعزز ويضاعف قوأه من يوم لاخر ، مبينا افضلياته وامكانياته التي لا حدود لها ، ويتهاوى النظام الكولونيالي للاستعمار وتحصل الشعوب المناضلة ضد الكولونيالية ، الواحد بعد الاخر ، على الاستقلال ، وتجري امام اعيننا ثورة عظيمة في العلم والتكنيك . فالانسان يتغلغل في اعماق الذرة ويضع قواها الجبارة في خدمته ، وتنفتح امام

جبروت العقل البشري الاجواء الكونية غير المحدودة .

ويتبدل وعي الناس – افكارهم وآراؤهم ونظرياتهم – وهو يعكس تطور العالم المادي .

وبالتالي فان التطور المستمر وانتقال الاشياء والظواهر من حالة الى اخرى وتحولها من بعض الى بعض ، يمثل خاصية هامة للعالم المادي . ولهذا فمن اجل ان نتعرف على الاشياء والظواهر ، من الضروري قبل كل شيء ان ندرس تبدلها وتطورها المستمرين . قال لينين : « من اجل ان نتعرف على الشيء بصورة حقيقية ، من الضروري ان نأخذه في تطور و « حركة ذاتية » وتبدل .

ان دراسة اللوحة العامة لتطور العالم هي بالتأكيد احدى اهم مهمات الدياليكتيك المادي . كتب انجلز يقول : « ان الدياليكتيك هو تعاليم عن القوانين العامة لحركة وتطور الطبيعة والمجتمع الانساني والتفكير » . (ضد دوهرنغ ص ١٥٣) .

ولكن كيف يفهم الدياليكتيك الماركسي عملية التطور ذاتها ؟

ان الدياليكتيك الماركسي ينظر الى التطور باعتباره حركة من الاسفل الى الاعلى ، من البسيط الى المركب ، كعملية ثورية تتم بقفزات حيث تتم هذه الحركة ليس في دائرة مغلقة ، وانما على شكل حلزون ، كل حلقة فيه اعمق واغنى وتختلف عن سابقتها . ان الدياليكتيك يرى مصادر التطور في التناقضات الملازمة للاشياء والظواهر نفسها . وان الدياليكتيك الماركسي فقط هو الذي يعطي الفهم الصحيح الحقيقي لعملية التطور .

ان القوانين الاساسية للدياليكتيك المادي تعطي لوحة عامة عن تطور العالم ومعرفته واعادة بنائه . **فقانون وحدة وصراع المتضادات** يكشف مصادر التطور وقواه المحركة . **وقانون تحول التغيرات الكمية الى تغيرات كيفية** يتحدث عن التبدل الثوري الذي يتم بقفزات وعن التحول المستمر للتغيرات الكمية الملازمة للاشياء الى تغيرات جذرية كيفية . **وقانون نفي النفي (نقض النقيض)** يميز الطابع الحلزوني الدائب للتطور .

وسندرس هذه القوانين كلها في الفصل القادم من هذا الكتاب .

استحالة قهر الجديد

ان تطور العالم المادي يمثل عملية لا نهاية لها لموت القديم وظهور **الجديد** . فتاريخ القشرة الارضية مثلا هو تاريخ نشوء تراكيب جيولوجية جديدة باستمرار . وفي عالم النبات والحيوان تترك الاشكال العضوية

القديمة مكانها لما هو اجدد واكثر تكامل . وكما تتجدد الخلايا باستمرار في الاجسام العضوية الحية ، فتختفي القديمة وتولد الجديدة مكانهـــا ، فكذلك الحال في المجتمع ، فان الاشكال التي فات اوانها في البناء الاجتماعي تموت وتولد مكانها اشكال جديدة تقدمية .

وبالتالي فان التقدمي ، الجديد يولد باستمرار ليحل محل القديم وانه لا يمكن قهره . ان استحالة قهر الجديد هي اهم ما يميز تطور الطبيعـة والمجتمع والفكر .

غير ان الجديد الحقيقي كما يفهمه الدياليكتيك الماركسي هو ليس كل ظاهرة جديدة ، وليس كل ما يقال عنه انه جديد . فالفاشية الالمانية صورت النظام الدموي الذي اقامته في اوروبا ايام الحرب العالمية الثانية على انـه « نظام جديد » وغطت جرائمها بعلم « الاشتراكية الوطنية » الكاذب . غير ان هذا « الجديد » كان رجعيا غير قابل للحياة ، ولم يصمد لامتحان الزمن وتحطم تحت الضربات الجبارة التي وجهتها له الشعوب المحبة للحرية .

ان الجديد هو التقدمي ، الارقى ، القادر على الحياة ، النامي والمتطور باستمرار . وهو في البداية ـ عادة ـ ضعيف نسبيا ، واحيانا لا يلحـظ الا بصعوبة ، في حين ان القديم هو المسيطر ويبدو كما لو انه لا يغلب . ورغم هذا فان القديم يتفكك ويفوت اوانه . اما الجديد فانه ينمو ويتطور وينتصر في نضال ضار ضد القديم . وفي نهاية القرن التاسع عشر ظهرت في روسيا اول براعم الحركة العمالية . وكانت قواها تبدو ضعيفة بالنسبة لقوى الحكم المطلق والبورجوازية . ولكن في مجرى الزمن نمت البروليتاريا الروسية ، كطبقة تقدمية في المجتمع وتطورت وتصلبت في المعارك الطبقية وفي النهاية كسبت النصر على القيصرية والبورجوازية .

لماذا لا يمكن قهر الجديد والتغلب عليه ؟

ان الجديد لا يمكن قهره لانه قبل كل شيء ينشأ من تطور الواقع نفسه ويتلاءم جيدا مع الظروف الاعتيادية . فمن المعروف مثلا انه في الازمنـــة السحيقة في القدم انتشرت في الارض نباتات لم تكن بذورها تحوي قشرة وأقية (وهي ما يسمى بالنباتات ذات البذور العارية) . وبعد ذلك ظهـرت نباتات جديدة تكيفت بشكل احسن تجاه الوسط المحيط ، وكانت بذورهـا محمية من تقلبات الطقس ، ولهذا فقد حصلت هذه النباتات على افضليـات كبيرة بالنسبة للانواع الاخرى من النباتات . ونتيجة لهذا فان هذه النباتات طردت الانواع القديمة وانتشرت في الارض وبدلت كامل الغطاء النباتـــي

الذي يغطي وجه الارض .

ان استحالة قهر الجديد تظهر بوضوح خصوصا في التطور الاجتماعي. وينتصر الجديد في المجتمع **لانه يتجاوب مع حاجات الحياة الاقتصادية** . والانتاج المادي . ان النظام الاشتراكي يحوز الغلبة على الراسمالية لانـــه يتيح مجالا لتطور القوى المنتجة ، ويزيل العقبة من طريقها ، الا وهي الملكية الراسمالية الخاصة .

ان الجديد يتجاوب مع مصالح الطبقات الطليعية التقدمية في المجتمع، ولهذا فهي تناضل بداب من اجل انتصاره . ان المساهمة النشيطة للشعب في النضال من اجل النظام الاجتماعي الجديد ضمنت الانتصار التاريخي العالمي للاشتراكية في بلادنا وهي شرط هام جدا لنجاحهـــا في البناء الشيوعي .

وان الجديد في التطور الاجتماعي لا يمكن قهره ايضا لان **قاعدتـــه الاجتماعية تنمو وتتطور باستمرار** . ان الجديد الذي يظهر يجمع حولـه اكثر القوى تقدمية في المجتمع . ان مركز الجذب الجبار للقوى التقدمية هو « الاتحاد السوفياتي ». الذي يحظى بدعم واحترام الناس التقدميين في العالم اجمع . ان الصداقة والتعاون المتبادلين بين البلدان الاشتراكيـــة ودعم الطبقة العاملة والقوى التقدمية في العالم اجمع انما هي عامل هام في حتمية انتصار قضية الشيوعية العظيمة .

ان استحالة قهر الجديد لا تعني ان انتصاره يتم بشكل اوتوماتيكي. فالدور الحاسم في انتصار الجديد على القديم في الحياة الاجتماعية يلعبه **النشاط الواعي** للشعب والطبقات الطليعية والاحزاب التقدمية .

وقد دلل البرنامج الجديد للحزب الشيوعي في الاتحاد السوفياتي بشكل شامل وبتعبير واضح على استحالة قهر الجديد حيث اوضح بشكل خاص بان انتصار الشيوعية سيتم فقط كنتيجة للمســاهمة النشيطة من جانب الشعب السوفياتي كله في البناء الشيوعي . واشار البرنامج بشكل واضح الى الدور المتعاظم باستمرار للحزب الشيوعي في الاتحاد السوفياتي والدولة السوفياتية في بناء الشيوعية .

٢ ـ الديالكتيك : كتعاليم عن الرابطة الشاملة

ان العالم المادي ليس متطورا فقط ، وانمـا هو كل **مترابط موحد** . تتطور فيه جميع الظواهر والاشيـــاء ليس بشكل منفرد وبذاتهـا ، وليس بشكل منعزل عن بعضها البعض وانما بارتباط وثيق وبوحدة مع الاشيـــاء

والظواهر الاخرى . ان كلا منهـا يؤثر علـى الاشيـاء والظواهر الاخـرى ويتأثر بهـا .

إن العلم يقدم معطيات كثيرة تؤكد الرابطة المتبادلة والتأثير المتبـادل بين الاشياء والظواهر . فمثلا بعض الاجزاء « الاولية » عندما تتبادل التأثير تشكل الذرة . غير ان الذرات ليست منعزلة فهي تدخل في رابطة متبادلة وتشكل الجزئيات ، والجزئيات بدورها تشكل الاجسام المرئية . وانالتأثير المتبادل بين الاجسام المرئية يجد تعبيره في قانون الجاذبية الكونية. ووفقا لهذا القانون فان الارض مرتبطة بالشمس والكواكب الاخرى في المجموعة الشمسية والمجموعة الشمسية مرتبطة بمجاميع كونية اخرى اكبر .

وترتبط العضويات بسلسلة معقدة من التأثير المتبـادل : النبـاتات المختلفة ، وكذلك الحيوانات حيث تشكل انواعا ، وتتوحد الانواع مشكلـة اجناسا واصنافا . ان الاجسام العضوية لا ترتبط فيما بينها فقط وانمـا بالوسط المحيط بها ايضا وهو الذيتحصل منه على الموا دالغذائيةالضرورية والطـاقة .

ان العالم الروسي العظيم ك . ا . تيميريازيف ١٨٤٣ ـ ١٩٢٠ كشف ماهية رابطة النباتات بأشعة الشمس التي تمدها بالحياة . وبرهن على انه بتأثير الطاقة الشمسية علىالحبات الكلوروفيلية فيالاوراق الخضراء للنبات تتم عملية تحلل حامض الكربونيك ، وعندها يتمثل النبات الكربون . امـا الاوكسجين ، الضروري لتنفس الانسان والحيوان ، فانه ينطلق فيالفضاء. ان المواد العضوية المنتجة تركز في ذاتها الطاقة الشمسية على شكل طاقة كيماوية يستفيد منها الانسان فيما بعد عندما يستعمل النبـات كغذاء او وقود . لقد كتب تيميريازيف يقول : « ان الورقة الخضراء او على الاصح حبيبات الكلوروفيل الميكروسكوبية ، هي البؤرة ، هي نقطة فيفضاء العالم، تتجمع فيها الطاقة الشمسية من جهة وتبدأ فيها جميع الظواهر الحيـاتية على الارض من جهة اخرى . ان النبات هو الوسيط بين السماء والارض. انه بروميتيوس(1) حقيقي سرق الطاقة من السماء . ان الاشعة الشمسية المسروقة من قبل النبات تشتعل في خشب الوقود وفي شرارات الكهربـاء المشعة ، وهي تتحول الى حركة سواء في عجلة هائلة لماكنة بخارية ضخمة او فرشة فنان او قلم شاعر» . انالانسان مرتبط بالطبيعة عن طريقالانتاج المادي . وشكل هذه العلاقة هو العمل ، الشرط اللازم لوجود البشرية .

---

(1) بروميتيوس : بطل الاسطورة الاغريقية التي تقول بانه سرق النار مـن الشمس وجاء بها الى الارض ـ المترجم .

وبفضل العمل يحصل الانسان على الخيرات المادية الضرورية له من الطبيعة. وخلال العمل تنشأ بين الناس علاقات اقتصادية انتاجية ، وتظهر على اساسها علاقاتهم السياسية والحقوقية والاخلاقية .

وبالتالي **فان الرابطة الشاملة والتأثير المتبادل** بين الاشياء والظواهر هي خاصية جوهرية للعالم المادي . ولذا فلمعرفة الشيء في الواقع من الضروري ، كما اشار لينين ، ان ندرس جميع جوانبه وعلاقاته . **ان دراسة العالم ككل موحد ومترابط وبحث الروابط الشاملة بين الاشياء** هي مهمة بالغة الاهمية امام الدياليكتيك المادي. ونظرا لان الاشياء والظواهر في العالم المادي كثيرة التنوع ، لذا فان روابطها وتأثيراتها المتبادلة هي بدورها متنوعة ايضا. ان الدياليكتيك الماركسي لا يدرس سوى اهم الروابط الشاملة . أي تلك التي توجد في جميع نواحي العالم المادي وعالم الفكر .

ان انعكاس هذه الروابط في وعي الانسان هو قوانين الدياليكتيك ومفاهيمه الاساسية .

ان معرفة الروابط ذات اهمية بالغة ، ذلك ان الناس بكشفهم هذه الروابط انما يكشفون **قوانين العالم الموضوعي** . وان معرفة القوانين هي شرط ملزم لنشاط الناس العملي. ان مهمة العلم هي بالتأكيد معرفة القوانين والتسلح بها في التطبيق .

لنقدم الان تفصيلا اكثر عن طابع القانون .

مفهوم القانون تسود العالم الموضوعي قوانين كثيرة . توجد قوانين للطبيعة غير الحية ، وللعالم العضوي للمجتمع والفكر . غير ان قوانين اي مجال كان من مجالات الواقع هذه لها بعض المميزات العامة المشتركة التي يشملها المفهوم الفلسفي ــ القانون . فما هي هذه المميزات ؟

ان القانون هو قبل كل شيء **علاقة** ، **رابطة** بين الاشياء المتطورة او جوانب من هذه الاشياء . غير ان القانون ليس اية علاقة وانما فقط العلاقة الدائمة المتكررة ، تلك التي تلازم ليس شيئا واحدا او مجموعة صغيرة من الاشياء ، وانما عددا هائلا من الاشياء والظواهر . مثلا قانون العلاقة المتبادلة بين الكتلة والطاقة فهو يحدد طابع التبعية المتبادلة بين الكتلة والطاقة لعدد لا يحصى من الاجسام الفيزيائية . وان القانون الدوري الذي اكتشفه د. ي. مندلييف (١٨٣٤ ــ ١٩٠٧) يشير الى تبعية خصائص جميع العناصر الكيماوية الى حجم الشحنة الموجبة في النواة . وبالتالي فان القانون هو ليس الرابطة الفردية ، وانما الرابطة العامة بين الظواهر . كتب انجلز يقول:

ان القانون هو « الشكل لما هو شامل في الطبيعة » .

والميزة الهامة الاخرى للقانون هي انه يمثل ليس جميع الروابط المتكررة وانما فقط تلك التي لها طابع **ضروري وجوهري** . فقانون الرابطة المتبادلة بين الكتلة والطاقة نفسه يحدد طابع علاقة خصائص جوهرية لا تتبدل في الاجسام الفيزيائية ككتلتها وطاقتها . والقانون البيولوجي عن الرابطة بين الجسم الحي والوسط يحدد بالضبط الرابطة الضرورية الهامة للجسم الحي بشروط وجوده .

ان القانون اذ يمثل ما هو ضروري وجوهري في الظاهرة فانه ينشط فقط في ظل شروط معينة ليسبب ليس اي مجرى للاحداث وانما مجرى **محددا في اساسه** . ان التحديد الدقيق لنشاط القوانين له اهمية علمية عظيمة : فالناس اذ يعرفون القوانين واتجاه التطور يملكون امكانية التنبؤ بالمستقبل . فمثلا بعد ان يعرف الناس قوانين تطور المجتمع والظروف التي تنشط فيها فانهم يستطيعون ان يتنبأوا بمجرى الاحداث التاريخية .

وهكذا **فالقانون هو الرابطة الجوهرية ، الضرورية العامة ، المتكررة بين الظواهر في العالم المادي** التي تسبب مجرى للاحداث محددا بدقة .

ومنذ امد بعيد يجري صراع بين المادية والمثالية حول مسألة طبيعة القانون . فالمثاليون يقولون ان خالق القوانين هو اما الانسان او «الفكرة»، « الغيبية » ، و « الروح العالمية » . وبالتالي فان وجهة النظر المثالية تؤدي الى الاعتراف بالجوهر الالهي للقوانين . فالفيلسوف الاميركي البورجوازي المعاصر برايتمان يؤكد مثلا « ان كل قانون طبيعي انما هو قانون الله، وان كل قوة طبيعية هي من عمل الله » .

وعلى الضد من المثالية ينطلق الديالكتيك المادي من الاقرار **بالطابع الموضوعي** للقوانين . وهذا يعني ان الانسان ليس بمقدوره ان يخلق او يبدل القوانين بشكل تحكمي بل انه يستطيع فقط ان يعرفها وان يعكسها عنها . ان العالم هو حركة قانونية للمادة ــ كما قال لينين ــ وان وعينا كأرقى نتاج للطبيعة هو في وضع يستطيع معه ان يعكس قانونية هذه الحركة .

ان موضوعية القوانين تعني ايضا بأنها تنشط مستقلة عن ارادة الانسان ووعيه . ولهذا فان كل محاولة للعمل ضد القوانين محكوم عليها بالاخفاق حتما . فنحن لا نستطيع ان نتجاهل قانون الجاذبية العامة ، ومن اجل الوصول الى الفضاء الكوني لا بد من التغلب على قوة جاذبية الارض . وكذلك لا نستطيع ان نتجاهل قوانين التطور الاجتماعي والدليل على ذلك مثلا فشل محاولات الاستعماريين البائسة لايقاف المجرى الحتمي لانهيار النظام الكولونيالي .

ان الديالكتيك المادي في الوقت الـذي يعارض فيه الفهـم المثالي للقوانين ، فانه يرفض ايضا القدرية ، اي الخضوع الاعمى للقوانـين وعدم الثقة بقوة العقل البشري وفي قدرة الناس على معرفة القوانين والاستفادة منها . ان الانسان ليس قادرا على خلق او تغيير القوانين ، ولكنه قـادر على ان يعرفها ويستخدمها في نشاطه العملي .

واستنادا الى معرفة القوانين الطبيعية فان الانسان استطاع ليس فقط ان يعيق النشاط التخريبي للماء والريح وغيرها من القوى الطبيعية ، وانما استطاع ان يضعها في خدمته : تسقي الحقول وتحـرك مراوح توربينات المراكز الكهربائية .. الخ . واستنـادا الى قوانين التطور الاجتماعي يعيد الناس بناء حياتهم الاجتماعية .

ان النظام الاشتراكي يخلق احسن الظروف لمعرفة القوانين وتطبيقها ذلك ان نشاط قوانين التطور الاجتماعي يلائم مصالح كل الشعب . وفي ظل النظام الاشتراكي ، وعلى اساس سيطرة الملكية الاجتماعية يجري استخدام الموارد الطبيعية بشكل مبرمج ويجري تحسين العلاقات الاجتماعية بشكل موجه . لنأخذ مثلا قانون التطور المبرمج المتناسق للاقتصاد الوطني في ظل الاشتراكية . لما كان الانتاج الاشتراكي لا يمكن ان يتطور بدون خطة ، فمن الضروري ان نعرف هذا القانون وان نستخدمه . وفي نفس الوقت فـان هذا القانون يتجاوب تماما مع مصالح الشغيلة ، ذلك ان الانتاج الاشتراكي يتطور بهـدف التأمين الاكمل فالاكمل لحـاجات الشغيلة المـادية والثقافية المتعاظمة باستمرار . ولهذا بالضبط فان الشغيلة ذوو مصلحة في ان يعرفوا هذا القانون وان يستخدموه .

٣ . اهمية الديالكتيك الماركسي

ان الديالكتيك المـادي الماركسي هو تعاليم عميقة عامة عن التطور والرابطة الشاملة في العالم . وانه اذ يعطي صورة عامة عن انعمليات المادية فانه يمثل **اسلوبا علميا لمعرفة العالم** ، يعطي الانسان امكانية فهـم مختلف ظواهر الواقع . غير ان الديالكتيك الماركسي ليس فقط اسلوبا للمعرفة ، وانما هو وسيلة **لتغيير العالم ثوريا** . وله اهمية عظيمة في النشاط العملي للطبقة العاملة وحزبها الماركسي .

ان الديالكتيك الماركسي هو فـي اساسه **انتقادي ثوري** . فهو لا يعترف بشيء غير قابل للتبدل ، خالد ، خلق ليبقى الى الابد على ما هو عليه . ولا يوجد ما هو خالد بنظر الديالكتيك الماركسي شيء عدا التقدم

الذي لا نهاية له والحركة الخـالدة المتواصلة الـى امام . ان الدياليكتيك الماركسي لا يهادن الميتافيزيق والرجعية . وكل محاولة تهدف الى الدفاع عن النظام الذي ولى زمانه والى تخليد الملكية الخاصة والاستغلال والحروب والاضطهـاد القومي . انـه يساعد على كشف الطـابع التاريخي الانتقالي للراسمالية ، ويشير الى حتمية فنائها وتجاوزها من قبل نظـام جديد ، اشتراكي . ولذا فان الدياليكتيك يولد لدى البورجوازية ومفكريها الحقد والرعب .

ان الطابع الثوري الانتقادي للدياليكتيك الماركسي يتطابق كليا مع الروح الثورية للطبقة العاملة وحزبها الماركسي ، ومع الطابع الديناميكي العاصف لعصرنا . انه يعزز وينير النضال الجرىء والدؤوب للطبقة العاملة وحزبها ضد الاستعمار ، من اجل السلم والاشتراكية والتقدم .

ان الدياليكتيك الماركسي ينبذ كل ما هو متأخر وكل ما فات اوانه في الواقع . ولا يتحمل النسخ في التطبيق ، والركود والجمود في التفكير النظري . انه يتطلب ان ننظر الى امام وان نستند الى القوى الاجتماعية التقدمية . وكذلك يسلك حزبنا عندما ينظم نضال الشعب السوفييتي من اجل الشيوعية ، فانه يرفض بحزم وشجاعة كل ما يعيق حركتنا الى امام ويدعم ، بكل ما يملك من قوة ، كل تقدمي وجديد يولد يوميا في واقعنا الاشتراكي .

ان الحزب الشيوعي في الاتحـاد السوفياتي اذ يستند الـى القوى التقدمية ويثقف الناس السوفييت بشعور الاحساس بالجديد فانه يقود ، بنجاح ، الشعب السوفييتي في طريق الشيوعية .

الفصل السادس

القوانين الاساسية للدياليكتيك المادي

ان الدياليكتيك الماركسي ، كما سبق وعرفنا ، هو تعاليم عن التطور والرابطة الشاملة . والامر الرئيسي في التطور هو مسألة مصادره وقواه المحركة . ان الاجابة على هذه المسألة يعطيها لنا قانون وحدة وصراع المتضادات . ونبدأ به عرض القوانين الاساسية للدياليكتيك .

قانون وحدة وصراع المتضادات

لقد سمى لينين قانون وحدة وصراع المتضادات جوهر الدياليكتيك ونواته . ان هذا القانون يكشف مصادر الحركة المستمرة وتطور العالم المادي والاسباب الحقيقية لذلك . ومعرفة هذا القانون ذات اهمية عظيمة لفهم دياليكتيك تطور الطبيعة والمجتمع والفكر ، وللعلم والنشاط العملي الثوري . ان تاريخ العلم يعرف وقائع كثيرة ساعد الدياليكتيك فيها — وخصوصا قانون وحدة وصراع المتضادات ، العلماء على ان يحلوا قضايا علمية معقدة ، وان يتغلبوا على مصاعب جدية . فقد حلت — بمساعدة هذا القانون — المسألة البالغة الصعوبة حول جوهر الظواهر الضوئية . فمنذ القرن السابع عشر تتصارع في الفيزياء نظريتان متعارضتان عن الضوء . الاولى تؤكد ان الضوء له طابع تركيبي — من اجزاء عدة — وانه تيار من جزئيات ، يطلقها الجسم المضيء . اما النظرية الثانية فتقول بأن للضوء طابع موجات فقط . اي ان الجسم المضيء يطلق ليس جزئيات وانما موجات . وقد اكدت التجارب ما جاءت به النظريتان الاولى والثانية . ان كلا من النظريتين كانت ذات جانب واحد لانهما لم تستطيعا ان تكشفا الطبيعة

المزدوجة للضوء . وفي القرن العشرين فقط جرت البرهنة على ان الضوء ذو طابع متناقض اذ انه جزئيات وموجات في آن واحد .

ولفهم قانون وحدة وصراع المتضادات اهمية بالغة في الحياة الاجتماعية . وان مؤسسي الماركسية ، بكشفهم تناقضات الراسمالية توصلا الى الاستنتاج بأنها ذات طابع تاريخي انتقالي ، وان استبدالها بالاشتراكية ضروري وحتمي . وان تحليل تناقضات الاستعمار ــ الامبريالية ــ ساعد لينين على وضع نظرية جديدة عن الثورة الاشتراكية والبرهنة على امكانية انتصار الاشتراكية اول الامر في عدة بلدان او حتى في بلد واحد .

ان الوقائع التي ذكرناها وكثيرا غيرها تدلل على ان تحليل تناقضات الواقع الموضوعي ، وكشف طابعها هو اهم متطلبات البحث العلمي والنشاط العملي .

١ . وحدة وصراع المتضادات

قبل ان نبحث قانون وحدة وصراع المتضادات سنرى كيف يفهم الدياليكتيك الماركسي اللينيني « المتضادات » و « وحدة المتضادات » .

وحدة المتضادات : ان كل واحد منا استخدم مرارا المغناطيس الاعتيادي (جاذب الحديد) ويعرف جيدا بأن العلامة التي تميزه هي وجود جانبين متنافرين ، غير انهما مرتبطان بشكل لا ينفصل ، هما القطب الشمالي والقطب الجنوبي . ومهما حاولنا فصل القطب الشمالي عن القطب الجنوبي في المغناطيس فاننا سوف لن نستطيع فعل ذلك . فالمغناطيس اذا ما قسمناه قسمين او اربعة او ثمانية او الى ما لا حصر له من الاقسام فانه سيظل له نفس القطبين .

فالمتضادات هي بالضبط تلك الجوانب او الميول او القوى التي تتنافر في الشيء وينفي بعضها بعضا . وفي نفس الوقت يفترض وجود احداهما الاخرى . وان العلاقة المتبادلة التي لا تنفصل بين هذه الجوانب تمثل **وحدة المتضادات** .

ان الجوانب المتضادة موجودة في جميع الاشياء والظواهر . انها جميعا تشكل علاقة عضوية ، ووحدة متضادات لا تنفصل . ان الاجزاء « الاولية » مثلا تمثل وحدة تضاد للخصائص الموجبة والتركيبية . وليست الاجزاء « الاولية » هي وحدها متضادة بل ان الذرات المكونة لها متضادة ايضا . ففي مركز الذرة توجد النواة ، وهي تحمل شحنة موجبة ،ويوجد حولها الكترون او عدة الكترونات تحمل شحنة سالبة . وان العملية الكيميائية

هي وحدة تضاد بين اتحاد الذرات وانقسامها .

وتوجد المتضادات ايضا في الاجسام العضوية . فقد سبق وان ذكرنا عمليتي التمثيل والاحتراق المتضادتين واللتين تمثلان عملية استحالة الغذاء اللازمة للحياة . وما عدا هذا تلازم الاجسام العضوية خصائص متضادة كالوراثة والتكييف . فالخصائص الوراثية هي ميل الجسم العضوي على خلق خصائص جديدة تتلاءم مع الظروف المتبدلة. كما ان نشاط الانسان السايكولوجي يتميز بعمليات متضادة من الاثارة والكبح ، وتركيز الاثارات وتوزيعها في قشرة الدماغ .

وفي المجتمعات الطبقية القائمة على الصراع توجد طبقات متضادة : العبيد وملاك العبيد في مجتمع مالكي العبيد ، الفلاح القن والاقطاعي في الاقطاعية ، البروليتير والبورجوازي في الراسمالية .

وتلازم الجوانب المتضادة عملية المعرفة ايضا . فالانسان يستخدم في الدراسة طرقا واساليب متضادة ، ولكنها مترابطة ببعضها البعض ، كالاستقرار والاستنتاج والتحليل والتركيب .

وبالتالي فان تضاد الاشياء والظواهر في العالم له طابع شامل عام . فلا يوجد في العالم شيء او ظاهرة لا ينقسم الى متضادات .

ان المتضادات ليس فقط تنفي بعضها البعض وانما هي تفترض وجود بعضها البعض ايضا . انها توجد بصورة مشتركة في الشيء او الظاهرة . ولا يعقل ان يوجد احدها دون الاخر . لقد سبق ولاحظنا الوحدة التي لا تنفصل بين قطبي المغناطيس . وكذلك لا تنفصل عملية التمثيل عن الاحتراق في الجسم الحي ، والتحليل والتركيب في عملية المعرفة . وان المجتمع الراسمالي لا يمكن ان يوجد بدون طبقات متضادة ــ بروليتاريا وبورجوازية. وبطبيعة الحال فانه نتيجة للثورة الاشتراكية تقوم البروليتاريا بتصفية البورجوازية كطبقة . وعند ذاك لا تعود الراسمالية راسمالية ، وتترك مكانها للاشتراكية . وما دامت الراسمالية في الوجود فان العامل لا يستطيع العيش اذا لم يذهب للعمل لدى الراسمالي وان الراسمالي يستثمر العامل دوما .

كتب انجلز يقول : « ان احد طرفي التناقض لا يمكن ان يوجد دون الاخر ، كما لا يمكن ان لا تظل في ايدينا تفاحة كاملة بعد ان نكون قد اكلنا نصفها » (١) .

صراع المتضادات مصدر التطور : لقد بينا ان الاشياء والظواهر هي وحدة متضادات . ولكن ما هو **طابع** هذه الوحدة ؟ هل تتعايش المتضادات

---

(١) كارل ماركس وفريدريك انجلز ، المؤلفات المختارة ــ ص٢٤٦ .

في هذه الوحدة بسلام ام انها تدخل في تناقض ، في صراع فيما بينها ؟

ان تطور مختلف الاشياء والظواهر في الواقع يدلل على ان الجوانب المتضادة لا يمكن ان تتعايش سلميا في شيء واحد : ذلك ان الطابع المتناقض للمتضادات ، التي تنفي بعضها بعضا ، يولد بالضرورة **صراعا** فيما بينها ، ولا يمكن للجديد الا ان يدخل في تناقض وصراع مع القديم ، وكذلك حال الاشياء النامية مع تلك التي فات اوانها . **ان التناقض والصراع بين المتضادات هو بالضبط المصدر الاساسي لتطور المادة والوعي** . كتب لينين يقول : « **ان التطور هو « صراع » المتضادات** » (٢) . وبهذا اشار بوضوح الى ان **هذا الصراع** مطلق ، كما هو حال التطور والحركة . ان التأكيد على ان الامر الحاسم في التطور هو صراع المتضادات لا يقلل بالمرة من اهمية وحدتها . ذلك ان وحدة المتضادات هي **شرط ضروري** للصراع . حيث ان الجوانب المتضادة قبل ان تتصارع لا بد لها من ان توجد في الشيء الموحد أو الظاهرة الموحدة .

وقد بين لينين امكانية وجود حالة توازن (تعادل) مؤقتة بين المتضادات ، هذه الحالة التي يجب ان تفهم بمعنى انه في مرحلة معينة من تطور العملية ليس لاي من الجانبين المتضادين فيها تفوق ملحوظ . فهكذا كانت الحال مثلا في روسيا في تشرين الاول ــ اكتوبر ــ ١٩٠٥ ــ كما بين لينين ــ حيث لم تكن القيصرية **وقتها** في حالة تمكنها من النصر . كما ان حالة من توازن القوى بين البورجوازية والملاكين الكبار من جهة والعمال والفلاحين من جهة اخرى وجدت في بلادنا خلال الفترة الممتدة من شباط حتى حزيران عام ١٩١٧ . ولكن في كلتا الحالتين كانت توازنا مؤقتا بين المتضادات . ففي عام ١٩٠٥ انتصرت القوى الرجعية ، وفي عام ١٩١٧ انتصرت البروليتاريا الثورية وحلفائها .

ان توازن المتضادات نسبي في كل عملية . ولا يمكن ان يكون الامر عكس ذلك ، فاذا ما كان التوازن مستمرا ، دائما لا يمكن ان يوجد في العالم اي تطور . ان الصراع وحده هو مصدر التطور وقوته المحركة .

ان ممثلين عديدين للفلسفة البورجوازية المعاصرة يشوهون الجوهر الثوري لنواة الديالكتيك الماركسي ، ويجعلون توازن المتضادات امرا مطلقا وينكرون الصراع فيما بينها . انهم يرون الامر الرئيسي ليس في صراع المتضادات وانما في التوازن فيما بينها . وبهذا ينفذ ايديولوجيو البورجوازية ما يطلبه منه اسيادهم ويحاولون تخليد المجتمع الراسمالي ، ويهادنون بين

---

(٢) لينين : المؤلفات المختارة الجزء ٣٨ ص. ٣٥٨ .

مصالح البورجوازية ومصالح البروليتاريا ، ويعملون بهذه الطريقة على صرف الجماهير الشعبية عن النضال من اجل الاشتراكية ، وعن مطامحها في ان تحل تناقضات الراسمالية بطريقة ثورية .

ان التناقضات الطبقية في الواقع لا يمكن ان تتهادن فيما بينهـا . يقنعنا بهذا تاريخ البشرية كله والتجربة العملية لنضال الطبقة العاملة .

ان تجربة تطور العلم وكذلك تطبيق الناس الاجتماعي التاريخي يشهد بشكل قاطع بأن مصدر التطور هو صراع المتضادات . ويتوجب علينا ان نعرف بأن هذا الصراع يبدو مختلفا في مجالات الواقع المادي المختلفة .

في الطبيعة غير الحية ينتشر على نطاق واسع صراع (تفاعل) القوى المتضادة مـن قبيل الجذب والـدفع . ان تفاعل قوى الجـذب والدفع ، الجاذبية والكهربائية والنووية وغيرها من القوى لعبت دورا عظيما في ظهور ووجود نواتات الذرة والذرات والجزئيات . وان صراع هذه القوى ، كما تقول النظريات المعاصرة عن منشأ العالم ، كان اهم مصدر لظهور النظـام الشمسي . ان علم الفلك المعاصر برهن ايضاً بأن التفاعل بين قوى الجذب والدفع هو احد المصادر الهامة لمختلف العمليات التي تتم الان في الفضاء الكوني . وفي جميع نواحي الكون لا يوجد توازن مطلق بين هذه القوى ، اذ لا بد لاحداها ان يسيطر حتما . فهناك حيث يسيطر الدفع فـان المادة تتشتت والنجوم تنطفي . اما حيث يتغلب الجذب فاذا المـادة والطاقة يتركزان الامر الذي بنتيجته تشتعل نجوم جديدة . وهكذا ففي مجرى النضال والتفاعل بين هذه القوى المتضادة تتحقق حركة المـادة الدائمة والطاقة في الكون .

اوضحنا فيمـا سبق بـأن الاجسام الحية تلازمها عمليات متناقضة كالتمثيل والاحتراق وان صراعها وتفاعلها هو بالضبط المصدر الخاص لتطور الحياة . ان هذه العمليات المتناقضة لا يمكن ان توجد في توازن مطلق . وان احداها لا بد وان يسيطر بالتأكيد . ففي الجسم الحي الفتي يتغلب على الاحتراق وهذا ما يسبب نموه وتطوره . وعندما يتغلب الاحتراق على التمثيل فان الجسم الحي يشيخ ويتحطم . غير انه في كل جسم حي فتيا كان ام شائخا ، فان هاتين العمليتين تتبادلان التأثير . وان التفاعل فيما بينهمـا وتناقضاتهما ، هو الحياة . بانقطاع هذا التناقض تتوقف الحياة ويقبل الموت .

وان التطور الاجتماعي ايضا يتم على اساس وحدة وصراع المتضادات ، وتلعب تناقضات الانتاج المادي وقبل كل شيء التناقضات بين القوى المنتجة وعلاقات الانتاج دورا خاصا كبيرا بين تناقضات التطور الاجتماعي . وفـي

المجتمعات الطبقية المتاخرة تجد التناقضات بين القوى المنتجة وعلاقات الانتاج تعبيرا لها في الصراع بين الطبقات المتعادية الذي يؤدي الى الثورة الاجتماعية والى استبدال نظام اجتماعي قديم بآخر جديد .

وهكذا فان الاشياء والظواهر تنقسم الى جانبين متناقضين وتمثل وحدة متضادات . وان المتضادات لا تتعايش بشكل بسيط ، وانما توجد في حالة تناقض وصراع مستمرين فيما بينهما . ان صراع المتضادات هو الجوهر الداخلي لتطور الواقع وجوهره .

هذا هو جوهر القانون الدياليكتيكي عن وحدة وصراع المتضادات .

٢ . تنوع التناقضات

توجد في العالم تناقضات كثيرة ومتنوعة . نصطدم بها باستمرار في حياتنا اليومية ، وتهتم بها مختلف العلوم . ان الدياليكتيك الماركسي ، خلافا لهذه العلوم ، يدرس اعم التناقضات . وسنبحث من بينها مجموعات التناقضات الكبيرة الهامة ، كالتناقضات الداخلية والخارجية ، التناحرية وغير التناحرية ، الرئيسية وغير الرئيسية .

التناقضات الداخلية والخارجية ان الديالكتيك الماركسي يتطلب اولا وقبل كل شيء ان نفرق بين التناقضات الداخلية والخارجية .

ان **التناقضات الداخلية** هي تفاعل وصراع الجوانب المتضادة لشيء معين . **والتناقضات الخارجية** هي العلاقة المتناقضة لشيء معين **مع الوسط المحيط** به ، ومع الاشياء في هذا الوسط .

ان اعداء الدياليكتيك الماركسي ، وبضمنهم انصار ما يسمى بـ « نظرية التوازن » يشوهون دور مجاميع التناقضات في التطور . وينكرون الاهمية الحاسمة للتناقضات الداخلية ، ويعتبرون التناقضات الخارجية المصدر الوحيد للتطور . فمصدر التطور في المجتمعات الطبقية بالنسبة لهم مثلا ، هو ليس صراع الطبقات المتناحرة وانما التناقض بين المجتمع والطبيعة . انهم لا يريدون ان يدركوا حقيقة ان علاقات الانسان بالطبيعة ودرجة سيطرته عليها تتعلق بالعلاقات الطبقية في المجتمع وبطابع النظام الاجتماعي .

وكما تلازم الاشياء والظواهر في العالم المادي تناقضات داخلية ، تلازمها تناقضات خارجية ايضا . غير ان التناقضات الرئيسية والحاسمة في التطور هي التناقضات الداخلية ، التناقضات داخل الشيء نفسه . وان هذه التناقضات هي مصدر الحركة قبل اي شيء آخر . وبالتالي فان الدياليكتيك الماركسي يفهم الحركة على انها **حركة ذاتية** للمادة ، **كحركة**

داخلية تكمن دوافعها ومسبباتها في الاشياء والظواهر المتطورة نفسها .

ان تفاعل وصراع الخصائص الموجبة والتركيبية للمادة وقوى الجذب والدفع والتمثيل والاحتراق وغيرها من المتضادات التي تحدثنا عنها فيما سبق كمصادر للتطور في مختلف مجالات الواقع لم تدخل هذه الاشياء والظواهر من الخارج ، وانما تلازمها داخليا .

ان التناقضات الداخلية هي مصدر التطور لانها تحدد شكل وطبيعة الشيء نفسه . وان الشيء دون تناقضاته الداخلية لا يمكن ان يكون كما هي عليه . فالذرة مثلا لا يمكن ان توجد دون تفاعل ودون « صراع » بين النواة التي تحمل شحنات موجبة والالكترونات التي تحمل شحنات سالبة . والجسم الحي لا يمكن ان يوجد دون تمثيل واحتراق .. الخ .

ان جميع التأثيرات الخارجية تؤثر على الشيء في كل الاحوال من خلال التناقضات الداخلية الملازمة له وبهذا ايضا يظهر دورها المحدد في التطور . ان تبدل الوسط الخارجي يعطي فقط دفعا لتطور الجسم الحي . ولكن في اي اتجاه والى اية درجة سيتجه هذا التطور والى اية نتائج سيؤدي ، فان هذا الامر يتعلق في آخر الامر بنوع استحالة الغذاء التي تلازم الجسم الحي . وهذا يعني تفاعل التمثيل والاحتراق الخاص بهذا الجسم .

وان مصدر تطور المجتمع يكمن في المجتمع نفسه ، وفي التناقضات الداخلية الملازمة له . فكيف يتطور بلد ما ، وفي اي اتجاه ، واي نظام اجتماعي يقوم فيه ؟ ان هذا يتعلق بالكيفية التي تحل بها التناقضات الطبقية الداخلية . « ان الثورة – كما بين برنامج الحزب الشيوعي في الاتحاد السوفييتي – لا تقوم بناء على طلب . انها لا يمكن ان تفرض على شعب ما من الخارج . انها تنبثق نتيجة تناقضات الراسمالية العميقة الداخلية والعالمية » .

لقد وجدت . في الواقع ، مناسبات عديدة في التاريخ فرض فيها النظام الاجتماعي في هذا البلد او ذاك من قبل القوى الرجعية الخارجية . ولكن الانظمة التي تفرض من الخارج على شعب ما ليست راسخة وتسقط عند اول امتحان جدي يواجهها .

ان الدياليكتيك الماركسي اذ يشير الى الدور الحاسم للتناقضات الداخلية . لا ينكر اهمية التناقضات الخارجية في التطور . ويختلف دور التناقضات الخارجية . وهي غالبا ما تكون شرطا ضروريا للتطور . ومثالها التناقضات بين المجتمع والطبيعة التي يحصل فيها الانسان على الخيرات المادية .

ان التناقضات الخارجية يمكنها ان تساعد التطور او ان تعيقه ، وان تعطيه مختلف الخصائص والاشكال ، ولكنها ، في العادة ، لا تستطيع ان تحدد المجرى الرئيسي للعملية ومجرى التطور ككل . ان الاهمية الحاسمة لانتصار الاشتراكية في بلادنا مثلا كانت، نتيجة الحل الصحيح للتناقضات الداخلية وفي مقدمتها التناحر بين البورجوازية التي اسقطت ولكنها لم تصف نهائيا بعد ، والبروليتاريا . غير ان السير نحو الاشتراكية كان يتحقق رغم وجود التناقض الخارجي بين الدولة السوفياتية والدول الراسمالية التي حاولت بكل الطرق ان تعيد في بلادنا العلاقات الراسمالية . ان المقاطعة السياسية والحصار الاقتصادي والتدخل في السنوات الاولى من السلطة السوفييتية والاعتداءات المسلحة المديدة ، واخيرا عدوان المحتلين الفاشيست الالمان اعاقت بشكل جدي تطور البلاد السوفييتية . ولكن جميع هذه المناورات الاستعمارية لم تستطع ان توقف سير بلادنا الظافر نحو الامام .

ولما كانت التناقضات الداخلية هي التي تحدد التطور فمن الضروري في النشاط العملي ان نعرف كيف نكشف ونحل التناقضات الداخلية قبل غيرها . غير انه يجب في الوقت نفسه ان لا نهمل التناقضات الخارجية طالما ان دورها في التطور دور كبير . ان النجاح يمكن ان يضمن فقط عندما ناخذ بعين الاعتبار وبدقة العلاقة المتبادلة والتأثير المتبادل بين التناقضات الداخلية والخارجية .

التناقضات التناحرية وغير التناحرية عندما نتحدث عن التناقضات التناحرية وغير التناحرية ينبغي ان يكون مفهوما بأننا نتحدث عن ميدان الظواهر الاجتماعية . في الواقع يوجد نوع من التناحر في الاجسام الحية بين بعض الانواع من البكتريا ، وبين الحيوانات المفترسة وغير المفترسة وبين بعض النباتات ، غير ان هذا ينبغي ان لا يخلط بالتناحر الاجتماعي .

ان **التناقضات التناحرية** هي التناقضات بين الطبقات التي لها مصالح متعادية بشكل لا مصالحة فيه . انها اكثر التناقضات حدة ووضوحا ويسببها التضاد الحاد للظروف المعيشية للطبقات واهدافها ومهماتها . ومن اهم ما يميز هذه التناقضات انها لا يمكن ان تحل في اطار النظام الاجتماعي الذي توجد فيه . وتؤدي التناقضات التناحرية بنعمقها وتفاقمها الى اصطدامات عنيفة ونزاعات . وان وسيلة حلها هي الثورة الاجتماعية .

ان التناقض بين البروليتاريا والبورجوازية بشكل خاص حاد وعميق .

والتناحر بينهما تسببه حالتهما الموضوعية في المجتمع . فالبورجوازية تملك جميع وسائل الانتاج ولهذا تحصل على حصة الاسد من الخيرات والقيم المادية التي ينتجها المجتمع . وهي تسيطر سياسيا وتستفيد من جميع خيرات الثقافة . اما البروليتاريا فلا تملك وسائل الانتاج ، فانها مضطرة لان تعمل للبورجوازية . ورغم انها تنتج جميع الخيرات المادية ، فانها لا تحصل الا على جزء ضئيل منها . وهي في الواقع بلا حقوق سياسية ومحرومة من امكانية الاستفادة من منجزات العلم والثقافة .

ان مصالح البورجوازية والبروليتاريا متعارضة جذريا: فالبورجوازية تريد تخليف سيطرتها ، اما البروليتاريا فتريد ان تتحرر من الاستغلال . ونتيجة هذا يقوم بين الاثنين نضال طبقي حاد ينتهي حتما بالثورة الاشتراكية . وبالتالي فان الصراع الطبقي والثورة الاشتراكية هما شكل خاص لحل التناقضات التناحرية في الراسمالية .

ان ايديولوجيي البورجوازية ينكرون وجود تناحرات اجتماعية في المجتمع الراسمالي المعاصر . ويقولون ان الدولة البورجوازية هي « دولة الرخاء الشامل » ويزعمون بأن المجتمع الراسمالي المعاصر لا يحوى طبقات متعادية او صراعا طبقيا . وهذه الاختلافات ضرورية لهم لتخدير يقظة الطبقة العاملة واضعاف مواقعها في النضال ضد البورجوازية .

وفي الواقع فان التناقضات التناحرية في الراسمالية المعاصرة ليس لم تختف فحسب وانما تتفاقم باستمرار . ولقد وجدت ولسوف توجد طالما توجد الراسمالية وستختفي فقط عند انتصار الاشتراكية .

اما **التناقضات غير التناحرية** فهي تلك التناقضات التي توجد بين الطبقات والفئات الاجتماعية التي تتطابق مصالحها الرئيسية ، الاساسية . وهذه التناقضات لا تحل عن طريق الثورة الاجتماعية ، وانما يجري التغلب عليها تدريجيا . ومثال هذه التناقضات بين الطبقة العاملة والفلاحين . ففي الراسمالية تستغل المدينة القرية ، وان الفلاح يوجه حقده تجاه المدينة والى حد ما على العامل ايضا . ان الفلاح له ملكية (ارض ، حصان ، معدات وغيرها) وانه ذو مصلحة بالحفاظ عليها . اما العامل فليست له اية ملكية . ان مصالح العمال والفلاحين تصطدم ايضا في السوق ، حيث الفلاح يسعى لكي يبيع منتجات عمله بسعر اعلى . وكل هذا يسبب التناقضات المحدودة بين الطبقة العاملة والفلاحين في الراسمالية .

ولكن رغم ان مصالح العمال والفلاحين متناقضة في التفاصيل فانها متطابقة كليا في الامر الاساسي ، الرئيسي . فهاتان الطبقتان مستغلتان . ولذا فانهما تسعيان للقضاء على الاستغلال . وفي هذه المسالة الاساسية

نجد ان مصالحهما الاساسية هي نفس المصالح . ان وحدة المصالح الاساسية هذه تخلق الاساس الموضوعي لتحالف العمال والكلاحين في النضال ضد النظام الراسمالي .

ان الحزب الشيوعي في بلادنا اذ اخذ بعين الاعتبار وحدة المصالح الحيوية الهامة للعمال والفلاحين ، وحدهما في قوة اجتماعية جبارة قلبت الراسمالية . ومن ثم ، وفي مجرى النضال لبناء الاشتراكية ، جرى التغلب على التناقضات بين الطبقة العاملة والفلاحين ، الموروثة من الراسمالية ، وان وحدة العمال والفلاحين في النضال من اجل الاشتراكية والشيوعية اصبحت امتن واقوى ولا تستطيع اية قوة تحطيمها .

ان التناقضات في المجتمع الاشتراكي هي تناقضات غير تناحرية ايضا . وسنتحدث عن هذه التناقضات بتفصيل اكبر فيما بعد .

التناقضات الاساسية وغير الاساسية

ان الاشياء والظواهر من أبسطها حتى اكثرها تعقيدا لا تحوى تناقضا واحدا وانما عدة تناقضات في آن واحد . ولكي نبحث في هذه الكثرة من التناقضات ونتعرف عليها بشكل جيد ، من الضروري ان نكشف التناقض الاساسي الرئيسي من بينها .

ان التناقض الاساسي يلعب دورا حاسما قائدا في التطور والتأثير على جميع التناقضات الاخرى .

ان التناقض الاساسي الحاسم في العملية الكيميائية هو التناقض بين اتحاد الذرات وتحللها ، وفي العملية البيولوجية الطابع المتناقض لاستحالة لغذاء وهكذا .

ويكتسب كشف التناقض الاساسي في الحياة الاجتماعية التي تمتاز بتعقد شديد وبتعدد جوانبها اهمية خاصة . ويساعد كشف هذا التناقض الرئيسي الطبقات التقدمية والاحزاب الماركسية على وضع سياسة صحيحة وتنظيم النشاط العملي بشكل مثمر .

لناخذ المجتمع الحالي ، ففيه تناقضات كثيرة . ففي كل بلد راسمالي يوجد تناقض تناحري بين الطابع الاجتماعي لعملية الانتاج والشكل الخاص للملكية ، بين العمل والراسمال . وتوجد تناقضات بين الاقطار الراسمالية منفردة وبين مجموعاتها واحلافها .. الخ .

فما هو التناقض الرئيسي الحاسم بين جملة التناقضات في المجتمع المعاصر ؟

ان التناقض الاساسي ، الحاسم في المجتمع المعاصر ككل ، هو التناقض

بين **قوى الاشتراكية** التي يجسدها النظام الاشتراكي العالمي ، **وقوى الاستعمار والرجعية** . ان هذا التناقض اصبح اساس تطور البشرية في العصر الراهن. انه يجسد خطين واتجاهين تاريخيين . الاول يمثله النظام الاشتراكي العالمي وهو خط التقدم والسلم والبناء والاخر يمثله الاستعمار وهو خط الرجعية والاضطهاد والحروب .

ان التناقض بين الاشتراكية والاستعمار يؤثر تأثيرا هائلا على مجرى التاريخ العالمي كله . ويؤثر على نضال الطبقات في البلدان الراسمالية نفسها وعلى النضال في المستعمرات والبلدان التابعة ضد مضطهديها وعلى التناقضات بين الدول الاستعمارية نفسها . ان وجود النظام الاشتراكي العالمي لا يدع مجالا للاستعماريين لاشعال نار حرب عالمية جديدة . ولا يسمح للاستعماريين ان يدوسوا حقوق سيادة الشعوب دون عقاب . انه يبعث في قلوب الشغيلة في البلدان الراسمالية الثقة بعدالة قضيتهم ويمنحهم العزم في نضالهم ضد الاستغلال . وبفضل نجاحات النظام الاشتراكي في التطور الاقتصادي والسياسي يتنامى تأثيره باستمرار في المجال العالمي . ولهذا فان الاحزاب الماركسية اذ تنظم نشاطها العملي تأخذ بعين الاعتبار تأثير هذا التناقض الهام جدا على عصرنا ، وهو تنامي قوى الاشتراكية وضعف قوى الاستعمار .

ان التناقض الاساسي في عصرنا الراهن ، التناقض بين الاشتراكية والاستعمار لا يلغي التناقضات العميقة التي تمزق العالم الراسمالي . وكما بين برنامج الحزب الشيوعي في الاتحاد السوفياتي « **ان النظام الاستعماري العالمي تمزقه تناقضات عميقة وحادة** . ان التناحر بين العمل والراسمال ، والتناقضات بين الشعب والاحتكارات ، والعسكرية المتنامية ، وانهيار نظام الحكم الاستعماري ، والتناقضات بين الدول الاستعمارية ، والنزاعات والتناقضات بين الدول الوطنية الفتية والدول المستعمرة القديمة ، والشيء الرئيسي ، نمو الاشتراكية العاصف ، كل هذا يقوض الاستعمار ويحطمه ويؤدي الى اضعافه وهلاكه » ــ الطبعة العربية ــ صفحة ٤٣ ــ .

ان مهمة الاحزاب الماركسية هي ان تستخدم بمهارة جميع تناقضات الراسمالية وان تناضل بنجاح من اجل السلم والاشتراكية والتقدم الاجتماعي .

لا توجد بين التناقضات الداخلية والخارجية والتناحرية وغير التناحرية والاساسية وغير الاساسية حدود مطلقة . انها في الواقع تلتحم فيما بينها ، وتنتقل من واحدة الى اخرى ، وتلعب دورا مختلفا في التطور . ولذا فاننا يجب ان نواجه هذه التناقضات بشكل حسي ملموس وان ننسجم مع الظروف

التي تظهر فيها والدور الذي تلعبه .

ان كامل نشاط الحزب الشيوعي في الاتحاد السوفييتي يتميز بمهارة فائقة في الانطلاق بشكل حسيّ ، آخذا بنظر الاعتبار الظروف التاريخية بشأن تناقضات التطور الاجتماعي ، مشخصا الرئيسية منها لكي يوجه القوى والوسائل الاساسية من اجل حل هذه التناقضات . ففي السنوات الاولى للسلطة السوفييتية ظهر بحدة التناقض بين السلطة السياسية التقدمية جدا التي اقيمت في بلادنــا من جهة ، وبين الاقتصاد المتأخر الذي ورثناه عن روسيا القيصرية من جهة اخرى . وفي سنوات النضال من اجل تصنيع بلادنا حل هذا التناقض . ومع نجاحات التصنيع الاشتراكي فان التناقض بين الصناعة الاشتراكية والاستثمارات الزراعية الصغيرة المتأخرة ازداد تفاقما . وقد حل هذا التناقض ايضا بنجاح بجهود الشعب والحزب عن طريق تجميع الاستثمارات الزراعية الفردية . ان حل هذه التناقضات كان له اهمية حاسمة في بناء الاشتراكية في بلادنا .

٣ . تناقضات المجتمع الاشتراكي وطرق التغلب عليها

نتيجة انتصار الإشتراكية صفيت الطبقة المستغلة ، والاسباب التي تولد استغلال الانسان للانسان ، وصفي التضاد بين المدينة والقرية ، وبين العمل الفكري واليدوي . وعلى اساس المصالح الاساسية المشتركة للعمال والفلاحين والمثقفين انبثقت وحدة الشعب السوفييتي السياسية ــ الإجتماعية والفكرية التي لا تتزعزع كما توطدت وترسخت الصداقة بين شعوب الاتحاد السوفييتي العديدة . وتتم في مجرى السير نحو الشيوعية عملية التوطيد المتواصل لهــذه الوحــدة والتقارب المتبادل واغنــاء القوميات والمجموعات الاجتماعية وتنمحي الفوارق فيما بينهــا . غير ان هــذا لا يعني انعــدام التناقضات في الاشتراكية . ان المجتمع الاشتراكي يتطور باستمرار ، وهناك حيث يوجد تطور يوجد دوما قديم وجديد ، ما يولــد وما يحتضر ، وبالتالي يوجد الصراع بينهما . كتب لينين يقول : « ان التناحر والتناقض ليسا شيئا واحدا ابدا . فالاول سيختفي والثاني سيبقى في الاشتراكية . (مجموعة مؤلفات لينين ج١١ ، ١٩٣١ ص. ٣٧٥) .

ان لينين لم يشر الى وجود التناقضات في الاشتراكية فحسب ، وانما كشف خاصيتها الهامة جدا ــ **طابعها غير التناحري** . ويمكن تفسير هــذا بعدم وجود طبقات متعادية في المجتمع الاشتراكي ، حيث توجــد الملكية الاجتماعية التي توحد الناس وتجمعهم . ان تناقضات المجتمع الاشتراكي ،

كما قال خروتشوف . هي تناقضات وصعوبات النمو ، المرتبطة بالنهوض السريع للاقتصاد الاشتراكي وبزيادة احتياجات الشعب المادية ، والثقافية ، انها تناقضات بين الجديد والقديم ، التقدمي والرجعي .

ان تناقضات المجتمع الاشتراكي يجري التغلب عليها بالجهود المشتركة لجميع الشغيلة يقودهم الحزب الشيوعي والسلطة السوفييتية . ان اكتشاف التناقضات في الوقت الملائم والتغلب عليها يضمن عن طريق سياسة الحزب الصحيحة المدعومة علميا ، وعن طريق الوحدة التي لا انفصام لها بين الحزب والشعب ، وعن طريق الدعم الكلي لاجراءات الحزب والحكومة من جانب الشعب . ولهذا فان التناقضات في الاشتراكية لا تصل درجة النزاع ولا تاخذ طابع الانقلابات الاجتماعية . وفي الوقت الذي يؤدي فيه حل التناقضات في الرأسمالية الى فناء الراسمالية فان التغلب على التناقضات في الاشتراكية يؤدي الى توطيد النظام الاشتراكي ويضمن التطور الناجح لبلادنا في طريق الشيوعية .

وتوجد في ظروف الاشتراكية تناقضات معينة تلازم الانتاج الاجتماعي، وفي المقام الاول توجد تناقضات بين القوى المنتجة وعلاقات الانتاج . وسنتحدث عن هذا بتفصيل في الفصل الحادي عشر المكرس لاسلوب الانتاج الاشتراكي .

وتظهر في مجرى تطور المجتمع الاشتراكي وتحل التناقضات بين الاقتصاد انوطني النامي المتطور باستمرار وبين الاشكال والاساليب القديمة للقيادة الاقتصادية . ذلك ان بعض هذه الاشكال والاساليب ، بعد ان تكون قد لعبت . في وقتها ، دورا ايجابيا ، فانها في الظروف الجديدة لا تتجاوب مع متطلبات الحياة ويمكن ان تصبح عقبة في طريق تطورنا . ومن هنا تأتي ضرورة استبدال الاساليب الشائخة بأخرى جديدة اكثر اتقانا وتعطي نتائج احسن . فمثلا اتخذ الحزب والحكومة عام ١٩٥٧ قرارا هاما باعادة تنظيم الادارة والصناعة والبناء : حيث استبدل نظام الوزارات المركزية واللجان الرئيسية بلجان الاقتصاد الوطني للمناطق الاقتصادية . وبهذا حل التناقض بين المستوى الذي وصلته الصناعة والبناء حيث تنتصب امامهما مهام هائلة من جهة ، وبين التنظيم القديم لقيادتهما من جهة اخرى . ان اعادة التنظيم هذه اعطت دفعا هائلا لتطور الاقتصاد الوطني في بلادنا .

ان الاغلبية الساحقة من الناس السوفييتيين يساهمون بفعالية في البناء الشيوعي . ولكن يوجد بينهم حتى الان ، افرا ديتمسكون بقوة بالقديم، انصار الطرق الشائخة في الانتاج ومعدلاته وانصار التكنيك المتأخر .. الخ. كما يوجد ايضا حملة بقايا الراسمالية . ان مصالح وتسلكات هؤلاء الناس

تتناقض ومصالح اكثرية اعضاء المجامع وتعرقل قضيتنا العظيمة . وتجري اعادة تثقيف هؤلاء الناس بجهود الشعب والحزب الشيوعي . وتتخذ تجاه الاشرار منهم الاجراءات العقابية .

ويجب ان نلاحظ بأن التناقضات بين الغالبية العظمى من اعضاء مجتمعنا والافراد الذين يحملون بقايا القديم لا تنشأ عن طابع النظام الاشتراكي ، وانما يسببها ما ورثناه عن الراسمالية وتأثيرها ، والنواقص في عملنا الايديولوجي والتربوي .. الخ. ان هذه التناقضات مؤقتة وستحل نهائيا بانتصار الشيوعية .

كيف تكشف وتحل التناقضات في الاشتراكية ؟ .

ان طريقة ووسيلة كشف التناقضات في المجتمع الاشتراكي هما **النقد والنقد الذاتي** . ولكن النقد والنقد الذاتي اذ يكشفان التناقضات ليس بمقدورهما حلها بذاتهما . ومن اجل التغلب على هذه التناقضات لا بد من جهود عملية من قبل الشعب كله ، وعمل تنظيمي وتربوي حاذق من جانب الحزب والدولة . ان تطوير الانتاج واتقانه المستمرين ، والمساهمة الفعالة من قبل الناس في البناء الشيوعي والعمل الصبور المتعدد الجوانب من جانب الحزب لتربية الانسان السوفييتي – هذه هي الطرق الاساسية لحل التناقضات في المجتمع الاشتراكي .

وما عدا التناقضات الداخلية للدولة الاشتراكية والمعسكر الاشتراكي ككل يوجد في الظروف الراهنة تناقض تناحري مع النظام الراسمالي العالمي . ورغم ان هذا التناقض خارجي الا انه يؤثر تأثيرا ملحوظا على تطور بلادنا وينبغي ان لا نستصغره ابدا . ان الحزب الشيوعي والحكومة السوفييتية يبذلان جهودا كبيرة من اجل حل هذا التناقض بطريقة سلمية على اساس سياسة التعايش السلمي . ذلك ان حربا عالمية نووية ستؤدي حتما الى ضحايا بشرية وتخريبات هائلة وتأخير جدي للتطور التقدمي للبشرية . ولذا فان النضال من اجل درء الحرب العالمية ومن اجل السلم في العالم اجمع هو مهمة فائقة الاهمية بالنسبة لجميع الناس الشرفاء في العالم . ان النضال من اجل السلم شرط ضروري للتقدم الاجتماعي وللنجاح في بناء الاشتراكية والشيوعية .

قانون تحول التغيرات الكمية الى كيفية

ان قانون تحول التغيرات الكمية الى تغيرات كيفية يدلنا على **الكيفية** و **الطريقة** التي تتم بها عملية التطور ، تركيب هذه العملية .

ولا بد لفهم جوهر هذا القانون من شرح ما نعنيه بالكيفية والكمية .

١ . مفهوما الكيفية والكمية

تحيط بناء اشيـاء وظواهر كثيرة ومختلفة ، وهي في حركة وتغير مستمر . ومع هذا فاننا لا نخلط هذه الاشياء بعضها ببعض وانما نفرق بينها ونميزها ، ولا يمكن ان تندمج بالنسبة لنا في كتلة رمادية غير مميزة بل ان كلا منها يختلف عن الاخر بالخصائص والصفات التي تلازمه وتميزه .

لنأخذ معدن « الذهب » مثلا فسنرى ان له لونـا اصفر مميز ومرونة وليونة معينتين وكثافة ودرجة حرارة للذوبان والغليان . ان الذهب لا يذوب في الحوامض الرئيسية ولا في سلسلة الحوامض كلها . ومن ناحية كيميائية فان فعاليته قليلة ولا يتأكسد في الهواء . ان مجموع ما ذكرنا وعن الذهب مأخوذاً ككل هو ما يميز الذهب عن المعادن الاخرى .

ان كل ما يجعل شيئا ما هو ذلـك الشيء وليس شيئا آخر ، ومـا يميزه عن الاشياء الاخرى التي لا حصر لها يمثل كيفيته (نوعيته) .

ان جميع الاشياء والظواهر لها كيفية . وهذا بالضبط ما يعطينا امكانية تحديدها والتفريق فيما بينها . فبماذا يتميز الكائن الحي عن غير الحي ؟ انه يتميز بالقدرة على الدخول في عملية تبادل مع الوسط المحيط ، والرد على المؤثرات الخارجية بشكل هادف وبالقدرة على التكاثر . هـذه وغيرها من الصفات هي بالضبط كيفية الكائن الحي .

ان الظواهر الاجتماعية تختلف كيفيا ايضا . فان ما يميز الراسمالية عن الاقطاعية مثلا هو سيطرة الانتاج البضاعي ووجود الملكية الراسمـالية والعمل المأجور وملامح اخرى .

ان الكيفية تظهر في الخصائص . والخاصية هي ما يميز الشيء بالنسبة لجانب من جوانبه ، في حين ان الكيفية تعطي صورة عن الشيء ككل . فاللون الاصفر والمرونة والليونـة وغيرها من الصفات فـي الذهب مأخوذة على حدة هي خصائصه ولكن هذه الخصائص بمجموعها تمثل كيفيته. وبالاضافة الى ان لكل شيء كيفية معينة فان له **كمية** معينة ايضا . وخلافا للكيفية فان الكمية تعني الشيء من ناحية **درجة** التطور او **كثافة** الخصائص الملازمة له سواء مقداره او حجمه او غيرها . ان الكمية الاعتيادية تقـاس **بالعدد** . ان التعبير العددي له مقاييس كوزن الاشياء ، وحدة الالوان الملازمة لها ، والاصوات التي تنطلق منها و .. الخ .

وان الطابع الكمي يوجد ايضا في الظواهر الاجتماعية . اذ ان كل نظام

اجتماعي ـ اقتصادي له مستوى معين ودرجة من التطور في الانتاج . وان الدولة تتمتع بقوى انتاجية بشرية معينة وموارد للطاقة ومواد اولية .

ان الكيفية والكمية موحدتان ، ذلك انهما تمثلان جانبين لشيء واحد . غير انه يوجد بينهما فوارق هامة . فتغير الكيفية يؤدي الى تغير الشيء نفسه والى تحوله الى شيء آخر في حين ان التغير في الكمية في حدود معينة لا يؤدي الى تغيير ملحوظ في الشيء . اذا ما ازيلت الملكية الراسمالية ـ اي اهم سمة مميزة للراسمالية ـ وبدلت بملكية اشتراكية فان الراسمالية ستكون قد استبدلت بنظام جديد يختلف عنها من ناحية كيفية ـ هو الاشتراكية .

ولكن اذا كانت الملكية الراسمالية قد تضخمت وتمركزت وتركزت في ايدي مجموعة قليلة من الاحتكارات او في ايدي الدولة البورجوازية ، كما هو الحال في العالم الراسمالي المعاصر ، فالراسمالية تبقى راسمالية .

ان وحدة الكمية والكيفية تسمى « معيار » والمعيار هو الحد او الاطار الذي يظل فيه الشيء على حاله من الناحية الكيفية . ان « خرق » المعيار الذي هو تآلف محدد بين جانبي الكمية والكيفية يؤدي الى تبدل الشيء وتحوله الى شيء آخر . فمثلا معيار الزئبق في حالة السيولة هو درجتي الحرارة ٣٩ درجة تحت الصفر و ٣٥٧ درجة فوق الصفر . فالزئبق يتصلب في درجة حرارة ٣٩ تحت الصفر ويبدأ بالتبخر في درجة حرارة ٣٥٧ ويتحول الى الحالة الغازية .

ان التحديد الكمي والكيفي يلازم الظواهر الاجتماعية ايضا . فالقاعدة المادية والتكنيكية للشيوعية مثلا تتميز ليس فقط بنمو كمي هائل للانتاج ، وانما بخصائص كيفية ايضا . بالتزويد التام الشامل للانتاج بالطاقة، وبالمكننة المجموعية المتكاملة للعمليات الانتاجية وباستخدام مصادر جديدة للطاقة والمواد الاولية وبالوحدة العضوية بين العلم والانتاج و .. الخ .

ومن الاهمية بمكان ان تؤخذ وحدة الكمية والكيفية في الظاهرة بعين الاعتبار سواء في المعرفة او التطبيق العلمي .

وينبغي أن يجري حساب دقيق للدلائل الكمية والكيفية عند تخطيط الانتاج وتنظيمه وفي المباراة الاشتراكية و .. الخ .

ان الحزب الشيوعي في الاتحاد السوفييتي عندما يعبىء الشعب السوفييتي لانجاز اعظم مهام بناء الشيوعية ، لخلق القاعدة المادية التكنيكية للشيوعية في بلادنا يهتم بجميع فروع الاقتصاد الوطني لا لكي تحقق دلائل كمية عالية فحسب ، وانما ان تحسن هذه الفروع عملها باستمرار من الناحية الكيفية ايضا .

٢ . تحول التغيرات الكمية الى تغيرات كيفية

قلنا ان التغيرات الكمية داخل حدود معينة لا تؤدي الى تغيرات الحالة الكيفية للشيء . ولكن عند الخروج عن هذه الحدود و « خرق » المعيار ــ فان التغيرات الكمية غير الملحوظة ستؤدي حتما الى تحولات كيفية جذرية . وستتحول الكمية الى كيفية .

كتب ماركس يقول : « ان التبدلات الكمية المحضة تتحول الى تغيرات كيفية عند حدود معينة ، في عملية التطور » (ماركس . رأس المال . ج١ ، ص ٣٣٠) .

ان تحول التغيرات الكمية الى كيفية هو **قانون عام** لتطور العالم المادي .

ولكي نكشف الطابع الشامل لهذا القانون سنبين تأثيره في مختلف نواحي الواقع . ان الفيزياء الحديثة برهنت بأن الاجزاء « البسيطة » قادرة على ان تتحول من واحدة الى اخرى تختلف عنها كيفيا . وان عملية التحول هذه مرتبطة دائما بتراكمات كمية معلومة ، وانها تسير فقط عندما تمتلك هذه الاجزاء مستوى عاليا ، معينا ، كامنا من الطاقة .

ان قانون تحول التغيرات الكمية الى كيفية يظهر بشكل واسع في التحولات ، التي لا حصر لها ، للاشياء من حالة فيزيائية الى اخرى (من الصلابة الى السيولة الى الغازية ... الخ) . فرفع درجة حرارة الماء الى اكثر من مئة ــ ١٠٠ درجة مثلا يؤدي الى تحوله الى كيفية اخرى وهي البخار . ان البخار له خصائص تختلف عن خصائص الماء . فليس له القدرة مثلا على اذابة الاملاح والسكر ، في حين ان هذه المواد تذوب في الماء ، كما يظهر هذا القانون بوضوح كبير في العمليات الكيميائية .

ان الجدول الدوري لعناصر الكيميائية الذي وضعه « منديليف » يتعلق بكمية الشحنات الايجابية في نواة ذراتها . ففي حدود معينة لا تسبب التغيرات الكمية في شحنة النواة تغيرات كيفية في العنصر الكيماوي . ولكن عند الوصول الى مستوى معين فان هذه التغيرات الكمية تؤدي الى تكوين عنصر جديد .

وهكذا فعلا يتحول الاورانيوم الى عنصر يختلف عنه نوعيا ، هو الرصاص لدى تحلله شعاعيا وفقدان الوزن الذري في شحنة نواته .

ان الكيمياء عموما هي علم التحولات الكيفية للاشياء الناتجة عن تغيرات كمية . فجزيء الاوكسجين مثلا يحوي ذرتين ، ولكن اذا ما اضفنا الى هذا الجزيء ذرة اخرى من الاوكسجين فان الجزيء سيتحول الى جسم كيماوي من نوع جديد هو الاوزون .

ويحدث الانتقال من التغيرات الكمية الى كيفية في العالم العضوي ايضا رغم ان ادراك شروط التغيرات الكيفية الناشئة عن تراكمات كمية اصعب بشكل ملحوظ .

ان العالم السوفييتي الاكاديمي « ت. د. ليسنكو » بين بأن النباتات تمر في تطورها بمرحلتين مختلفتين نوعيا ـ الياروفيزاتسيا ـ (وهي اعداد البذور بشكل خاص قبل زرعها مما يسرع عملية الانبات والنضج الامر الذي بواسطته يمكن جعل زراعة شتوية معينة ، زراعة ربيعية ، ـ عن القاموس ـ المترجم) والمرحلة الضوئية التي يتم فيها الانتقال من مرحلة الى اخرى يسبب التبدلات في كمية الحرارة والرطوبة والضوء في الظروف الخارجية .

وتتم عملية التحول من التغيرات الكمية الى كيفية في التطور الاجتماعي. فالانتقال من الراسمالية الى الاشتراكية الذي يتم عن طريق الثورة الاشتراكية له مقدمات كمية محددة ـ نمو القوى المنتجة في الراسمالية ، اشتداد الطابع الاجتماعي للانتاج ، وازدياد عدد البروليتاريا الثورية .. الخ.

ويحدث في الواقع الموضوعي ان يوجد ، ليس فقط تحول للتغيرات الكمية الى تغيرات كيفية بل العكس ايضا ـ اي تنامي الكمية تحت تأثير التغيرات الكيفية . فمن نتائج التبدل الكيفي الاساسي للنظام الاجتماعي ـ استبدال الراسمالية بالاشتراكية ـ حددت تبدلات كمية ملحوظة ـ تنامي حجم الانتاج الصناعي والزراعي ، تسارع وتائر التطور الاقتصادي والثقافي ، ازدياد الدخل الوطني واجور الشغيلة .. الخ .

وبالتالي فان التغيرات الكمية والكيفية مترابطة فيما بينها وتسبب احداها الاخرى .

وحدة الاستمرار والانقطاع (الطفرة) في التطور

ان التغيرات الكمية ذات طابع بطيء نسبيا وغير منقطع ، في حين ان التغيرات الكيفية ذات طابع فجائي ، طفروي . وبالتالي فان التطور يظهر كوحدة بين الشكلين (المرحلتين) المختلفتين ولكن المترابطين في نفس الوقت ـ الاستمرار والانقطاع (الطفرة) (١)

ان **الاستمرار** في التطور هو مرحلة التراكمات الكمية البطيئة غير

---

(١) ان الاستمرار والانقطاع بلازمان ليس عملية التطور فحسب بل يوجدان في حالة المادة . وكما نعرف فان المادة لها خصائص (مستمرة) و (منقطعة) .

الملحوظة التي لا تمس كيفية الشيء ولكنها تجري فيها تغيرات كمية ذات اهمية . ان الاستمرار يمثل عملية زيادة او نقصان ما هو موجود .

اما **الانقطاع** او الطفرة فهو مرحلةالتغيرات الجذرية **الكيفية** في الشيء، واللحظة او الفترة التي يتحول فيها من كيفية قديمة الى كيفية جديدةوخلافا للتغيرات الكمية البطيئة الخفيفة فان الطفرة تمثل الى هذه الدرجة او تلك تغيرات ظاهرة وسريعة نسبية في كيفية الشيء . وان هذه التغيراتتجري بسرعة نسبيا حتى عندما يكون للتحولات الكيفية شكل انتقال تدريجي.

ان تكون احد الجزئيات « الاولية » من اخريات ، وتبدل حالة الشيء الفيزيائية وظهور عنصر كيماوي جديد ، او نوع لم يوجد سابقا من النبات والحيوان ، او نظام اجتماعي جديد .. ان كل هذا عبارة عن طفرات في تطور العالم المادي . وان هذه التغيرات كلها انما هي نتيجة لتراكم كميات محدودة .

وللطفرات اهمية كبرى نظرا لان بنتيجتها يباد القديم ويظهر الجديد .

وفي تطور المجتمع تحل الطفرة اهمية كبيرة خاصة ؛ حيث تأخذ طابع ثورات اجتماعية تصفي النظام القديم وتقيم نظاما اجتماعيا جديدا . وبهذا تزيل العقبات التي تعترض طريق التقدم الاجتماعي .

ولما كان التطور يمثل دائما وحدة بين التغيرات الكمية (المستمرة) والكيفية (الطفراوية) ، فمن الضروري ان نأخذ بنظر الاعتبار مرحلتي التطور هاتين سواء في التطبيق او في المعرفة ، اذ ان اهمال اي منهما يؤدي الى تشويه عملية التطور والى الميتافيزيقية .

ان اشد ما يميز الميتافيزيقيين هو انكار التغيرات الكيفية وجعلهم التطور عبارة عن تراكمات كمية غير ذات اهمية . وكمثال على فهم التطور بهذه الصورة في البيولوجيا البريفورميزم التي يقول ممثلوها بأن جنين الجسم العضوي متطور تماما ، كالجسم العضوي المتكامل سوى انه بحجم صغير جدا ، ميكروسكوبي . وا نتطور الجسم العضوي بالنسبة لهم انما هو نمو بسيط وتنامي حجم الجنين . غير انه في الواقع تجري على الجنين في تطوره تغيرات كيفية عميقة .

ومن مواقف ميتافيزيقية متشابهة يحاول الايديولوجيون البورجوازيون ان يفسروا التطور الاجتماعي . وذلك بأن يفهموه باعتباره استمرارا بسيطا ، دون طفرات ، ودون انقلابات ثورية وبهذا ينكرون ضرورة الثورة الاشتراكية ويسعون الى تحلية النظام الراسمالي .

وان الانكار الميتافيزيقي للطفرات في التطور الاجتماعي هو خاصة للميتافيزيقية ، فعلى غرار الايديولوجيين البورجوازيين ينكر التحريفيون

ضرورة التحولات الكيفية في المجتمع . ويعارضون النظرية الماركسية اللينينية عن الثورة الاشتراكية بفكرة التحول التدريجي ، « وتنامي » الرأسمالية الى اشتراكية . وبهذا يحرفون الطبقة العاملة عن النضال الثوري ، الذي يمثل الطريق الوحيد المؤدي الى التحولات الاشتراكية .

كما انه من الخطأ ايضا اهمال التغيرات الكمية واعتبار التطور طفرات فقط ، وانقطاع التدرج ، كما فعل مثلا العالم الفرنسي « كيوفييه » في القرن التاسع عشر وحسب رايه انه قد حدثت على الارض بعض الكوارث الهائلة الواحدة بعد الاخرى ، وبنتيجتها استبدلت الانواع القديمة من النباتات والحيوانات بأخرى جديدة .

وبهذا انكر كيوفييه كل علاقة بين الانواع التي تظهر والانواع التي تزول. ان أنكار التغيرات الكمية يخدم كدعم نظري للتيار البورجوازي الصغير المعادي للماركسية ، وهو الفوضوية . ان الفوضويين ينظرون الى العمل الصبور لتوحيد القوى وتنظيم الجماهير وتحضيرها بالتدريج للاعمال الثورية . ان المغامرة والتآمر هو تكتيك الفوضويين الذي يلحق الاضرار الجدية بالحركة العمالية .

ان الديالكتيك الماركسي يتطلب ان نأخذ بعين الاعتبار وبشكل حاذق الاشكال المستمرة (غير المنقطعة) والطفروية للتطور . ومن المهم بشكل خاص ان نهتم بوحدة هذين الشكلين في التطور الاجتماعي . ذلك ان الطفرة ، الثورة . لها اهمية حاسمة في تطور المجتمع وان الانتقال من الرأسمالية الى الاشتراكية يمكن ان يتم ليس عن طريق التغيرات الكمية البطيئة وليس عن طريق الاصلاحات ، وانما فقط عن طريق التحولات الكيفية للنظام الرأسمالي نتيجة الثورة الاشتراكية .

ان الحزب الشيوعي في بلادنا هو حزب ثوري دائما ، والدليل على هذا كامل تاريخه البطولي فمنذ الايام الاولى لوجوده اتخذ بحزم سياسة اعادة بناء المجتمع بشكل ثوري وكان دائما يطبقها بابداع . فقد ضمن ابادة الرأسمالية وانتصار النظام الاشتراكي كيفيا ، واليوم يرأس نضال شعبنا من اجل انتصار الشيوعية .

غير ان الثورة غير ممكنة دون تحضير سابق ، ولهذا فان الحزب حضر بعناية التحولات الثورية ، رص القوى وخلق المقدمات الضرورية للانقلاب الثوري الحاسم . وان المثال الساطع على هذا هو تحضير ثورة اكتوبر الاشتراكية العظمى والقيام بها .

ان حزبنا استطاع في ظروف القيصرية الصعبة للغاية ان ينظم العمال وان يصلبهم فكريا وان يجمع القوى وان يكسب نفوذا بين فئات الشغيلة

الواسعة . وعندما اوجدت المقدمات الضرورية للنضال الثوري والنشاط الثوري ايضا ، قاد الحزب بشجاعة الطبقة العاملة وحلفاءها في طريق اعادة بناء المجتمع ثوريا .

وهكذا ، **ففي جميع الاشياء والظواهر تتلازم الكمية والكيفية في حدود معينة مضبوطة . ان الكمية والكيفية مترابطتان ، وفي عملية التطور تتحول التغيرات الكمية غير الملحوظة التدريجية الى تغيرات جذرية ، كيفية ، وان هذا التحول يتحقق بشكل الطفرة .**

هذا هو جوهر القانون الدياليكتيكي عن تحول التغيرات الكمية الى كيفية .

ان الطفرة كما راينا تمثل شكلا عاما لازما لتحول التغيرات الكمية الى تغيرات كيفية ولكن لما كان يوجد في العلم اشياء وظواهر مختلفة جدا **فان** الطفرات هي بدورها متنوعة ، لنبحث بتفصيل تنوع الطفرات .

٣ ـ تنوع اشكال الانتقال من الكيفية القديمة الى الكيفية الجديدة

ان السمة الاساسية لكل طفرة هي **الانعطاف الجذري في التطور ، نشوء** كيفية جديدة . ولكن هذا الانعطاف وهذا الانتقال من الكيفية القديمة **الى** الجديدة لا يتم بصورة واحدة في الاشياء المختلفة ، بل يأخذ اشكالا مختلفة. ان شكل الطفرة بين **كيف وباية طريقة** يتم الانتقال من القديم الى الجديد ـ بسرعة ، وككل ومرة واحدة ام تدريجيا وعلى اجزاء . فبعض الطفرات بشكل حاد وسريع ، وفيها تنقل الكيفية القديمة الى الكيفية الجديدة حالا ، وككل ، وتماما . .

والطفرات الاخرى تتم بشكل ابطأ وليست بمثل هذه الحدة . في هذه الحالة تنتقل الكيفية القديمة الى الكيفية الجديدة ليس مرة واحدة ، وليس ككل ، وانما على اجزاء ، فتضمحل **تدريجيا** ، عناصر القديم وتستبدل تدريجيا ايضا بعناصر الكيفية الجديدة . ان الطفرة من هذا القبيل كتبدل **كيفي تدريجي يجب ان لا تخلط** بالتراكم **الكمي** التدريجي .

ان هذه الطفرة مع كل تدريجيتها تمثل تغييرا اكثر سرعة ووضوحا من اكثر التغيرات الكمية حدة . وفي التغير الكمي التدريجي لا يمس جوهر وطبيعة الشيء ، في حين ان اي طفرة كيفية ، ويضمن هذه الطفرة التدريجية تظل باستمرار انعطافا حاسما في التطور يعيد تشكيل الشيء ، في حين ان يحوله الى شيء اخر جديد كيفيا .

بأي شيء في الجوهر ، يتعلق شكل الطفرة ؟
انه قبل كل شيء يتعلق **بطابع** الظاهرة المتطورة . ان كل ظاهرة تنتقل الى ظاهرة اخرى جديدة بطريقتها الخاصة .. فتحول الجزئيات « الاولية » الى اخرى يحدث بواسطة انفجار ، ففي اللحظة التي يصطدم فيها الالكترون والبوزيترون في درجة عالية من الطاقة بما فيه الكفاية ، يحدث انفجار قصير جدا يشهد على تحول الجزئيات الاصلية الى جزئيات اخـرى (فوتونات) وكذلك يحدث بسرعة تحول العناصر الكيماوية من عنصر الى اخر ، عند انقاص او زيادة كمية شحنات نواة الذرة .
وللطفرات في الطبيعة العضويـة طابع تدريجي اعتيادي . ان ظهور انواع جديدة هنا يتم تبعا للوسط الخارجي المحيط بها . والوسط الذي يحيط بالعضويات ، يتبدل تدريجيا وبهذا تفسر الى درجة كبيرة حقيقة ان الانواع الجديدة من الحيوانات والنباتات لا تظهر فجأة وانما في مجرى تطور مستمر ، حيث تكسب فيه العضويات وتعطي عن طريق الوراثة ، الخصائص الجديدة ـ بشكل تدريجي ـ هذه الخصائص التي تتجاوب مع الظروف المتبدلـة للوسط . وتفقد العضويات خصائصها القديمة التي لا تتجـاوب مع هذه الظروف الجديدة .
وكما نعرف فان الانسان ظهر في مجرى تطور مستمر . ولكن رغم الطابع التدريجي لتحول القرد الشبيه بالانسان الى انسان ، فان هذا التحول نفسه كان اكبر طفرة ، ونقطة انعطاف في تطور عالم الحيوان . وان هـذا التحول وضع بداية وجود وتطور المجتمع البشري .
ان شكل الطفرة يتعلق ايضا بالظروف التي يجري فيها تطور الظاهرة ففي التحلل الاشعاعي الراديومي مثلا ، تتم عملية تحويل نوى بعض العناصر الكيماوية الى نوى عناصر اخرى اخف ، هذه العملية التي تلازم انتقال الطاقة الذرية الى حرارة . وان هذا الانتقال يمكن ان ياخذ ـ تبعا للظروف ـ شكـل انفجار (في القنبلة الذرية) او شكل تحول تدريجي للطاقة الذرية الى حرارة (كما في مولدات المراكز الكهربائية الذرية) .
وفي التطور الاجتماعي فان الانتقال من الكيفية القديمة الى الجديدة يمكن ان يتم سواء على شكل تغيرات سريعة وقوية او على شكل تدريجي .
فلقد كانت الثورة الاكتوبرية الاشتراكية العظمى طفرة سريعة وقوية ، واكبر انعطاف شهده التاريخ . هذا الانعطاف الذي وضع بداية عصر جديـد في تطور البشرية ، عصر الاشتراكية والشيوعية . وبنتيجة هذه الثـورة استطاعت البروليتاريا الروسية بضربة واحدة عن طريق الانتفاضة المسلحة ، ان تصفي سيطرة البورجوازية وتقيم سلطتها الخاصة .

وهناك شكل آخرْ للطفرة تمثله مثلا الثورة الثقافية في بلادنا . فان هذه ايضا طفرة انتقال ثوري نحو ثقافة اشتراكية جديدة ، ولكنها لم تتحقق مرة واحدة ، ولكن خطوة فخطوة ، بموازاة نجاحات البناء الاشتراكي . ان المرحلة الختامية للثورة الثقافية العظيمة ستكون التطور الثقافي خلال مرحلة بنـــاء المجتمع الشيوعي على نطاق واسع .

ان اخذ الخصائص الخاصة للطفرات بعين الاعتبار له اهمية عظيمة في النشاط التطبيقي ، واذا لـم توضح هذه الخصائص لا يمكن ان تكتشف الطرق الصحيحة للانتقال من القديم الى الجديد .

ان مسألة اشكال الانتقال من الرأسمالية الىالاشتراكية في البلـــدان المختلفة تكتسب اليوم اهمية بالغة استثنائية . ان الانتقال الى الاشتراكيـــة في كل قطر يمكن ان يتم فقط عن طريق الثورة الاشتراكية . وبدون اكبر طفرة كيفية ، دون ثورة ، لا يمكن ان يتم الانتقال الى الاشتراكية . ولكن ما هو الطريق الملموس الذي ستسير فيه الثورة في كل قطر على حدة ــ ان هذا يتعلق بمستوى تطوره ، وبقوة تنظيم الطبقةالعاملة وحلفائها وبتقاليد وعادات شعب ذلك القطر ، وبقوة البورجوازية ودرجة مقاومتها ، وبجملة من العوامل الداخلية والخارجية الاخرى .

ان تجربة بناء الاشتراكية في الاتحاد السوفياتي وسائر البلـــدان الاشتراكية دلت بان تطور الثورة الاشتراكية في البلدان المختلفة لا يمكن ان يكون بشكل متشابه (وحيد) وفي المستقبل ستكون الاشكال متنوعة اكثر فأكثر .

٤ ــ حول طابع التغيرات الكيفية في الانتقال من الاشتراكية الى الشيوعية

ان المجتمع الشيوعي يجتاز في تطوره طورين ــ الاشتراكيةوالشيوعية.

ان الاشتراكية والشيوعية مرحلتان لتشكيلة اقتصادية اجتماعيـــة واحدة . تختلفان فيما بينهما في درجة تطور الاقتصاد ونضج العلاقـــات الاجتماعية . فللمرحلتين اساس اقتصادي مشترك هو الملكية الاجتماعية على وسائل الانتاج ، وما ينشأ عنها من علاقـــات صداقة ومساعدة متبادلة بين الناس ، وايديولوجية شيوعية واحدة . وفيالاشتراكية وكذلـــك في الشيوعية ينشط قانون البرمجة والتطور المتناسق للاقتصاد الوطني .وهدف الانتاج الاجتماعي هو التأمين الاكمل لحاجات الشغيلة المادية ، كما ان وسيلة تحقيق هذا الهدف هي التطوير المتواصل وتحسين الانتاج على قاعدة ارقى

تكنيك . كل هذا في الاشتراكية والشيوعية على حد سواء .

غير انه توجد في نفس الوقت فوارق كيفية بين الاشتراكية والشيوعية. فالشيوعية هي مرحلة في النظام الشيوعي ، حيث ستصل المكننة العالية الى مستوى عال جدا من التطور . ان مستوى الانتاج سيكون عاليا الى درجة تؤمن الانتقال من المبدأ الاشتراكي للتوزيع حسب العمل « من كل حسب قدرته ولكل حسب عمله » الى المبدأ الشيوعي الجديد نوعيا « من كل حسب قدرته ولكل حسب حاجته » كما سيتبدل طابع العمل بشكل بالغ الاهمية. حيث ستطور لدى جميع اعضاء المجتمع الحاجة الداخلية الى ان يعملوا طوعا وباندفاع ذاتي من اجل خير المجتمع .

ان هذه الخصائص الجوهرية للشيوعية اشير اليها من جانب « خروشوف » حيث قال في الشيوعية : ستتطور القوى المنتجة الى درجة يتم معها الوصول الى تحقيق الوفرة لجميع الاشياء الضرورية للاستهلاك . . . وان جميع الناس بصرف النظر عما يحصلون عليه من خيرات ، سوف يعطون طوعا باذلين كل قدراتهم بوعي باعتبار ان ذلك ضروري للمجتمع .

وبانتصار الشيوعية ستحدث تغيرات جديدة ليس في ميدان الاقتصاد وحسب ، ولكن في العلاقات الاجتماعية ، وحياة ووعي الناس ايضا . فستزول الفوارق الجوهرية بين المدينة والقرية ومن ثم بين شغيلة العمل الفكري والعمل اليدوي . وان جميع المواطنين سيتحولون الى شغيلة المجتمع الشيوعي .

وفي الشيوعية ستزول الدولة ، ان النظام الحكومي الاشتراكي سيتطور الى ادارة ذاتية شيوعية ، ويجري التغلب تماما على بقايا الرأسمالية في وعي الناس وسيتبدل طابع حياتهم واسلوب معيشتهم .

ورغم ان الشيوعية تختلف عن الاشتراكية فانها كقانون ، وبحكم الضرورة تنبثق من الاشتراكية المتوطدة ، وتتطور على اساس المنجزات الهائلة التي حققتها في الميدان المادي والثقافي . ومنذ الان يحوي مجتمعنا كثيرا من ملامح الشيوعية . حيث تتطور اكثر فأكثر الاشكال الشيوعية للعمل وتنظيم الانتاج ، والاشكال الاجتماعية لتأمين الحاجات المادية الثقافية للشغيلة . وان هذه الملامح ستتطور تتحسن في المستقبل .

ان عملية الانتقال من الاشتراكية الى الشيوعية تتحقق بواسطة المحافظة على منجزات الاقتصاد والثقافة الاشتراكية وتحسينها . ذلك ان هذه العملية لا تتم عن طريق انقلاب اجتماعي ، وليس بشكل طفرة فجائية ، انما بالتدرج وبشكل مستمر .

قال « خروشوف » :

« ليس من الصحيحة الاعتقاد بأن الشيوعية ستظهر فجأة بشكل ما .. ان الانتقال من الاشتراكية الى الشيوعية سيجري بشكل متواصل .

ليس مرة واحدة . وانما بالتدريج ، وعلى مراحل متتابعة سيتحقق الانتقال – مثلا – الى المبدأ الشيوعي للتوزيع . **ففي المرحلة الاولى ١٩٦١ – ١٩٧٠** كما اشار برنامج الحزب الشيوعي في الاتحاد السوفياتي ؛ فان مستوى الاخاء المادي لاعضاء المجتمع سترتفع الى درجة يكون معها جميع الشغيلة مؤمنين ماديا بما فيه الكفاية . وفي **المرحلة الثانية ١٩٧١ – ١٩٨٠** ، بخلق القاعدة المادية التكنيكية للشيوعية ستؤمن الوفرة من الخيرات المادية لجميع السكان وسيصل المجتمع قريبا جدا من تحقيق مبدأ التوزيع حسب الحاجات .

وفي البرنامج حدد الطريق الذي بواسطته سيحدث التحول التدريجي المبدأ الاشتراكي لتوزيع الى المبدأ الشيوعي . وهذا الطريق للتحول التدريجي هو توسيع الصناديق الاجتماعية التي توزع بين اعضاء المجتمع مجانا الى جانب التوزيع حسب العمل . ومنذ الان يوزع عن طريق الصناديق الاجتماعية جزء هام من الخيرات المادية والثقافية . ويدخل هنا مصاريف الدولة للتعليم والصحة والخدمات الثقافية والفعاليات الرياضية و ... الخ . وفي المستقبل بتوسيع القاعدة المادية والتكنيكية للشيوعية .

فان هذا الشكل للتوزيع سيتطور بدون انقطاع ، وسيحل تدريجيا خطوة فخطوة محل المبدأ الاشتراكي للتوزيع حسب العمل المبذول .

وكذلك بالتدريج وفي مجرى الزمن ، ستصبح الدوافع المعنوية للعمل هي الغالبة ، هذه الدوافع التي دخلت بقوة منذ الان في النشاط العملي للانسان السوفياتي . كما ان اعطاء وظائف الدولة الى المنظمات الاجتماعية ، واعادة تثقيف بناة الشيوعية وتطوير حياتهم لا يمكن ان يحدث مرة واحدة .

وبالتالي ان الانتقال من الاشتراكية الى الشيوعية يبدو كعملية مستمرة لتحسين وتطوير العلاقات الاجتماعية الاشتراكية ، الاضمحلال التدريجي للاشكال القديمة وظهور الاشكال الجديدة للحياة . وتشابكها والعلاقات المتبادلة بينها .

ان هذا الانتقال التدريجي لا ينسجم والسعي بدون اساس للاسراع في تنفيذ المبادىء الشيوعية . ان الاشكال الجديدة للحياة الاقتصادية ، والبناء الاجتماعي ، واسلوب المعيشة تتأكد باستمرار خطوة فخطوة مع نضوج المقدمات المادية والثقافية الضرورية .

ان طابع الانتقال بشكل متواصل الى الشيوعية ، انما هو امر قانوني وتتطلبه طبيعة النظام الاشتراكي نفسها . ففي الاشتراكية لا توجد قوى طبيعية تقف ضد حركة المجتمع نحو الشيوعية . وان النشاط الواعي المنظم

لحزبنا والدولة السوفياتية يضمنان في نفس الوقت كشف وحل التناقضات التي تنبثق في هذه الحركة . وبهذا تستبعد الهزات الاجتماعية والانعطافات الفجائية في حياة المجتمع ، ويكتسب التطور طابع التدريج والاستمرار .
ان التدريج لا يعني بالمرة البطء في التطور . بل على العكس فان الانتقال الى الشيوعية يمثل عملية تطور اقتصادي وثقافي سريعة بشكل استثنائي .
وفي المستقبل ، كما يبدو من برنامج الحزب الشيوعي السوفياتي الجديد فان هذه العملية ستسير بسرعة اكبر على اساس المستوى العالي لتطور القوى المنتجة ، وللمساهمة الفعالة لجماهير الشغيلة ذات الملايين العديدة في البناء الشيوعي .

قانون نفي النفي (نقض النقيض)

ان قانون نفي النفي يكشف الاتجاه العام ، ووجهة تطور العالم المادي. ومن اجل ان نفهم جوهر واهمية هذا القانون ، يجب قبل كل شيء ان نشرح ما هو النفي (النقض) الدياليكتيكي ، وما هو مكانه في التطور .

١ ـ النفي الدياليكتيكي ودوره في التطور

في كل مجال من الواقع المادي تجري باستمرار عملية اضمحلال القديم ، الذي فات اوانه ، وظهور شيء جديد تقدمي . ان استبدال القديم بالجديد والمضمحل بالمولود حديثا هو ما نعني به التطور ، غير ان تغلب الجديد على القديم وانبثاقه على اساسه هو ما نسميه **النفي** .
ان اصطلاح **نفي** ادخل في الفلسفة من قبل « هيكل » غير ان هيكل وضع فيه فكرةمثالية . ووفقا لما قال فان اساس النفي يكمن تطور الفكرة . وان ماركس وانجلز اذ حافظا على مصطلح « نفي » فسراه بشكل مادي ، وبرهنا بان النفي يمثل عنصرا من عناصر تطور الواقع المادي لا يمكن اهماله ، وقد اشار ماركس الى انه ، لا يمكن ان يتم تطور في اي ميدان لا ينفي ما سبقه من اشكال الوجود « ماركس ـ انجلز . المؤلفات الجزء الرابع ص ٢٩٦ » فتطور القشرة الارضية مثلا ، مر بعدة عصور جيولوجية ، حيث كان كل عصر جديد يظهر على قاعدة ما سبقه ، ويشكل نفيا طبيعيا للقديم . وفي العالم العضوي كل نبات جديد او حيوان يظهر على اساس القديم ويمثل في نفس الوقت نفيا له . وتاريخ المجتمع هو بدوره ايضا سلسلة من نفي

الانظمة الاجتماعية القديمة من قبل الجديدة ـ فالمجتمع البدائي نفي من قبل المجتمع القائم على الرق ، وهذا من قبل المجتمع الاقطاعي ، والاقطاعي من قبل الراسمالي ، والراسمالي من قبل الاشتراكي . وان النفي يلازم تطور الوعي والعلوم . فكل نظرية علمية اكثر دقة تتغلب على القديمة التي اقل منها دقة .

ان النفي ليس شيئا يدخل على الشيء او الظاهرة من الخارج ، انه نتيجة تطوره الداخلي الخاص .

ان الاشياء والظواهر ، كما سبق وعرفنا ، متناقضة . وبتطورها على اساس تناقضاتها الداخلية تخلق ظروف زوالها هي والانتقال الى كيفية جديدة أعلى . ان النفي هو بالضبط هو التغلب على القديم على اساس التناقضات الداخلية ، نتيجة التطور الذاتي والحركة الذاتية للاشياء والظواهر . فالاشتراكية تأتي لتحل محل الرأسمالية نتيجة حل التناقضات الداخلية الملازمة للنظام الراسمالي . واذ تتعمق هذه التناقضات فانها تجد حلها في الثورة الاشتراكية .

المفهوم الدياليكتيكي والميتافيزيقي للنفي

ان الدياليكتيك والميتافيزيق يفهمان مسألة جوهر النفي بشكل مختلف . فالميتافيزيق اذ يشوه مجرى تطور الواقع المادي ، يفهم النفي ، كنبذ وابادة مطلقة للقديم . وقد سمى لينين هذا الفهم للنفي « مجردا » و « فارغا » ، ذلك انه يستبعد كل امكانية للتطور اللاحق .

وهكذا ايضا يفهم النفي ممثلو التيار البورجوازي الصغير (بروليتكولت) « ثورة البروليتارية » الذين دعوا في الايام الاولى من السلطة السوفياتية الى نبذ الثقافة التي انشئت في ظل النظام البورجوازي ، من اجل خلق ثقافة بروليتارية جديدة .في مكان أجرد ، فارغ تماما . ان مثل هذا الفهم للنفي ليس فقط لا يساعد على التطوير ، وانما يجلب ضررا للتقدم لا سبيل الى اصلاحه . ولهذافعندماانتقد الحزب ولينين الـ « بروليتكولتوفتسي » (١) ، اشارا الى ضرورة الاستفادة من التراث الثقافي الماضي ، معتبرين انه خلق ثقافة بروليتارية اشتراكية لا يمكن ان تتم في الواقع الا على اساس اعداد هذا التراث الثقافي منجديد وبشكل انتقادي .

ان الدياليكتيك الماركسي كشف جوهر النفي الدياليكتيكي . ان ما يميز

---

(١) هم انصار التيار البورجوازي الصغير الذي جاء ذكره في بداية الفقرة . المترجم .

الدياليكتيك الماركسي ـ كما اشار لينين ـ هو ليس النفي ، المجرد ، الفارغ ، وانما النفي كعنصر في (رابطة) ، كعنصر في التطور يحافظ فيه على ما هو ايجابي .

ان الفهم الدياليكتيكي للنفي ينطلق من ان الجديد لا يبيد القديم تماما وانما يحافظ على كل ما هو جيد فيه . وليس يحافظ عليه فقط بل يعيد اعداده ويرفعه الى درجة جديدة ، اعلى . وهكذا فان العضويات العليا اذ نفت الدنيا التي ظهرت على اساسها ، فقد حافظت على النظام الخايوي اللازم لها ، والطابع الانتقائي للانعكاس والعلامات الاخرى . وان النظام الاجتماعي الجديد اذ ينفي القديم فانه يحافظ على قواد المنتجة ومنجزات العلم والتكنيك والثقافة . كما ان العلاقة بين القديم والجديد توجد في المعرفة والعلم .

وبالتالي فان ما يميز الفهم الماركسي للنفي هو الاعتراف بالتقبل ، بالعلاقة بين الجديد والقديم في عملية التطور . غير انه ينبغي ان يفهم ان الجديد لا يمكن ان يقبل القديم كله مطلقا بكيفيته السابقة . انه يأخذ من القديم بعض عناصره المنفردة وجوانبه ، موحدا اياها بنفسه ليس بشكل ميكانيكي ، وانما يتمثلها ويعيد تكوينها طبقا لطبيعته هو . ان الدياليكتيك الماركسي يتطلب موقفا انتقاديا تجاه تجربة البشرية في الماضي ويشير الى ضرورة الاستفادة من هذه التجربة بشكل خلاق ، وان يحسب ـ بصرامة ـ حساب الظروف المتبدلة والمهام الجديدة للنشاط الثوري . فالفلسفة الماركسية مثلا لم تقبل منجزات الفكر الفلسفي في الماضي على علاتها ، وانما اعادت اعدادها بشكل خلاق ، وأغنتها بمنجزات العلم والتطبيق الجديدة ورفعت العلم الفلسفي الى مستوى اعلى جديد نوعيا .

ان الطبقة العاملة وحزبها الماركسي هما اكثر حفظة منجزات الماضي الجيدة ، عناية بها . فالبروليتاريا بعد ان تأتي للسلطة ليس فقط تستفيد بمهارة من منجزات العصور التاريخية السابقة ، وانما تحقق في مجرى بناء المجتمع الجديد نجاحات لا سابق لها في جميع ميادين الاقتصاد الوطني والعلم والثقافة .

٢ . الطابع التقدمي للتطور

التطور كتقدم شرحنا فيما سبق ، انه نتيجة النفي يحل هذا التناقض او ذاك ويباد القديم ويتوطد الجديد ، ولكن هل يتوقف التطور عند هذا ؟ كلا ، ان التطور لا يتوقف بانبثاق

الجديد . ان الجديد لا يظل جديدا . ذلك انه بتطوره يحضر مقدمات وشروط ظهور شيء جديد آخر اكثر جدة وتقدمية . وهذا هو نفي النفي اي نفي الشيء الذي تغلب قبل هذا على القديم ، واستبدال هذا الجديد بشيء اكثر جدة . وان نتيجة هذا النفي الثاني ستتعرض للنفي ايضا من جديد ويجري التغلب عليها . هكذا الى ما لا نهاية . وبالتالي فان التطور يمثل مجموعة من النفي لا عد لهـا يعقب بعضها بعضا وحلول الجديد محل القديم وتغلبه عليه بشكل لا نهاية له .

ذلك ان كل درجة أعلى من التطور تنفي في الدرجة الادنى فقط ما هو شائخ ، وانهـا تقبل وتضاعف فـي نفس الوقت منجزات الدرجـات السابقة . وان التطور ككل يكتسب طابعا تقدميا تدريجيا . ان التطور هو تقدم . والتقـدم هو بالضبط ذلـك الاتجـاه العام الـذي يميز التطور الدياليكتيكي .

ان التقدم يحدث في جميع ميادين الواقع . لننظر الان تطور كوكبنا ، وان كان الخطوط العامة فقط لهذا التطور . كنا قد اشرنـا الى ان المادة التي تكونت منها كواكب المجموعة الشمسية ؛ ومن بينها الارض ، كانت مادة على شكل مساحيق غازية تحوى ابسط الاجسام الكيماوية . وبتطور الطبيعة ازداد تعقد هذه الاجسام اكثر فأكثر . وبالنتيجة ظهرت الطبيعة الحية ، العضوية . وان العضويات الحية بدورها ايضا تطورت من البسيط الى المركب : من اشـكال ما قبل الخلية الى الخاية ، ومن الحيوانـات ذات الخلية الواحدة الى ما هو اعقد ، والتي ادى ارتقاؤها الى ظهور ما هو شبيه بالانسان ؛ ومن ثم الانسان . وبظهور الانسان بدات عملية التطور الاجتماعي والمراحل المتعاقبة للتطور التقدمي للمجتمع كانت نظام المجتمع البدائي ، ونظام ملاك العبيد والنظام الاقطاعي والنظام الرأسمالي والنظام الاشتراكي الذي يحل محله .

ان تطور المجتمع له خاصية هامة جدا وهي التسارع المستمر لهـذا التطور . ان عملية ظهور الانسان بدات قبل حوالي المليون سنة . واذا مـا اخذنا بعين الاعتبار ان الانسان الحالي وجد منذ بضعة عشرات الوف السنين، فيمكن ان نتصور كم كانت بطيئة عملية تكـون الانسان . ولقد كان مجتمع ملاك العبيد والمجتمع الاقطاعي اكثر سرعة في تطوره رغم انه استمر الوف عديدة من السنين . وان الرأسمالية تطورت بسرعة اكبر جدا من الاقطاعية ، وفي الانتقال الى الاشتراكية فان تطور الاقتصاد والثقافة يتسارع بشكل هائل . وفي المستقبل بانتصار الشيوعية في العالم اجمع ، عندما تتخلص البشرية من العلاقات الراسمالية التي تعيق التقدم ، وعندما تملك امكـانية

بذل كل ما في حوزتها من وسائل لقهر **قوى الطبيعة** ، فـان وتائر التطور سوف تصل الى مقاييس لـم يسبق لها مثيل .

الطابع الحلزوني للتطـور

ان تأكيد الطابع التقدمي للتطور يمثل ما هو رئيسي في قانون نفي النفي ولكنه ليس السمة الوحيدة له . ان هذا القانون يميز التطور ليس كحركة تسير في خط مستقيم ، ولكن كنوع من مسير **حلزوني** معقد للغاية ، نـرى فيه **تكرار** معين لدرجات مرت وعودة معينة للماضي . « ان التطور يبدو كما لو انه تكـرار لمراحل مرت لكنه يكـررها بشكل آخر ، على (مستوى) اعلى (« نفي النفي ») ، التطور بخط حلزوني ـ كما يجب القول ـ وليس بخط مستقيم » (١) ، هكذا قال لينين مشيرا الى هذه السمة الهامة للدياليكتيك .

ان الطابع الحلزوني للتطور يلازم مختلف ميادين الواقع ، ولعل اوضح مظاهر هذه الخاصية للتطور فـي الطبيعة غير الحية هو الجـدول الدوري للعناصر الكيماوية الذي اكتشفه د. ي. مندلييف .

وفي هذا الجدول الدوري لمندلييف ـ كما نعرف ـ نجد العناصر مرتبة تبعا لحجم الشحنة الايجـابية في نواة ذرتها . انهـا تشكل مراحل وتسلسل يلاحظ فيها تكرر معين للخصائص . لنأخذ مثلا المرحلة الثانية التي تبدأ بالليثيوم . فالليثيوم عنصر ذو خصائص فلزية واضحة ، فهو فلز قلوي ، وبزيادة شحنات النواة في العناصر التي تليه ، فان الخصائص المميزة للفلزات تتضاءل في حين تتزايد خصائص العناصر اللافلزية . وفي نهاية المرحلة يوجد بشكل واضح اللافلز الفلور والغاز الثقيل ، النيون . والمرحلة الثالثة تبدأ من جديد بفلز جديـد قلوي هو الصوديوم وتنتهي بلا فلز هو الكلور والغاز الثقيل الارغون . ويتكرر نفس الشيء في المراحل اللاحقة حيث يتم نفي الخصائص الفلزية من قبل اللافلزية . وبعـد هذا وعند الانتقال الى مرحلة جديدة فـان هذه الاخيرة يجـري نفيها من قبل الخصائص الفلزية للفلزات ، ويحدث ما شبه العودة الى القديم ـ نفي النفي .

وبشكل تخطيطي فان جدول العناصر يمكن تصوره على شكل حلزون متطور صاعد . فان تكرر الخصائص هنا يحدث باستمرار خلال العـدد المتزايد للعناصر (اثنين ـ خلال المرحلة الاولى ، ثمانية خلال الثانية ... وهكذا) . ويتم على اساس كيفي آخر ـ : فالعناصر في المرحلة الجديدة لها شحنات اكبر في النواة ، وتركيب اعقد في خصائصها .

---

(١) لينين ـ المؤلفات ـ جزء ٢١ ـ ص٤٣ .

ان التطور على شكل حلزوني يلاحظ في العالم العضوي ايضا . وقد بين انجاز نشاط هذا القانــون من خلال مثال تطـور حبة الشعير . فحبة الشعير التي توجد في ظروف ملائمة تنشأ عنها نبتة وهذه النبتة تمثل نفيا للحبة . وبعد ذلــك تنمو في النبتة سنبلة جديدة ذات حبات عديــدة ، والحبات الجديدة تنفي النبتة ، انها نفي النفي . وسوية مع هذا حدث رجوع معين الى نقطة الانطلاق ، الحبة ، ولكن على اســاس جديد . ان الحبات الجديدة النامية تختلف عن الحبة السابقة ليس من ناحية الكمية فحسب (حبة واحدة اصبحت ١٠ ــ ٢٠) ، وانما غالبا ما يكـون الاختلاف فــي الصفات ايضا . وهنا ايضا حدث التطور كما لو كان على شكل حلزون . ففي اساس الحلزون توجد حبة واحدة نمت منها بعد ذلــك حبات عديدة ، وهذه الحبات بدورها تولد عددا اكبر من الحبات وهكذا .

ان التطور الحلزوني يوجد في الحياة الاجتماعية ايضا . ان الشكل الاول للتنظيم الاجتماعي هو نظام المشاعية البدائية . وهو نظــام لا طبقي قائم على الملكية العامة على الوسائل البدائية جدا للانتاج . وان التطور اللاحق للانتاج ادى الى نفي هذا النظام من قبل مجتمع ملاك العبيد الطبقي . وبعدها حل محل العبودية نظام الاقطاع ، وخلفت الراسمالية الاقطاعية . وفي مكان الراسمالية جاءت الاشتراكية ــ الطور الاول من الشيوعية . وان (نفي النفي) هذا هو بدوره ، بمعنى ما عودة الى نقطة الانطلاق في التطور ، ولكن على اساس آخر تماما ، اساس نوعي جديد .

وكما هو ملحوظ فــان نفي النفي يميز (تسلسلا معينا) ، تكرارا في تطور المادة التقدمي . ولكن ينبغي ان يلاحظ بشكل خاص بــأن تكــرار مراحل التطور السابقة ليس عودة (صرفية) الى القديم ، ولكنه تأكيد للجديد الذي غالبا ما يحوى تشابها شكليا ، خارجيا مع القديم ويختلف عنه جذريا في جوهره . فاللافلز الذي بدات به المرحلة الثالثة من نظــام مندلييف ، يرجع ، كما هو الحال بالنسبة لليثيلوم الى مجموعة الفلــزات القلوية . ولكنه ذو تركيب اعقد وله خصائص خاصة به فقط .

ان الملكية الاجتماعية التي تسود في الاشتراكية ، تبدو كما لو انهــا احياء للملكية العامة في المجتمع البدائي ، غير انها بعثت على اســاس مادي وفكري جديد تماما ، لا يمكن مقارنته بالمرة بنظام المشاعية البدائية .

وهكذا فان التطور يتحقق بواسطة نفي القديم من قبل الجديد ، الادنى من قبل الاعلى . وان الجديد ، اذ ينقض القديم ، ويحافظ على ملامحه الايجابية ويطورها ، يكسب التطور طابعا تقدميا . وفي الوقت نفسه فــان التطور يتم على شكل حلزون حيث تتكرر في المراحل الاعلى بعض ملامح

وجوانب المراحل الادنى .

هذا هو جوهر القانون الدياليكتيكي لنفي النفي .

٣ . نشاط قانون نفي النفي في الاشتراكية

ان قانون نفي النفي ينشط ايضا في المجتمع الاشتراكي ، ولكن تأثيره في ظروف الاشتراكية له مميزات خاصة .

ان سيادة الملكية الاشتراكية ، وزوال الطبقات المتناحرة . والوحدة السياسية والاجتماعية للشعب السوفيتي تلغي من مجتمعنا تلك الاشكال من النفي كالثورة الاجتماعية ، والصدامات الطبقية ، والانفجارات الفجائية التي تميز المجتمعات الطبقية المتناحرة .

ان نفي القديم في الاشتراكية يحدث عندما يظهر بأنه لم يعد ينسجم مع الظروف والمهمات الجديدة ، وعندما تنضج المقدمات الموضوعية للتغلب عليه . وبجهود جميع الناس السوفييت ، وتحت قيادة الحزب الشيوعي والحكومة السوفييتية فان القديم الذي يعيق حركتنا الى امام يجري استبداله بالجديد . فهكذا مثلا تجري في بلادنا ، بلا انقطاع عملية استبدال التكنيك القديم بتكنيك حديث ارقى ، وتستبدل اشكال التنظيم القديمة في الانتاج وقيادة الاقتصاد الوطني بأشكال تنظيم جديدة .. الخ . ان نفي القديم الذي فات اوانه يؤدي الى تعزيز الاسس الاقتصادية والسياسية والايديولوجية للمجتمع الاشتراكي وهو احد العوامل الهامة لتطوره التقدمي.

ان التقدم الذي لا سابق له والحركة العاصفة الى امام نحو الشيوعية ـ هذا ما يميز تطوير المجتمع الاشتراكي . وبهذا بالضبط تظهر احدى اهم خصائص نشاط قانون نفي النفي في ظروف الاشتراكية .

ان وطننا العظيم ، اول بلد اشتراكي في العالم ، الطليعة المعترف بها في التقدم الاجتماعي ، اليه يتطلع المعجبون من كل الاقطار ، وبه يربطون آمالهم بالمستقبل الوضاء السعيد . ان البشرية التقدمية مقتنعة منذ أمد طويل بأن الناس السوفييت لا يعرفون عوائق لا يمكن اجتيازها ولا اهدافا غير قابلة للتحقيق .

ان مصادر التقدم الذي لا مثيل له في بلادنا تكمن في طبيعة النظام الاشتراكي نفسها ، وبالافكار الخلاقة للشيوعية . ان قضية بناء الشيوعية العظمى معين لا ينضب للقوى الخلاقة والطاقة الهائلة الشعب السوفييتي ، التي تعطيه الامكانية لان يحل اعقد المهمات .

وبالطبع ، فان حركة محدودة الى امام تلاحظ في البلدان الراسمالية

ايضا . غير ان هذه الحركة ذات طابع محدود ووحيد الجانب . ففي الصناعة الرأسمالية تتطور فقط تلك الفروع التي تجلب ارباحا عظيمة لمالكي المشاريع. وهذه هي قبل كل شيء الفروع التي تنتج الطلبيات الحربية . وان مراحل النهوض المعين هناك تعقبها مراحل الهبوط العميق للازمة .

اما في المجتمع الاشتراكي فيوجد لدينا تقدم متواصل في جميع ميادين الحياة الاقتصادية والسياسية والثقافية . وان اوضح دليل على هذا هو وتائر التطور العالية التي لا مثيل لها . فوتائر تطور الصناعة مثلا في بلادنا فاقت وتائر نمو الانتاج الصناعي في أرقى البلدان الرأسمالية بثلاث الى خمس مرات . ومن المعروف ان امريكا وانجلترا والمانيا احتاجت من اجل زيادة انتاجها الصناعي ٣٠ مرة الى مدة تتراوح بين ٨٠ – ١٥٠ عاما ، في حين ان الاتحاد السوفييتي انجز هذه المهمة بما لا يزيد عن ٤٠ سنة . وهنا يجب الاخذ بنظر الاعتبار ان الاتحاد السوفييتي تحمل النتائج التخريبية لحربين عالميتين سببتا لاقتصاده الوطني أضرارا لم يكن من الممكن ان لا تعيق تطوره .

وكذلك فان النجاحات في الاقتصاد الزراعي عظيمة ايضا . فمن زراعة متأخرة ذات انتاج بضاعي صغير كانت تسود بلادنا في السابق ، انشئت زراعة اشتراكية جبارة تتعاظم مقاييسها باستمرار ، تؤمن للصناعة المواد الاولية والسكان المواد الغذائية .

ان منجزات العلم والثقافة السوفييتيين هائلة ، فقد تحولت بلادنا التي كانت متأخرة في الماضي حيث ٨٠٪ تقريبا من سكانها أميون ، قد تحولت الى بلاد تنعدم فيها الامية . وفي معاهدنا العليا يتعلم اليوم مئات الوف الاختصاصيين في أرقى الاختصاصات ، حيث ان عدد المهندسين والذين يتخرجون سنويا في بلادنا يزيد اكثر من ثلاث مرات على عدد المهندسين الذين يتخرجون في الولايات المتحدة . ان نجاحات العام السوفييتي تدهش العالم اجمع . وقد اصبحت الاقمار الصناعية التي تدور حول الارض والشمس . والصواريخ الكونية الجبارة وسفن الفضاء الكوني التي تنتقل بين الكواكب ؛ والمراكز الكهربائية الذرية ، والتحليقات الرائعة الاولى في العالم التي قام بها الانسان السوفييتي بالسفن الفضائية حول الكرة الارضية ، هذه كلها اصبحت المبشر العظيم بالتقدم الذي لا سابق له ورمز القوى الخلاقة للشيوعية الظافرة .

وفي برنامج الحزب الشيوعي في الاتحاد السوفييتي لوحظ تقدم عظيم لاقتصاد وثقافة الاتحاد السوفييتي ، فقد حددت فيه . بشكل علمي ، طرق التطور الهائل للقوى المنتجة ، وللوصول على هذا الاساس الى وفرة

الخيرات المادية ، وللازدهار المتواصل للديمقراطية الاشتراكية ، ولخلق المقدّمات الايديولوجية والثقافية لانتصار الشيوعية . غير انه سيكون من الخطأ الاعتقاد بأن التقدم في ظروف الاشتراكية يتحقق بخط مستقيم . فهنا ايضا يظهر الطابع الحلزوني للتطور ، وفي غالب الاحيان يوجد تكرار معين لمراحل مرت من التطور .

لنأخذ مثلا قضية تطور اشكال قيادة الصناعة والبناء . ففي السنوات الاولى للسلطة السوفييتية فان هذا التطور كان يتحقق بواسطة مجالس الولايات والمقاطعات للاقتصاد الوطني . وفيما بعد استبدلت هذه المجالس بالوزارات واللجان الرئيسية ، ذلك ان المهمة المعقدة مهمة تصنيع البلاد في ظل الامكانيات المادية المحدودة وقلة الكوادر ذات الاختصاص كان يمكن ان تحل فقط على اساس قيادة مركزية صارمة . ولكن بعد ان تطورت الصناعة والبناء الى درجة اصبحت معها قيادتها من مركز واحد غير ممكنة ظهرت ضرورة جعل مراكز قيادة الاقتصاد قريبة من المشاريع . ولهذا الهدف اتخذ حزبنا والحكومة السوفييتية ، بعد مناقشة شعبية عامة ، اتخذا قرارا باستبدال الوزارات بمجالس الاقتصاد الوطني للمناطق الاقتصادية . ان نفي النفي هذا هو عودة الى القديم ، ولكن على اساس نوعي جديد . ان مجالس الاقتصاد الوطني اليوم اعادت بعض ملامح مجالس الاقتصاد الوطني السابقة ، ولكنها تختلف عنها نوعيا بأساسها الاقتصادي التكنيكي او بتركيبها واختصاص الكوادر وبعمق وسعة نشاطها .

ان اعادة تنظيم قيادة الصناعة والبناء هي خطوة كبيرة في طريق التطور التقدمي للاقتصاد الاشتراكي وخلق القاعدة المادية والتكنيكية للشيوعية .

★ ★ ★

وهكذا بحثنا في هذا الفصل القوانين الاساسية للدياليكتيك المادي . ان هذه القوانين تشرح الحركة العامة للتطور في العالم المادي ، وتبين مصادره ، والقوى المحركة التي تكمن في التناقضات الداخلية . انها تكشف الطابع الطفروي للتطور واتجاهه التقدمي الى امام ، مشيرة بذلك الى ان تقدم النشاط المادي يتحقق عن طريق التبدل المتواصل ، بواسطة نفي القديم من قبل الجديدة .

ومن اجل ان يفهم التطور بشكل اشمل من جميع الجوانب ، من الضروري دراسة المفاهيم الأساسية للدياليكتيك المادي .

الفصل السابع

المفاهيم الاساسية للديالكتيك المادي

ان كل علم . مهما كان ميدان الواقع المـادي الذي يدرسه ، يمثل ليس فقط نظاما من القوانين ، بل وبعض المفاهيم الاساسية المحددة (كاتيكوريات) وهي اعم المفاهيم التي تعد في مجرى تطور كل علم وتشكل اساسه . ففي الميكانيك مثلا ، هذه المفاهيم الاساسية هي مفاهيم الكتلة والطاقة والقوة ، وفي الاقتصاد السياسي ــ السلعة والقيمة والنقود .. الخ .

ان الفلسفة عندما تعم منجزات العلم والنشاط التطبيقي للناس ، تعد هي بدورها مفاهيمها الاساسية . **ان المفاهيم الاســاسية للفلسفة** هي تلك المفاهيم التي تعكس الملامح والصلات والجوانب والخصائص العامة للواقع . وقد تعرفنا على بعض هذه المفاهيم الاساسية عند دراستنا المادية الفلسفية وهذه المفاهيم الاساسية هي المادة والوعي وكذلك الحركة والمكان والزمان . وعند دراسة القوانين الاساسية للدياليكتيك المادي درسنا المفاهيم الاساسية : التناقض والكمية والقفـزة والنفي . وفي هذا الفصل سندرس مجموعة اخرى من المفاهيم الاساسية : **الخاص والعام** ، **المحتوى والشكل** ، **الجوهر والظاهرة** ، **السبب والنتيجة** ، **الضرورة والصدفة** ، **الامكانية والواقع** .

ان دراسة هذه المفاهيم الاساسية ستغني بشكل جوهري تصوراتنا ، عن التطـور الشامل وصلات العالـم المـادي ، وعن القوانين الاســاسية للدياليكتيك المادي .

ان قوانين الدياليكتيك ومفاهيمه الاساسية مترابطة . واننا بدراستنا للقوانين الاساسية للدياليكتيك المادي راينا انهـا تمثل في الجوهر العلاقة والصلة بين المفاهيم الاساسية . فقانون تحول التغيرات الكمية الى تغيرات

كيفية يعبر عن العلاقة المحددة بين المفاهيم الاساسية الكمية والكيفية وهكذا . ولهذا فبدون معرفة المفاهيم الاساسية لا يمكن شرح القوانين ومن جهة اخرى فان دراسة القوانين تعطي امكانية فهم جوهر المفاهيم الاساسية للدياليكتيك . فقانون وحدة وصراع المتضادات يعطي امكانية كشف المعنى الحقيقي للمفاهيم الاساسية المتناقضة كالمحتوى والشكل والضرورة والصدفة والامكانية والواقع .. الخ .

وقبل الشروع في دراسة المفاهيم الاساسية كل على حدة لنبين ما هو منشوءها ولنبحث بعض ملامحها العامة .

١ . منشأ المفاهيم الاساسية للدياليكتيك وخصائصها العامة

ان المفاهيم الاساسية للدياليكتيك الماركسي هي نتيجة تعميم تجربة الناس لقرون عديدة ونشاطهم العملي ومعرفتهم . ان الانسان اذ يقيم ، في مجرى نشاطه العملي ، الصلات بالاشياء والظواهر في العالم ، ويتعرف عليها ، فانه يقوم بتشخيص ما هو جوهري ومشترك فيها ؛ ونتائج ما يجري تشخيصه تتحدد في مفاهيم عامة اساسية . فالمفاهيم الاساسية ، السبب والنتيجة والمحتوى والشكل وغيرها قد تكونت في وعي الانسان ، ذلك انه اصطدم مليارات المرات بالاسباب والنتائج الموجودة موضوعيا ، وبمحتوى وشكل الاجسام المادية الملموسة وغيرها من الجوانب الهامة للواقع . وبالتالي فان المفاهيم الاساسية هي نتيجة النشاط العملي للانسان ومعرفته ، انها درجات في معرفة العالم المحيط بالانسان . قال لينين : « توجد امام الانسان **شبكة** من الظواهر الطبيعية . فالانسان الغريزي ، المتوحش ، لم يفصل نفسه عن الطبيعة . في حين ان الانسان الواعي انفصل عن الطبيعة ، والمفاهيم الاساسية هي درجة من الانفصال أي من معرفة العالم » .

ان المفاهيم الاساسية للدياليكتيك المادي باعتبارها نتيجة للتطبيق العملي والمعرفة ، لها اهمية بالغة في النشاط العملي والفكري . وانها كدرجة في المعرفة تساعد الناس على السير في الشبكة المعقدة من الظواهر في الطبيعة والمجتمع ، وعلى ان يكشفوا الرابطة والتبعية المتبادلة بين الاشياء ونظامها المحدد ، وقانونية تطورها ، وتأمين النشاط الناجح في التطبيق تبعا لذلك .

ان الدياليكتيك الماركسي اذ يكشف جوهر المفاهيم الاساسية ومنشأها ، فانه يبين قبل كل شيء **طابعها الموضوعي** . ان مصدر المفاهيم الاساسية هو الظواهر والاشياء ، الموجودة خارج الانسان ، تعكس بالضبط الملامح المشتركة

الجوهرية لهذه الاشياء والظواهر .

فالسبب والنتيجة كمفهومين اساسيين يعكسان الرابطة الموضوعية الموجودة بين الاشياء والعمليات ، حيث تولد بعضها اشياء وظواهر اخرى .

ان المثالية ، على الضد من المادية ، تنكر موضوعية المفاهيم الاساسية . فالمثاليون الذاتيون يعتبرون المفاهيم الاساسية موجودة فقط في وعي الانسان وليس لها اية علاقة بالواقع . فمثلا « كانت » يقول ان الانسان قبل ان يبدأ بمعرفة العالم وجدت في وعيه المفاهيم الاساسية ، السببية والضرورة والصدفة وغيرها ، وهي التي ساعدته على الانتظام « عالم الظواهر المضطرب في الطبيعة . وشبيه بهذا ما يؤكده المثاليون الذاتيون المعاصرون وخصوصا الوضعيون الجدد . فهم يقولون ان المفاهيم الاساسية هي تلك المفاهيم العامة المرتبطة فقط بالمعاناة الحسية للذات . ولا علاقة لها بالعالم الموضوعي الموجود خارج الانسان . والمثالي الموضوعي « هيغل » رغم كونه يعترف بالكلام بموضوعية المفاهيم الاساسية فانه في الواقع ينظر اليها كمراحل ، وكعناصر لتطور الفكرة المطلقة والروح العالمية .

ان وجهات نظر المثاليين عن المفاهيم الاساسية مفلسة تماما . فالتطبيق وتطور العلم والتجربة الشخصية للناس تشير الى ان المفاهيم الاساسية لم تخلق من قبل الانسان ، وانما اكتشفت في الواقع الموضوعي .

والسمات الاخرى الهامة جدا من سمات المفاهيم الاساسية للدياليكتيك الماركسي هي **الرابطة المتبادلة ، والتبدل والحركة** . ان سمات المفاهيم الاساسية هذه تعكس وحدة العالم المادي نفسه ، والرابطة الشاملة والتأثير المتبادل بين الاشياء والظواهر فيه . ان الرابطة بين المفاهيم الاساسية وثيقة الى درجة يمكن معها ان تتحول من واحد الى اخر في ظل ظروف معينة ، وانما تحل الواحدة محل الاخرى . فالسبب يصبح نتيجة ، والنتيجة سبب ، والضرورة تصبح صدفة ... الخ . وان المفاهيم الاساسية ليست (من رابطة متبادلة) فحسب بل انها متغيرة ومتحركة ولانها تعكس العالم المادي المتطور باستمرار فانها تتغير هي ايضا .

ان الطبيعة الدياليكتيكية للمفاهيم الاساسية تشوه من قبل مختلف الميتافيزيقيين . فهم عادة يفصلون بين المفاهيم الاساسية الواحد عن الاخر ويهملون دور احد المفاهيم الاساسية ويبالغون في اهمية اخر الى درجة الاطلاق . وهكذا يؤدي الى تشويه الواقع والى استنتاجات سياسية رجعية .

وانطلاقا من مواقع المادية الدياليكتيكية فقط يمكن ان نفهم الجوهر الحقيقي للمفاهيم الاساسية وان نستخدمها كسلاح للمعرفة العلمية والنشاط

العملي . وفيما بعد ، عند دراسة كل مفهوم على حدة سنحاول ان نبين اهميتها العلمية والعملية .

وعند دراسة العالم المادي نجد ان اشياء وظواهر منفردة ، منعزلة كثيرة لا حصر لها تولد لدى الانسان انطباعا قويا . وبعد هذا عندما يقارنها ويرتبها يشخص الانسان السمات والعلائق العامة والمتشابهة فيما بينها ، وهكذا سنسلك نحن ايضا ، فنبدأ بدراسة المفاهيم الاساسية للخاص والعام .

٢ ـ الخاص والعام

ما هو الخاص والعام ؟

كل شيء يحوي عدة ملامح خاصة به . لنأخذ مثلا شجرة الحور التي تعيش قرب بيتنا ، فسنرى فيها إبعادا خاصة ملازمة لها ، وعدد محدد من الاغصان ووضع محين لهذه الاغصان وشكلا معينا للجذور وبعض الملامح الاخرى الخاصة بها .

واذا ما أخذنا مثلا زيد او عمرو من الناس فسنرى ان له ملامح خاصة به لا توجد لدى آخرين ، من قدرات وعادات واهتمامات وميول واسلوب في الكلام . وهذه كلها هي ما يميز هذا الانسان عن ملايين الناس الاخرين الذين يعيشون على كوكبنا .

ان شجرة الحور المعينة ، وهذا الانسان ، والشيء المفرد او الظاهرة في العالم المادي هو بالضبط ما نعني به **الخاص** او المفرد .

غير ان الخاص ، المفرد لا يوجد لوحده ، غير مرتبط بالاشياء والظواهر الاخرى . فهذا الانسان نفسه يعيش على الارض حيث يوجد اناس كثيرون . ويرتبط بهؤلاء الناس بآلاف الصلات المختلفة ، وله اشياء مشتركة معهم . فالانسان المعين له هذه المهنة او تلك ، وهذا يعني انه يملك بعض الملامح الموجودة لدى جميع الناس الذين يضمهم الاختصاص المعين . والانسان ينتمي الى طبقة معينة او قومية ، ولهذا فان له بعض الخصائص القومية او الطبقية اللازمة له . ففيما يتعلق (بالتركيب) الفيزيولوجي للانسان وكذلك بقدرة الناس على (الاحساس والتفكير والعمل والكلام) ، فان هذه الملامح توجد لدى جميع الناس . وكذلك ايضا فان كل شيء له الى جانب الملامح الفردية الخاصة به سمات وملامح مشتركة مع سائر الاشياء .

ان العام هو ما يلازم غالبية الاشياء الخاصة ، المفردة . ففي الوقت الذي تميز الملامح الفردية الخاصة الشيء المعين عن غيره من الاشياء ، فان

العام هو ما يقربه من هذه الاشياء الاخرى ، ويربطها ببعضهـــا البعض ، ويسبب تبعيتها لنوع معين او صنف محدد من الاشياء ذات المنشأ الواحد .

ديالكتيك الخاص والعام

ان الخاص والعام يوجدان في وحدة دياليكتيكية في كل شيء . فمن جهة نجد ان الخاص يحتوي على العام ، ذلك ان الخاص كما قال لينين : « لا يوجد من غير تلك العلاقة التي تقوده نحو العام » . فكل جسم عضوي خاص مثلا مرتبط بالعام ، بالنوع الذي ينتمي اليه والذي له معه ملامح عامة ، وعن طريق النوع يرتبط بما هو اعم ــ الجنس . وبالاخذ بعين الاعتبار العلاقــة بين الخاص والعام ووجود العام في الخاص فان المادية الدياليكتيكية تعتبر بأن **كل خاص هو بهذا الشكل او ذاك عام** .

ومن جهة اخرى فان العام يوجد فقط في الخاص ، وعن طريـــق الخاص . فلا يوجد أي نوع من النبات او الحيوان خارج الخاص . وعلى العموم فان النوع في علاقته بالمفرد الخاص لا يحوي جميع الملامح الموجــودة في العضويات الفردية التابعة له وانما فقط الجوهرية ، المتكررة منها ، ولهذا حدد لينين العام بأنه جانب أو **جوهر** الخاص .

ان الخاص والعام ليسا مترابطين فحسب وانما يتبــدلان باستمرار ايضا ، فالحدود بينهما ليست ثابتة . ففي مجرى التطور وفي ظل ظروف معينة يتحول الواحد منهما الى الاخر ، فالخاص يصبح عاما وبالعكس .

ففي تطور العضويات مثلا نلاحظ ان بعض العلامات المفيدة المكتسبة من قبل مفرد خاص تنتقل بالوراثة ، وبعد فترة من الزمن تصبح فــي حوزة مجموعة هائلة من المفردات ، وهذا يعني انها تحولت الى **عام** ، سمة خاصة بالنوع . واذا ما فقدت سمة **عامة** اهميتها للنشاط الحيوي للنوع ، فانهــا ستضمحل تدريجيا وتختفي وفي الاجيال المقبلة تصبح نــادرة ، وفي بعض المفردات العضوية فقط وكشذوذ ــ او كعودة الى حالة الاجداد .

ان دياليكتيك الخاص والعام يوجد فــي الظواهر الاجتماعية ايضا . لنأخذ المثل التالي : في ربيع عام ١٩١٩ بدأ جماعة من عمال سكك الحديد في محطة قازان في موسكو لاول مرة السبوت الشيوعية ، حيث يعمل العمال خارج وقت العمل ، وبدون ايــة اجور اضافية ، وقــد صلحوا القاطرات والعربات وقاموا بالشحن والتفريغ وغيرها من الاعمال . هذا الحادث **الفردي** وضع بداية اتساع المباراة الاشتراكية الجماهيرية ، التي تحولت فيما بعد الى اسلوب **عــام** للبناء الشيوعي والى سنة لتطور الاشتراكية والشيوعية .

اهمية مفهومي الخاص والعام في التطبيق

ان مراعاة ديالكتيك الخاص والعام لها اهمية بالغة النشاط العلمي والتطبيقي . ذلك ان معرفة العلاقة المتبادلة بين الخاص والعام وديالكتيكهما تعطينا الامكانية للسير بعمق في كل تعقيدات عمليات الواقع الموضوعي المختلفة ، والكشف عن قوانين تطوره واستخدامها بشكل صحيح في النشاط العملي . وما عدا هذا فان معرفة العام وعلاقته بالخاص تشكل اساس التنبؤ العلمي ، اذ انها تعطي الامكانية ليس لكشف الملامح الهامة للاشياء والظواهر المعينة ، وتحديد الطرق الاساسية واتجاه تطورها ، وانما ان تعطي امكانية التنبؤ بما سيوجد من اشياء وظواهر خاصة غير معروفة حاليا من قبل الانسان . ان د. ي. مندلييف مثلا استنادا الى الجدول الدوري للعناصر الكيماوية ، الذي يكشف اعم خصائصها ، تحدث مسبقا عن وجود أربعة عناصر كيماوية لم تكن معروفة وقتذاك . وبعد ذلك بتحليل كتب خصائص ثلاثة منها بتفصيل . ولم يمر وقت طويل حتى اكتشفت هذه العناصر .

ان النظر الى التأثير المتبادل بين الخاص والعام يغني الاعتبار وبدقة له اهمية بالغة في الحياة الاجتماعية وخصوصا اليوم ، حيث تنجز البشرية الانتقال العظيم من الراسمالية الى الاشتراكية . ان النجاح في هذا الانتقال يتوقف الى درجة كبيرة على الحل الصحيح لقضية العلاقة بين القوانين العامة للثورة الاشتراكية وخصائصها الوطنية . ولهذا يدور حول هذا الموضوع صراع ايديولوجي حاد .

ان التحريفيين المعاصرين ينكرون القوانين العامة للتطور الاشتراكي ، ويجعلون الخاص — الذي هو الظروف القومية الملموسة في البلدان المختلفة — مطلقا . ويعارضون نظرية الشيوعية العلمية بالافكار اللاعلمية لما يسمى بالشيوعية الوطنية ، التي تعني في الجوهر التخلي عن الثورة الاشتراكية وخيانة مصالح الطبقة العاملة . ان الافكار التحريفية عن « الشيوعية الوطنية » يدحضها كل مجرى الحركة الشيوعية الثورية .

والجامدون عقائديا يهملون ضرورة اخذ الظروف التاريخية الملموسة بعين الاعتبار عند القيام بالثورة ، ويقولون ان الثورة تتم في كل مكان ودائما بنفس المخططات المعدة سلفا . ان اضرار هذه المواقف تكمن في انها تقلل من شأن المبادرات الخلاقة للجماهير الشعبية وتقوض ايمانها بالاشتراكية وتخلق بهذا مصاعب جدية في طريق تطورها .

ان وجهات النظر التحريفية والجامدة كانت قد انتقدت بشدة في بيان اجتماع موسكو لممثلي الاحزاب الشيوعية والعمالية عام ١٩٥٧ . فقد اوضح

البيان ان استبدال الراسمالية بالاشتراكية **في جميع البلدان** هو عملية ثورية واحدة ، لها قوانينها العامة الملازمة لها والتي لها اهمية مبدئية . وهذه القوانين هي :

– قيادة جماهير الشغيلة من قبل الطبقة العاملة ، التي يشكل الحزب الماركسي اللينيني نواتها ، وعن طريق ثورة بروليتارية بهذا الشكل او ذاك واقامة ديكتاتورية البروليتاريا بهذا الشكل او ذاك ايضا .

– تحالف الطبقة العاملة مع الجماهير الفلاحية الاساسية وسائر فئات الشغيلة .

– تصفية الملكية الراسمالية واقامة الملكية الاجتماعية على وسائل الانتاج الاساسية .

– التحويل الاشتراكي التدريجي للاقتصاد الزراعي .

– التطوير المبرمج للاقتصاد الوطني بهدف بناء الاشتراكية والشيوعية ورفع مستوى معيشة الشغيلة .

– تحقيق الثورة الاشتراكية في الحقل الايديولوجي والثقافة ، وتكوين المثقفين ، والمخلصين للطبقة العاملة والشعب الشغيل ولقضية الاشتراكية ، بعدد كبير .

– تصفية الاضطهاد القومي واقامة المساواة والاخوة والصداقة بين الشعوب .

– الدفاع عن المكتسبات الاشتراكية ضد اعتداءات الاعداء الخارجيين والداخليين .

– تضامن الطبقة العاملة في البلد المعين مع الطبقة العاملة في سائر البلدان ، تأكيدا للاممية البروليتارية .

ان الماركسية اللينينية اذ تشير الى هذه القوانين العامة الملزمة للانتقال الى الاشتراكية ، فانها لا تهمل مطلقا الخصائص القومية لهذا البلد او ذاك ، على العكس ، انها تتطلب ان تطبق القوانين العامة بشكل خلاق ينسجم مع الظروف التاريخية الملموسة . ان البلدان المختلفة لها مستويات اقتصادية مختلفة وتناسب القوى الطبقية فيها مختلفة ايضا . كما تختلف فيها التقاليد القومية والتاريخية . ان هذا كله بالتأكيد يسبب الاختلاف وخصائص التطبيق في اشكال وطرائق بناء الاشتراكية ووتائر التحويلات الاشتراكية .

وتواجه الاحزاب الماركسية مهمة بالغة الاهمية وهي الانسجام بحذق مع الظروف القومية الخاصة التي تلازم كل بلد على انفراد ، وان تجد ، وفقا لهذا ، اشكالا واساليب تحقق بها القوانين العامة الرئيسية للثورة الاشتراكية .

وهكذا نكون قد بينا ماذا يعني الخاص – (المنفرد) ، وقلنا انه مرتبط

بشكل لا ينفصل بالعام ، والان سوف نتعمق في تحديد تصوراتنا عن الخاص وسنشرح ماذا تمثل الاشيــاء الخــاصة والظواهر التي يصادفهــا الانسان باستمرار .

ان الصورة عما يمثله شيء مــا تعطينا اياها قبل كل شـــيء المفاهيم الاساسية عن المحتوى والشكل .

٣ . المحتوى والشكل

ما هو المحتوى والشكل المحتوى هو مجموع العناصر والعمليات التي تكـون الشيء المعين او الظاهرة المعينة . **والشكل** هو هيكل المحتوى وتنظيمه ، الذي هو ليس امرا خارجيا بالعلاقة بالمحتوى ، وانما امر داخلي يلازمه . فالجزئيات « الاولية » والعمليات المرتبطة بحركة العنصر الكيماوي تمثل محتواه . وترتيب هــذه الجزئيات واسلوب توزيعها في الذرة يكون شكله . ان محتوى الجسم الحي هو عمليات استحالة الغذاء (الدثور والتجدد ، والتحول الكيماوي) والانفعال والانكماش وغيرها . وكذلك الاجهزة والانسجة والخلايــا التي تجري فيهــا هــذه العمليات . ان النظام الــذي تتم فيه العمليات الحية فــي الجسم وهيكل اجهزته والانسجة فيه تمثل شكــل الجسم العضوي الحــي . وان المحتوى والشكل يلازمان جميع الظواهر الاجتماعية . فالقوى المنتجة (ادوات الانتاج والناس الذين يستخدمون هذه الادوات) تمثل محتوى اسلوب انتاج تاريخي معين وعلاقات الانتاج (الرابطة المتبادلة بين الناس في عملية الانتاج القائمة على اساس علاقتهم بأدوات الانتاج) هي الشكل .

ان المادية الدياليكتيكية تنطلق من **وحدة** المحتوى والشكل وعدم انفصال احدهما عن الاخر . فالشكل والمحتوى امران ملازمان للشيء المعين ، ولذا لا يمكن ان ينفصل احدهما عن الاخر . فلا يوجد محتوى بشكل عام ، وانما يوجد محتوى في شكل معين . وكذلك لا يوجد شكل مجرد خالي من اي محتوى . ان الشكل هو دائما ذو محتوى ، وهو يفترض محتوى محددا بشكل هو هيكله ونظامه .

الاهمية المقررة للمحتوى والــدور الفعال للشكل بعد ان بينا ان كل شيء يمثل وحدة لا تنفصم بين المحتوى والشكل ، لننظــر الان كيف يترابط المحتوى والشكل ، وما هو التأثــير المتبادل في عملية تطور الاشياء .

ان المحتوى يتميز بفعالية كبيرة . فبقوة التناقضات الملازمة له يتطور باستمرار ، ويتحرك ، وبعد هذا وتبعا لتغيرات المحتوى يتبدل الشكل .
ان المحتوى يقرر الشكل .

لنرى كيف يتطور الانتاج الاجتماعي . ان هذا التطور يبدأ دائما بالمحتوى - القوى المنتجة . ان الناس في سعيهم للحصول على اكبر قدر ممكن من الخيرات المادية يحسنون ادوات الانتاج باستمرار ، ويزيدون تخصصها . وهذا يؤدي بشكل حتمي الى تبدل شكل الانتاج الاجتماعي - علاقات الانتاج .

وفي الطبيعة ايضا فان الشكل يتحدد من قبل المحتوى ، فقد برهنت بيولوجيا ميتشورين انه اذا ما تبدلت ظروف وجود الكائن العضوي الحي ، تتبدل في البداية وظائفه : النوع الملازم له من استحالة الغذاء وسائر العمليات الاخرى التي تشكل محتوى الحياة ، وتظهر مواد بروتينية جديدة وهكذا . وبعد هذا وعلى اساس تبدل المحتوى يتبدل الشكل - ترتيب وهيكل الجسم العضوي . فاذا ما نقلنا نباتا من مناخ رطب الى آخر جاف فان الطابع الملازم له لاستحالة الغذاء يتبدل . وان هذا التبدل سيحدث في الاتجاه الذي يعطي النبات امكانية الحصول على الرطوبة اكثر مما يفقده منها. وطبقا لهذا يتبدل تركيب الجسم العضوي فجذوره تتغلغل اعمق في الارض وتحصل من هناك على رطوبة اضافية ، واوراقه تتقلص وبالنتيجة فان الرطوبة تتبخر من مساحات اقل بكثير .

ورغم ان الشكل ينشأ عن المحتوى ، فانه لا يظل في علاقة سليمة به . ذلك انه يؤثر **بشكل فعال** على المحتوى ، يساعده على التطور او يعيق تطوره . فالشكل الجديد الذي يلائم المحتوى يساعد على تطوره وعلى تحركه الى امام . اما الشكل القديم الذي لا يتلاءم ومحتواه فانه يعيق تطوره . واذا ما عدنا الى مسألة تطور الانتاج الاجتماعي ، بالعلاقة بهذا الموضوع ، فسنقتنع بأن الشكل الجديد - علاقات الانتاج - لا يتبع فقط المحتوى ، وانما يلعب هو نفسه دورا فعالا في تطوره . فعلاقات الانتاج الاشتراكية التقدمية تضمن زيادة سريعة لا مثيل لها ونهوضا للاقتصاد الاشتراكي كله ، في حين ان علاقات الانتاج في الراسمالية المعاصرة نعيق وتعرقل تطور القوى المنتجة ، واحيانا تؤدي الى تخريبها بشكل مباشر .

ومما قلنا تنشأ ضرورة عدم التقليل من اهمية الشكل في التطور . ونعرف من تاريخ حزبنا بأن اعداء الماركسية - الانتهازيين - في سعيهم لاعاقة تشكيل حزب ثوري من نوع جديد ، انكروا دور الاشكال التنظيمية للحزب حيث اعلنوا بهذا الصدد ، بأن الشكل سلبي ، خامل وليس له اي تأثير

على محتوى النضال الثوري .

وقد حطم لينين الانتهازيين واشار الى الاهمية العظيمة للاشكال التنظيمية في كامل نشاط الحزب . وفي كتابه « خطوة الى الامام خطوتان الى الوراء » اهم الاسس التنظيمية للحزب التي قام على اساسها حزب من نوع جديد في الواقع . ان الشكل المتقن لتنظيم حزبنا الذي يكمن في اساسه مبدأ المركزية الديمقراطية اعطاه الامكانية لان يقود بنجاح نضال البروليتاريا الثوري والبناء الاشتراكي .

وبانتصار الاشتراكية ودخول الاتحاد السوفييني في مرحلة البناء الواسع للشيوعية فان دور واهمية الحزب الشيوعي في حياة المجتمع السوفييتي قد ازدادا . وهذا ما يفرض تحسين اشكال وطرائق نشاطه ، هذا التحسين الذي وجد تعبيره في النظام الداخلي الجديد للحزب الذي اقره المؤتمر الثاني والعشرون .

وعندما نحلل التأثير المتبادل بين الشكل والمحتوى ، ينبغي ان نضع في بالنا ، بأنه تبعا للظروف ، فان محتوى معينا يمكن ان يتطور **باشكال مختلفة** .

فالتجربة المعاصرة للحركة الشيوعية العالمية تعرف ليس شكلا واحدا لديكتاتورية البروليتاريا ، التي هي محتوى المرحلة الانتقالية من الراسمالية الى الاشتراكية . ففي بلادنا ظهرت السوفيتات ، مندوبي الشغيلة ، كشكل لديكتاتورية البروليتاريا ، وفي بلدان النظام الاشتراكي العالمي الاخرى ، ظهرت ـ الديمقراطية الشعبية . وليس من المستبعد ان يعطينا المستقبل اشكالا اخرى لديكتاتورية البروليتاريا .

ان تعدد الاشكال وتنوعها يدعم المحتوى ويغنيه ويجعله متعدد الجوانب ، ويعطيه امكانية التطور في اشد الظروف اختلافا . ولهذا فمن الاهمية بمكان في تطبيقات النضال الثوري والبناء الشيوعي ان نحذق اختيار الاشكال التي تتجاوب على احسن شكل ، مع الظروف التاريخية الملموسة .

التناقضات بين الشكل والمحتوى

لكي نفهم بشكل اتم العلاقة بين المحتوى والشكل ، من المهم ان نبين الطابع **المتناقض** لهذه العلاقة . لقد لقد اشرنا الى انه خلافا للمحتوى فان الشكل اكثر ثباتا ، واقل حركة . ولهذا فانه يتأخر عن تطور المحتوى ويشيخ ويدخل في تناقض معه . ان التناقض بين الشكل القديم والمحتوى الجديد ، عادة ما ينتهي بترك الشكل القديم واستبداله بآخر جديد . وبنتيجة هذا فان المحتوى يحصل على مجال ارحب لتطوره اللاحق .

فبتبدل ظروف الجسم الحي يضطر الى تمثيل مواد غذائية جديدة. وتبعا

لهذا فان محتوى الجسم العضوي ، اي نوع استحالة الغذاء الذي يلازمه، وكل نشاطه الحيوي يتبدل بهذه السرعة او تلك . اما ما يتعلق بالشكل ، اي تركيب الجسم العضوي ، فانه لا يلحق بتطور المحتوى ويدخل في تناقض معه . وهذا التناقض يحل بتبديل تركيب الجسم العضوي ونتيجة لهذا فان الاجهزة الموجودة يعاد تشكيلها او تظهر اجهزة جديدة . فمثلا بانتقال العضويات من الظروف المائية الى ظروف الحياة على اليابسة تطورت الرئة مكان الخياشيم والاطراف مكان الزعانف و ... الخ .

كما يوجد التناقض بين المحتوى والشكل في التطور الاجتماعي . واوضح مثال على ذلك هو مثال تطور الانتاج الاجتماعي نفسه .

فالمحتوى (الذي هو القوى المنتجة) يدخل ، في مجرى تطوره ، في تناقض مع الشكل القديم (الذي هو علاقات الانتاج) . وهذا التناقض يحل عن طريق استبدال علاقات الانتاج القديمة بعلاقات انتاج جديدة تضمن تطور القوى المنتجة اللاحقة من غير عوائق . وان هذه التناقضات بين المحتوى والشكل في الراسمالية لها طابع تناحري ، ومن هنا تأتي ضرورة الثورة الاجتماعية ، المدعوة لان تبدل الشكل الراسمالي القديم للانتاج بآخر جديد اشتراكي . وفي الاشتراكية ايضا توجد تناقضات بين شكل ومحتوى الانتاج الاجتماعي . غير ان هذا التناقض ليس له طابع تناحري ويجري التغلب عليه بنجاح بجهود الشعب السوفييتي ، الذي يقوده الحزب الشيوعي .

ان الناس السوفييتيين اذ يتغلبون على هذه التناقضات وغيرها فانهم ينبذون الاشكال القديمة التي فات أوانها والتي تعيق البناء الشيوعي . كما تجري في نفس الوقت ، وبغير انقطاع عملية تحسين جميع اشكال الحياة الاقتصادية والسياسية والثقافية في مجتمعنا .

وبعد ان شرحنا ماذا يعني محتوى الشيء وشكله لنرى الان هل ان جميع عناصره وجوانبه هي ذات قيمة متساوية ، وهل انها جميعا تلعب دورا واحدا في وجود وتطور الشيء المعين . للاجابة على هذا السؤال ينبغي علينا ان ندرس المفاهيم الاساسية من الجوهر والظاهرة .

٤ . الجوهر والظاهرة (المظهر)

ما هو الجوهر وما هي الظاهرة ؟

ان مفهوم الجوهر قريب من مفهوم المحتوى ولكنه ليس مطابقا له . ففي حين ان المحتوى هو مجموع جميع العناصر والعمليات التي تكون الشيء المعين ، فان **الجوهر** هو الامر الرئيسي الداخلي ، والجانب الثابت نسبيا فيه (او

مجموعة جوانبه وعلاقاته) . ان الجوهر يحدد طبيعة الشيء ، وعنه تنشأ جميع جوانبه وعلاماته الفارقة الاخرى .

فجوهر الجسم العضوي الحي مثلا هو عملية استحالة الغذاء التي تلازمه . انها تكمن في اساس جميع العمليات الحياتية وتمثل الطبيعة الداخلية لكل جسم حي . وكما اشار انجلز فمن استحالة الغذاء التي تمثل الوظيفة الجوهرية للزلال تنشأ جميع العوامل الاخرى للحياة : الانفعال ، والانكماش والقدرة على النمو والحركة الداخلية(١) .

وفي الظواهر الاجتماعية فان الجوهر ايضا يعكس الجانب الداخلي الرئيسي للعمليات . ان لينين عندما عرف الاستعمار باعتباره اعلى مراحل الراسمالية ، فقد عرفه كراسمالية احتكارية . وهذا يعني ان سيطرة الاحتكارات ، التي حلت محل المنافسة هي جوهر الاستعمار . ومن سيطرة الاحتكارات تنشأ جميع العلائم الاخرى للاستعمار وقبل كل شيء الحصول على ارباح احتكارية عالية من قبل الرأسماليين الذين يدخلون في الاتحادات الاحتكارية . وان الاستعماريين في سعيهم الجشع للارباح الفاحشة يتحدون في اتحادات احتكارية عالمية ، تقسم العالم الى مناطق نفوذ لها ، ويحتكرون العمليات المالية ، ويصدرون راس المال بدلا من البضائع ، ويشددون استثمار الشغيلة في بلادهم وكذلك شعوب المستعمرات والبلدان التابعة . ان هذا كله يؤدي الى اشتداد التناقضات التي تلازم الرأسمالية الى اقصى حد . الاستعمار هو عشية الثورة الاشتراكية .

ان جوهر المجتمع الاشتراكي هو سيادة الملكية الاشتراكية والطابع المبرمج للاقتصاد ، وانعدام الاستغلال ، والتعاون والمساعدة المتبادلة بين اعضاء المجتمع ، والتأمين الاقصى للحاجات المادية والثقافية لاعضاء المجتمع بواسطة تطوير وتحسين الانتاج على اساس ارقى للتكنيك .

والان ما هي الظاهرة ؟ ان الظاهرة هي التعبير الخارجي المباشر عن الجوهر ، والشكل الذي يظهر فيه . ان استحالة الغذاء كجوهر لكل ما هو حي ، تظهر بظواهر مختلفة جدا . انها تظهر بما يقرب من ٥٠٠ الف نوع نبات وحوالى ٠٠٠ ٥٠٠ ١ نوع حيوان . وجميعها تختلف بعضها عن البعض الاخر بمظهرها الخارجي ودرجة تطورها ، وتتغذى وتنمو وتتناسل بشكل مختلف .

ان جوهر الاشتراكية يعبر عنه بمظاهر واقعنا السوفييتي اليومي : في البناء الضخم للمعامل والمصانع الجديدة ، والمراكز الكهربائية الجبارة ،

---

(١) فريدريك انجلز ـ ضد دوهرنج ص ٨٩ .

والتقدم التكنيكي العاصف الذي يتحقق في مختلف ميادين الاقتصاد الوطني، وفي الوتائر التي لا سابق لها لبناء عمارات السكن والمؤسسات الثقافية او في تقصير يوم العمل للشغيلة ، وتخفيض اسعار البضائع ذات الاستهلاك الواسع بالمفرد وغيرها .

دياليكتيك الجوهر والظاهرة بعد ان بينا ما هو الجوهر وما هي الظاهرة سنرى ما هي العلاقة الموجودة بينهما .

ان المادية الدياليكتيكية اذ تعمم منجزات العلم والنشاط العملي ، **تؤكد وحدة** الجوهر والظاهرة . ان الجوهر والظاهرة مترابطان ، ولا يمكن فصلهما . كتب لينين يقول : ان الجوهر **يظهر** ، والظاهرة **جوهرية** . ان الظاهرة هي دائما جوهر ولكنه مأخوذ بالعلاقة بظهوره في الواقع المباشر . ان الجانب الخارجي ، السطحي للواقع والخصائص المنفردة وعناصر وجوانب الشيء هي ما نعني به بالضبط الظاهرة . والجوهر هو هذه الظواهر نفسها بمجموعها والعناصر والجوانب المختلفة نفسها ، ولكنها مأخوذة بنوعها العام الثابت العميق . ان لينين قارن بشكل مجازي الجوهر بالتيار العميق القوي الهادىء نسبيا لنهر سريع ، والذي يبدو على سطح النهر على شكل مويجات ، وموجات مزبدة وزبد « الزبد على سطح الماء والتيارات العميقة تحته ، **ولكن حتى الزبد** هو تعبير عن الجوهر (١) » ، هكذا قال لينين .

في كل ظاهرة يظهر الجوهر بالتأكيد ، ولكن ليس بشكل كامل ، بل بجزء منه فقط ، ان الظاهرة لا تستنفذ الجوهر وانما هي تميزه فقط بالنسبة لجانب واحد **منفرد** . فنظام التقاعد المعمول به في بلادنا مثلا يعكس جزءا من جوهر الاشتراكية ، يمثل هذا الجوهر فقط بالنسبة لجانب واحد ، جانب رعاية الدولة الاشتراكية لمن يشيخون من مواطنيها .

وفي الوقت نفسه لا يوجد جوهر « صرف » اي جوهر لا يظهر في شيء ما . ان كل جوهر يظهر في مجموعة ظواهر . مثل جوهر الاشتراكية ، كما ذكرنا قبل قليل ، الذي يظهر عن طريق كثرة من وقائع وحقائق حياتنا الاشتراكية اليومية .

ان الجوهر والظاهرة ليسا موحدين فقط وانما **متناقضين ايضا** ، انهما لا يتطابقان مطلقا . ان التضاد بينهما تعبير عن التضاد الداخلي لاشياء الواقع نفسها . ان الجوهر لا يرى على السطح ، انه خفي وليس سهل التناول بالنسبة للملاحظة المباشرة . انه يمكن ان يكشف فقط في مجرى دراسة مستمرة وشاملة للشيء . ذلك انه اذا ما تطابق الشكل الذي تبدو به الاشياء الاشياء وجوهرها مباشرة ، فان كل علم يصبح لا موجب له ــ كما قال

ماركس . ان مهمة العلم ان يكشف الجوهر وراء كثرة من الظواهر والجوانب الخارجية وملامح الواقع ، هذا الجوهر الذي هو العمليات الداخلية العميقة التي تكمن في اساسه .

اهمية مفهومي الجوهر والظاهرة ان معرفة دياليكتيك الجوهر والظاهرة لها اهمية بالغة في الحياة والعلم والتطبيق .

ان هذه الاهمية تكمن في انها تسلح رجال العلم بالثقة بأنه مهما كانت عملية معرفة الظاهرة موضوع البحث معقدة ومهما كان الجوهر المختفي وراءها عميقا ، فانه ستتم معرفته. فالعلماء مثلا ظلوا يراقبون الشمس بعناية سنين طويلة ، وبواسطة الاجهزة اكتشفوا فيها بقعا ، واكلاف ، والتقطوا من تيارات اشعتها مختلف الجزئيات المشعة . ولكن جميع هذه الظواهر لم تعطهم بشكل مباشر صورة عن جوهر العمليات العميقة التي تجري في الشمس ولا عن مصدر الطاقة الشمسية . وبعد بحث طويل افلح العلم في ان يكشف وراء الظواهر ، جوهر هذه العمليات . وجرت البرهنة على انه تجري في الشمس تفاعلات حرارية نووية (حيث يتكون غاز الهليوم من الهايدروجين) وان الطاقة الهائلة التي تولدها هذه العملية هي التي تحفظ حرارة الشمس العالية .

ان التعرف على الجوهر ضروري جدا ذلك ان الظاهرة كثيرا ما تعطي صورة خادعة عن طابع العملية . فالشمس تبدو وكأنها تدور حول الارض ، في حين ان الارض هي التي تدور حول الشمس في الواقع . ويمكن ان يلحظ وجود ديمقراطية في العالم الاستعماري : فهناك يعان بصورة شكلية حق الاقتراع العام وحرية الكلام ... الخ . ولكن في الواقع فان الديمقراطية في ظل الاستعمار ما هي الا نوع من الخداع ، انها ديمقراطية محدودة ، ديمقراطية للاغنياء .

ان المعرفة القائمة على اساس النظر الى مظاهر الجوهر فقط ، ليس بامكانها ان تعطي صورة صحيحة للعالم ولا يمكن ان تخدم كمرشد في العمل . وان عدم التفريق بحذق بين الظاهرة والجوهر يؤدي الى الوقوع في اخطاء جدية في النظرية والتطبيق .

ان مؤسسي الماركسية اللينينية اعطوا نماذج لا مثيل لها في تحليل جوهر الظواهر الاجتماعية . ومن بينها اكتشاف جوهر الانتاج الراسمالي ، هذا الاكتشاف الذي يشكل عصرا كاملا في تطور الفكر الاجتماعي .

ان الاقتصاديين والباحثين الاجتماعيين البورجوازيين يقتصرون على بحث الظواهر والاشكال فقط ، وزعموا ويزعمون حتى الان ، ان لا وجود لاي

استغلال في المجتمع الراسمالي . وان العامل يستلم من الراسمالي كل ما يستحقه . وان مصدر الربح الراسمالي ، على ما يقولون ، هو ليس استغلال العمال وانما الراسمال نفسه الذي يوظفه الراسمالي في الانتاج .

ان الوضع في الحقيقة هو غير هذا تماما . فالعامل يحتاج الى كمية معينة من وسائل المعيشة ، من اجل ضمان وجوده هو واعالة عائلته . ومن اجل ان يحصل العامل في ظروف الراسمالية على وسائل المعيشة هذه يضطر الذهاب لدى الراسمالي ليبيع له قوة عمله . وللوهلة الاولى تبدو القضية كما لو ان صفقة اعتيادية تتم بين بائع ومشتري . العامل يبيع قوة عمله والراسمالي يشتري ، العامل يعمل ، والراسمالي يدفع له اجر عمله .

وهكذا يبدو ، ظاهريا . ان هناك صفقة متعادلة بين الراسمالي والعامل في ظاهر العلاقات الراسمالية . وان الايديولوجيين البورجوازيين اذ يستندون الى هذا ويتحددون به ويقتصرون عليه يصلون الى استنتاج خاطيء تماما ، ذلك انهم لا يريدون ان يروا جوهر الانتاج الراسمالي .

ان ماركس لم يقتصر على بحث الظواهر السطحية للمجتمع الراسمالي. فقد كشف وراء الظاهرة ، وراء الصفقة المتعادلة ظاهريا ، بين الراسمالي والعامل ، الجوهر الاستغلالي للانتاج الراسمالي . وبرهن ماركس على ان قوة العمل . سلعة من نوع خاص ، بامكانها ان تنتج قيما مادية وان ما تنتجه من قيم يعادل ــ بشكل ملحوظ ــ اكثر مما دفع الراسمالي من اجلها على شكل اجور . ان الراسمالي يدفع جزءا فقط من قيمة المنتجات التي ينتجها العامل ويمتلك الجزء الاخر . وفي هذا ، وفي هذا فقط ، يكمن مصدر الربح الراسمالي .

ان اكتشاف ماركس لجوهر الاستغلال الراسمالي له اهمية تاريخية عظيمة ، ذلك انه مكن من كشف اساس التناحر بين البورجوازية والبروليتاريا والبرهنة على ان النضال بينهما ، الذي يؤدي في النهاية الى الثورة الاشتراكية ، وفناء الراسمالية ، انما هو حتمي لا مناص منه .

ان هذا النموذج الكلاسيكي لدراسة الظواهر الاجتماعية يبين بشكل مقنع تماما الاهمية العظيمة لمعرفة الجوهر بالنسبة للعلم والنشاط الثوري .

وهكذا نكون قد شرحنا ما هو الخاص والعام والمحتوى والشكل والجوهر والظاهرة . اي كل ما يعطي صورة عن الشيء المعين والظاهرة المعينة . ولكننا نعرف ان الاشياء والظواهر لا توجد منفصلة ، منعزلة عن بعضها البعض ، وانما توجد فقط في علاقة متبادلة ، ولا يمكن فهم اي منها خارج هذه العلاقة ودراسة شيء ما بالعلاقة بالاشياء الاخرى ، نعني ــ قبل كل شيء ــ ان نبين سبب ظهوره ولهذا فسننتقل الى بحث المفاهيم الاساسية

عن السبب والنتيجة .

٥ ـ السبب والنتيجة .

ما هو السبب ؟ وما هي النتيجة ؟

نلاحظ في العالم الموضوعي الذي يحيط بنا تأثير متبادل مستمر بين الظواهر ، تكون فيه بعضها سبب لولادة وظهور اخرى ، وهذه بدورها تولد ثالثة وهكذا . فالاحتكاك مثلا يسبب الحرارة ، وانعدام المطر ، اي الجفاف ، يسبب انعدام المحصول وهكذا . كما ان التأثير المتبادل بين الظواهر يلاحظ في العمليات الاجتماعية . فالحركة الوطنية الثورية الجبارة للشعوب المضطهدة تسبب انهيار نظام السيطرة الاستعمارية .

ان الظاهرة او مجموعة الظواهر المتفاعلة التي تسبق ظاهرة اخرى وتسببها هي ما نسميه **السبب** . والظاهرة التي تنشأ من تأثير السبب تسمى **النتيجة** .

ان السبب يسبق النتيجة دائما ، غير ان التتابع الزمني ليس علامة كافية على السببية . فالنهار مثلا يعقب الليل ، ولكن الليل ليس سببا للنهار . ان انتظام النهار والليل يسببه دوران الارض حول محورها . ان التبعية السببية بين ظاهريتين توجد فقط عندما تكون احداها ليس فقط سابقة للاخرى وانما تولدها بشكل حتمي .

ان السبب ينبغي ان لا يخلط بالذريعة (الباعث) . ان الذريعة هي الحدث الذي يسبق النتيجة مباشرة ، والذي لا يشكل بنفسه سببا لها ، ولكنه بمثابة واقع لتأثير السبب . مثلا مقتل الامير النمساوي فرديناند في مدينة سيراجيفو الصربية في حزيران عام ١٩١٤ كان ذريعة لاندلاع الحرب العالمية الاولى . اما السبب الحقيقي للحرب فقد كان التناقضات بين الدول الاستعمارية المتصارعة .

كما ينبغي ايضا التفريق بين السبب والشروط التي ينشط فيها . ان العمل الاجتماعي هو سبب كل ثروة اجتماعية . ولكن من اجل ان يستطيع العمل ان يجلب الثروة لا بد من موضوع للعمل وادوات يعد بواسطتها موضوع العمل هذا . فليس موضوع العمل ولا ادواته يمكن لها لوحدها ان تخلق ثروة ، ولكنهما شرطان ضروريان للنشاط العملي للانسان .

ان السببية في العالم المادي ذات طابع عام شامل، ولا توجد ظاهرة بدون سبب ولا يمكن ان توجد ، وان لكل شيء سبب . و « لا دخان من غير نار » مثل شعبي حكيم . ان السببية موضوعية ولم يوجدها في الواقع عقل الانسان او قوة ما خارقة او خارج الطبيعة . ان السببية تلازم الواقع نفسه وتكتشف من قبل الانسان في عملية المعرفة والتطبيق .

ان الفهم المادي الدياليكتيكي للسببية يتعارض جذريا مع وجهات النظر الدينية عن العالم ، التي تقول بأن سبب كل ما هو موجود في العالم هو الله . فالله هوالذي خلق نظام العالم ، وهو الذي قام بعد ذلك بالمعجزات المختلفة ، فخرق هذا النظام واعاد بناء العالم . فبارادة الله يكمن – وفقا للتفسيرات الدينية – السبب الاول لجميع الموجودات . ان الدين يبشر بوجهة النظر **التليولوكية** الغائية عن العالم (من الكلمتين اليونانيتين «تليوس» ، وتعني وصول الهدف ، و « لوكوس » وتعني علم) التي تعتبر تطور العالم تحقيقا لاهداف فوق طبيعة موضوعة مسبقا . ومن وجهة نظر انصار هذا الرأي كتب انجلز بسخرية يقول : ان القطط خلقت من أجل ان تأكل الفئران، والفئران من اجل ان تاكلها القطط ، والطبيعة كلها خلقت من اجل البرهنة على حكمة الخالق .

وفي الحقيقة لا توجد أية معجزات ولا اهداف موضوعة مسبقا . وان كل شيء يتطور على اساس اسباب طبيعية ، وقوانين موضوعية . ان الطبيعة، لم تضع ، طبعا ، ولا يمكن ان تضع أية اهداف . اما في المجتمع فالوضع يختلف ، ذلك انه هنا تنشط موجودات واعية هي الناس الذين يضعون اهدافا محددة ويطمحون الى تحقيقها . غير ان هذه الاهداف ليست محددة من قبل قوة عليا ، وانما تسببها ظروف موضوعية ، من كامل مجرى التطور التاريخي . وهكذا بالضبط فان هدف البشرية العظيم ، الشيوعية ، الذي تتجه لتحقيقه جهود الشعب السوفياتي اليوم يستند الى الانسجام الكلي مع السببية الموضوعية وسنن تطور المجتمع .

ان التعاليم التي يكون بموجبها مجرى الاحداث خاضعا لسببية موضوعية ، لقانونية ، تدعى **بالدتيرمنيزم** (١) (من الكلمة اللاتينية ديترميناره وتعني أعني ، أحدد) . وتعارض الديتيرمنيزم ، التعاليم المثالية المسماة

---

(١) حتمية ، قصدية ، النظرية الجبرية . هذه هي المعاني التي يعطيها القاموس المصري وقد فضلنا ابقاءها بلفظها اللاتيني . المترجم .

ب اندیترمینیزم ، التي تنكر السببية الموضوعية ، والضرورة والقانونية . ان الديترمينيزم كما قال لينين تمثل خطأ مثاليا في مسألة السببية وتعني انتزاع نظام تطور الظواهر واسبابها ليس من العالم الخارجي الموضوعي ،وانما من وعي الانسان وعقله .

ان الديترمينيزم الدياليكتيكي لا ينسجم ليس فقط مع الانديترمينيزم بل انه لا ينسجم ايضا مع **الديترمينيزم الميكانيكي** ، الذي يجعل من التنوع الكبير للاسباب مطابقا للتأثير الميكانيكي الخارجي . ان هذا النوع من الديترمينيزم سار في علوم الطبيعة في القرنين السابع عشر والثامن عشر : حيث كان الميكانيك من بين العلوم الطبيعية التي تطورت تطورا شاملا .

ان الديترمينيزم الميكانيكي يطبق عند دراسة حركة الاجسام . وفي الحساب التكنيكي للمكائن والجسور وسائر المشاريع والخطط . غير انه من الخطأ الفاحش محاولة تفسير العمليات البيولوجية المتنوعة والنشاط العقلي والحياة الاجتماعية من مواقع الديترمينيزم الميكانيكي .

كما ان الديترمينيزم الميكانيكي غير قابل للتطبيق كذلك في الميكانيك الكفانتي وهو ميدان جديد في الفيزياء . ان الجزئيات المجهرية التي يدرسها الميكانيك الكفانتي تختلف نوعيا عن الاجسام المرئية التي يدرسها الميكانيك الكلاسيكي . فبينما يمكن ، وفقا لقوانين الميكانيك الكلاسيكي ، ان تحدد وضعية (الوضع في المكان) وسرعة الجسم المرئي بواسطة قوانين الميكانيك بالضبط وفي آن واحد ، فان هذا لا يمكن ان يتم بالنسبة للجزيء «الاولي» ففي العالم المجهري حيث لا قوة لقوانين الميكانيك الكلاسيكي تنشط قوانين الميكانيك الكفانتي التي تعطي الامكانية لكل عنصر معين ان يحدد اما وضعية واما سرعة الجزيء ، وهذا لا يتم بالضبط ، وبشكل مطلق ، وانما بشكل تقريبي فقط والى درجة معينة من الاحتمال .

ان معارضي المادية عندما اكتشفوا ان الديترمينيزم الميكانيكي لا ينطبق على الاجسام المجهرية اعلنوا « افلاس » الديترمينيزم ككل وانتصار الانديتيرمينيزم . فقد اعلنوا ان السببية في العمليات المجهرية يوجدها الانسان نفسه في مجرى عمليات الملاحظة والقياس .

ولكن في الحقيقة فان الفيزياء الحديثة لم تدحض ولا بمقدار شعرة المبدأ المادي الدياليكتيكي عن السببية ، بل بالعكس فقد اكدته من جديد . ودللت في الوقت نفسه بأن الديترمينيزم يظهر بشكل مختلف في الميادين المختلفة من الواقع المادي .

ان المادية الدياليكتيكية لا تنسجم مع الفصل الميتافيزيقي للسبب عن النتيجة ، ذلك انها ، انطلاقا من منجزات العلم والتطبيق تؤكد بأن السبب

والنتيجة **مرتبطان بشكل لا ينفصل** . فبدون سبب لا توجد نتيجة وبالعكس. ان الرابط بين السبب والنتيجة ذات طابع داخلي ، قانوني . انها تلك الرابطة التي تكون فيها النتيجة ناشئة عن السبب وتمثل نتاج فعله . ان النتيجة التي يولدها السبب لا تظل سلبية بالنسبة للسبب الذي ولدها ، وانما تؤثر فيه بشكل معاكس . فعلاقات الناس الاقتصادية في عملية الانتاج هي سبب ، ومصدر الافكار السياسية والفلسفية وغيرها ،؛ ولكن هذه الافكار من جهتها تؤثر في تطور العلاقات الاقتصادية .

ان الرابطة المتبادلة بين السبب والنتيجة تظهر في ان ظاهرة ما ،تكون في علاقة ما سبب وفي أخرى نتيجة . ان احتراق الفحم في مواقد مراجل المراكز الكهربائية هو سبب لتحول الماء الى بخار . والبخار من جهته كنتيجة لاحتراق الفحم ــ هو سبب لحركة دولاب المولد الكهربائي . وبنتيجة دوران الدولاب يظهر التيار الكهربائي ، الذي هو مصدر سبب حركة غالبية المكائن والاجهزة ، والذي يعطي الناس التدفئة والنور و ... الخ . وان هذا التسلسل المنطقي يمكن ان يستمر . وان السببية هي بالضبط ما يميز هذه السلسلة التي لا نهاية لها من الروابط المتبادلة ، **التأثير المتبادل الشامل** بين الاشياء والظواهر في العالم حيث كل حلقة فيه هي سبب ونتيجة في آن واحد .

الاهمية العلمية والتطبيقية للسببية

ان لمعرفة التبعية السببية بين الظواهر اهمية استثنائية وكبيرة في النشاط العلمي والعملي . وان الانسان اذ يكتشف اسباب الظواهر المفيدة ، فانه يستطيع ان يساعد تأثيرها ، وبهذا يسرع قدوم الظواهر والعمليات المفيدة الضرورية له . فالكولخوزات والسوفخوزات في بلادنا عندما تعرف بأن الحراثة الجيدة للارض ، والمحافظة على مواعيد البذار ، وجمع المحصول وغيرها من الاجراءات المتعلقة بالتكنيك الزراعي ، انما هي سبب لمردود عالي، فانها تحسن باستمرار التكنيك الزراعي وبهذا يتزايد المحصول .

وان معرفة اسباب الظواهر السيئة تعطي الامكانيةلازالة هذه الاسباب، وتضييق نطاق تأثيرها والحيلولة دون حدوث النتائج المضرة بالانسان . ومما له اهمية خاصة في النشاط العملي المهارة في كشف الاسباب الاساسية الرئيسية للظاهرة المعينة . ذلك ان اكتشاف الاسباب الرئيسية هو الذي يعطينا الامكانية ، لكي نفهم بشكل صحيح ، منشأ الظاهرة وجوهرها ،ومكانها بين الظواهر الاخرى ، وان نفهم القوانين التي تتطور هذه الظاهرة بموجبها .

ان السبب **الرئيسي** هو الذي لا يمكن ان تظهر ظاهرة ما بدونه . وهو الذي يسبب الملامح الاساسية لهذه الظاهرة .

ما هو ، مثلا ، السبب الاساسي ، الرئيسي لانتصار الشعب السوفياتي على المحتلين الفاشيست الالمان في الحرب الوطنية العظمى ١٩٤١ — ١٩٤٥ ؟ انه النظام الاجتماعي والحكومي السوفياتي ، وقوة القوات المسلحة السوفياتية ، وليس سعة الاراضي أو الشتاء القاسي خلال عام ١٩٤١ ، وغيرها من اشياء مماثلة ، كما يزعم الايديولوجيون البورجوازيون . ان هذه العوامل الاخيرة رغم انها تلعب دورا معينا ، فانها لم تكن بالمرة الاسباب الرئيسية الحاسمة .

واذا ما اخذنا بعين الاعتبار تنوع الاسباب ، فان الحزب الشيوعي يسعى باستمرار وقبل كل شيء من اجل الكشف عن الاسباب الرئيسية الحاسمة . ان البراعة في تشخيص الاسباب الرئيسية من بين اسباب متنوعة وكثيرة ، يعطينا الامكانية لان نجد في الواقع الحلقة **الاساسية** الخاصة في سلسلة الاحداث ، والتي بحلها نستطيع حل جميع المهام التي تواجه الحزب والشعب في هذه المرحلة او تلك . وقد اشار لينين الى ان فن السياسة يكمن في الكشف عن الحلقة الاساسية في سلسلة الظواهر الاجتماعية والتقاطها بقوة وضمان النجاح الكامل في العمل عن هذا الطريق.

ان الحلقة الرئيسية للتطور اللاحق للاقتصاد الوطني في الاتحاد السوفياتي هي الاسراع في التقدم التكنيكي . قال خروتشوف : ان الاسراع المتواصل في التقدم التكنيكي هو الحلقة الرئيسية في حل مهمة خلق القاعدة المادية والتكنيكية للشيوعية . ان حزبنا منطلقا من هذا ، نظم وقاد الحملة الشعبية الشاملة من اجل التقدم التكنيكي .

ان السببية هي الرابطة الشاملة الاكثر عمومية . غير انها لا تستنفد كل روابط الواقع المتنوعة ، وانما تمثل ، كما اشار لينين ، جزءا من الرابطة العالمية . وفي الشبكة المعقدة من الروابط السببية في العالم تمتلك اهمية بالغة ايضا روابط الضرورة والصدفة . وهي ما سنبحثه الان .

٦ — الضرورة والصدفة .

ما هي الضرورة ؟ وما هي الصدفة ؟

من اجل ان نفهم بشكل اسهل ما هي الضرورة وما هي الصدفة سنجيب اولا على هذا السؤال : هل ان جميع الاحداث حتمية في ظروف معينة ،

وهل انها جميعا يجب ان تجري في ظل هذه الظروف ، بهذا الشكل وليس بشكل آخر ؟

من المعلوم للجميع اننا اذا ما بذرنا بذرة نبات ما في الارض . فاذا ما وجد الماء والحرارة ، فانها ستنبت . ولكن يمكن ان يصادف ان يسقط صقيع وان تموت النبتة . فهل ان هذين الحادثين (انبات البذرة وموت النبتة) هما حتميان ؟

كلا ، ليس الاثنان حتميين . ان التجربة اليومية تدلل على ان انبات البذرة في ظروف معينة ، اي اذا ما وجدت الرطوبة والحرارة الملائمتين ، هو حتمي . فهذه هي طبيعة النبات . اما فيما يتعلق بالصقيع ، فهو يمكن ان يوجد ويمكن ان لا يوجد ، ويمكن ان يحطم النبات ويمكن ان يسبب له اضرارا فقط . ان سقوط الصقيع لا ينشأ نهائيا عن طبيعة النبات . وفي ظروف معينة فانه ليس حتميا بالمرة .

ان الظواهر والاحداث التي تحدث حتما في ظل ظروف معينة تسمى **ضرورة** (في مثالنا السابق انبات النبتة النبتة ضرورة) . بالضرورة يعقب النهار الليل ويحل فصل محل اخر ، وضروري ايضا انبثاق ونمو الحركة الشيوعية للطبقة العاملة في ظل الرأسمالية ، فان هذا الانبثاق ينشأ من ظروف حياتها ومن الوضع الذي تشغله في المجتمع ومن المهام التي يضعها التاريخ امامها .

ان الضرورة تنشأ من جوهر الظاهرة المتطورة وطابعها الداخلي ، وتكون دائمة وثابتة بالنسبة للظاهرة المعينة .

وخلافا للضرورة فان **الصدفة** (وهي في مثالنا السابق موت النبتة بسبب سقوط الصقيع) ليست حتمية . ففي ظل ظروف معينة فانها يمكن ان تحدث ويمكن ان لا تحدث ، ويمكن ان تسير بهذا الشكل او ذاك . ان الصدفة لا تنشأ عن طبيعة الشيء المعين . انها ليست ثابتة ، بل مؤقتة . غير ان الصدفة ليست بدون سبب . ان سببها ليس في الشيء نفسه ، وانما في خارجه ، في الظروف والاوضاع الخارجية .

دياليكتيك الضرورة والصدفة

ان الضرورة والصدفة مترابطتان دياليكتيكيا . فان حادثا ما ، هو نفسه ، يكون ضرورة ، ويكون صدفة ، ضرورة في علاقة معينة ، وصدفة في اخرى . فالصقيع الذي هو صدفة بالنسبة لموت النبتة هو ضرورة نتيجة الظروف الجوية الناشئة في المنطقة التي سقط فيها .

وعلى الضد من انصار الدياليكتيك . ينكر الميتافيزيقيون الترابط بين الضرورة والصدفة . فبعضهم يعترف بالضرورة وينكر أية صدفة في التطور . وان كل شيء يتم ، بالنسبة لهم ، بشكل حتمي بالضرورة ، ولهذا فان الانسان عاجز عن ان يقوم بأي شيء ؛ انه يجب أن ينتظر بشكل سلبي مجرى الاحداث الحتمي الذي لا مردله . واخرون يعترفون بالصدفة فقط ، وهذا يعني في الجوهر التخلي عن العلم ، وعن الاعتراف بقدرة الانسان على التنبؤ بمجرى الاحداث . وتوجيهها .

ان الضرورة والصدفة يمكن ان تتحولا من واحدة الى اخرى : فالصدفة في ظروف ما ، تصبح ضرورة في ظروف اخرى متبدلة وبالعكس . في المجتمع البدائي - مثلا - كان تبادل البضائع يتم بشكل صدفة . ذلك ان كل مجموعة تستهلك اعتياديا ، كل ما تنتجه . وبظهور وتطور الملكية الخاصة اتسع تبادل البضائع وفي الراسمالية اصبح ضرورة موضوعية .

ولا يمكن ان توجد ضرورة وصدفة محضتين منعزلتين عن بعضهما . فالضرورة تظهر كاتجاه رئيسي ، كميل للتطور ؛ في هذه العملية او تلك ، ولكن هذا الميل يشق طريقه خلال صدف كثيرة . ان الصدفة **تكمل** الضرورة وتمثل **شكل ظهورها** . ووراء الصدف الكثيرة تكمن باستمرار ضرورة موضوعية قانونية . لنأخذ غازا ما محصورا في اناء . ان جزئيات هذا الغاز توجد في حركة دائمة غير منتظمة ، وتصطدم فيما بينها صدفة وكذلك تصطدم بجدار الاناء . ورغم هذا فان ضغط الغاز على جميع الجدران هو واحد ، فهو يحدد بالضرورة من قبل قانون فيزيائي . وهكذا فوراء الحركة العفوية للجزئيات تشق الضرورة طريقها ؛ هذه الضرورة التي تحدد الضغط وكذلك الحرارة والكثافة وغيرها من صفات الغاز . ان الصدفة هي شكل لظهور الضرورة في التطور الاجتماعي . ان نشاط قانون القيمة في الراسمالية يظهر في التذبذبات العفوية للاسعار في السوق التي تنشأ تحت تأثير العرض والطلب .

أهمية مفهومي الضرورة والصدفة

ومن الاهمية بمكان في النشاط العلمي والعملي ان نأخذ بنظر الاعتبار الدياليكتيك الموضوعي للضرورة والصدفة . ان مهمة العلم هي بالضبط الكشف وراء المظهر الخارجي . والاحداث العفوية الكثيرة ، الروابط الداخلية ، الروابط الضرورية . ان معرفة القوانين والضرورة الموضوعية تعطي الانسان الامكانية لان يخضع لمصالحه الكثير من الظواهر في الطبيعة

والحياة الاجتماعية . ان اي علم ينبغي ان يتجه اولا وقبل كـل شيء الى معرفة الضرورة . وبهذا المعنى يقال ان العلم هو عدو الصدفة . فمهمة العلوم الاجتماعية مثلا هي معرفة الضرورة الموضوعية لتطور المجتمع وعلى اساس هذه الضرورة المعروفة تتم اعادة بناء النظام الاجتماعي لصالح الانسان الشغيل .

غير ان العلم لا يمكن ان يهمل الصدفة . ذلك ان الصدف موجودة ولها تأثير معين على مجرى عمليات الواقع ، وان العلم ملزم بأن يحسب الحساب لدورها في التطور ، ويقي الانسان من تأثير الصدف الضارة . فعلم الزراعة مثلا مدعو لاعداد اساليب لفلاحة الارض ولرعاية المحاصيل وجمعها ، التي تعطي امكانية الحصول على محاصيل وفيرة رغم كل تقلبات المناخ .

ان الترابط بين الضرورة والصدفة في الظروف التاريخية المختلفة لا يظهر بشكل واحد . ان سيطرة الملكية الراسمالية تسبب تأثيرا عفويا للضرورة في ظروف الراسمالية . ان قانون القيمة وقانون الفوضى والمزاحمة يشقان طريقهما هنا خلال صدف لا حصر لها . ولهذا فان الناس في ظل الراسمالية محرومون من امكانية قيادة حياة المجتمع بشكل صحيح . انهم يظهرون وكأنهم دمى عمياء في ايدي هذه القوى الفوضوية . ان الفوائد والارباح ـ هي الضابط الضروري للانتاج الراسمالي ؛ غير ان هذا الضابط يفعل فعله من خلال العديد من التقلبات العفوية للاسعار في السوق الناشئة عن تبدلات العرض والطلب ، العفوية ايضا . كما ان توزيع قوة العمل في الراسمالية يتم بشكل عفوي . كل هذا يخلق لدى العامل انعدام الثقة بالغد. ففي كل لحظة يمكن ان يصبح عاطلا وان يحرم من الوسائل الضرورية للعيش. ولا يشعر بالاطمئنان في الراسمالية حتى مالك المشروع ، وخصوصا الصغير او المتوسط ، الذي يمكن ان يتعرض للخراب في اية لحظة ولا يفلح في الصمود في الصراع مع المزاحمين الذين هم اقوى منه .

وفي ظل الاشتراكية ، وبسبب القوانين الملازمة لها ، يحصل الناس على امكانية التنبؤ بمجرى الاحداث التاريخية وان يخططوا نشاطهم في جميع الميادين . ان الضرورة الاجتماعية تظهر هنا في نشاط الناس الواعي الهادف. وان الدليل على الاستفادة الحاذقة من الضرورة في التطور الاجتماعي هو خططنا للاقتصاد الوطني .

ان النشاط الواعي المتناسق للناس السوفيات الذين يقودهم الحزب الشيوعي يضيق الى حد كبير دور الصدفة في بلد الاشتراكية . غير انه في الاشتراكية ايضا توجد الصدف وتعمل ، فتوجد في الاقتصاد صدف حيث تسبب اوضاع عفوية مختلفة تؤخر هذا الفرع او ذاك من فروع الصناعة

او الزراعة او مشاريع معينة عن تنفيذ برامجها مما يؤدي الى نوع من عدم التناسق والتوافق في تطور الاقتصاد الوطني . واحيانا ترتبط الصدف بالظروف المناخية من جفاف وفيضان وصقيع و ... الخ .

ان الحزب الشيوعي والحكومة السوفياتية يسعيان الى الهبوط بتأثير الصدف الضار في مجتمعنا الى ادنى حد . ولهذا الهدف يجري باستمرار اتقان التخطيط وتنظيم الانتاج واستخدام المنجزات العلمية ، واوجد نظام متين للاحتياطات الحكومية . ونظرا لان عددا كبيرا من الانحرافات العفوية عن الخط المرسوم للتطوير هي نتيجة ضعف القيادة من قبل بعض قادة الاقتصاد فقد اولى الحزب اهتماما خاصا لتحسين وتوطيد قيادة القطاعات المختلفة للاقتصاد الوطني ولتربية الشعور بالمسؤولية لدى الملاكات القائدة عن الاعمال المعهودة لها .

ان الضرورة تظهر دائما في ظروف موضوعية محددة . غير ان الظروف نفسها تتبدل . ووفقا لهذا تتبدل الضرورة وتتطور . غير ان كل ضرورة جديدة لا تظهر بصورة جاهزة متكاملة ، وانما توجد في البداية على شكل امكانية لا تتحول الى واقع الا عندما توجد الظروف الملائمة .

لنبحث الان في المفهومين الاساسيين : الامكانية والواقع .

٧ ـ الامكانية والواقع .

ما هي الامكانية ؟ وما هو الواقع ؟

ان الجديد ، المتطور هو ضروري ، ولكنه لا يظهر مرة واحدة . ففي البداية تنشأ فقط ظروف ومقدمات وعوامل ظهور الجديد ، ومن ثم تنضج هذه المقدمات وتتطور ، وبفعل القوانين الموضوعية يظهر الشيء الجديد والظاهرة الجديدة . وان هذه المقدمات لظهور الشيء الجديد ، التي تكون موجودة تسمى امكانية ، فكل جنين مثلا يحوي امكانية للتطور والتحول الى جسم عضوي نامي . والجسم العضوي النامي المتطور عن الجنين انما هو واقع . ان **الواقع** يمثل امكانية محققة .

ان الامكانيات تنشأ عن السنن الموضوعية وتولد منها . فقانون وحدة الجسم العضوي والوسط المحيط يخلق امكانية ايجاد انواع جديدة من الحيوانات والنباتات عن طريق تبديل الظروف الطبيعية من اجل ان تؤثر تأثيرا هادفا على الجسم العضوي . وان قانون التطور المبرمج المتناسق للاقتصاد الوطني في الاشتراكية يخلق امكانية التخطيط ... الخ .

وما دامت الاشياء والظواهر في العالم متناقضة ، فان الامكانيات هي بدورها متناقضة ايضا . ويجب ان نميز بين الامكانيات **التقدمية** (الايجابية) **والرجعية** (السلبية) . فان كل ثورة اجتماعية مثلا تحوي امكانية ايجابية في انتصار القوى التقدمية ، وامكانية سلبية لانتصار القوى الرجعية . ولكن سبب فعل القوانين الموضوعية للتاريخ تنتصر في النهاية الامكانيات التقدمية ، في حين ان انتصار الامكانيات الرجعية ، رغم تحققه في حالات منفردة ، هو ذو طابع مؤقت انتقالي . فقد كان مؤقتا ، مثلا ، انتصار الرجعية في ثورة ١٩٠٥ ـ ١٩٠٧ في روسيا ، اذ ما ان مرت سنوات حتى كسبت البروليتاريا في عام ١٩١٧ ، بتحالفها مع الفلاحين نصرا حاسما على القيصرية أولا ومن ثم على البورجوازية .

وككل شيء في هذا العالم ، فان الامكانيات **تتطور** ، **تتحرك** . فبعضها ينمو ويتسع ، وبعضها يتضاءل ويضيق . فبلادنا كما هو معروف هي الاولى التي قطعت سلسلة الاستعمار وتطورت لوقت طويل وهي مطوقة من قبل الدول الاستعمارية . وبسبب هذا فقد كانت توجد في بلادنا بعد انتصار الثورة الاكتوبرية العظمى الى جانب امكانية انتصار الاشتراكية ، امكانية انتصار الاشتراكية ، امكانية معينة لاعادة الراسمالية . وبتنامي قوة البلاد السوفياتية فان امكانية انتصار الاشتراكية تنامت باستمرار وتحولت الى واقع . « **ان الاشتراكية ـ كما اوضح برنامج الحزب الشيوعي في الاتحاد السوفياتي ـ التي تنبأ ماركس وانجلز بحتميتها علميا ، والتي وضع لينين خطة بنائها ، اصبحت واقعا حقيقيا في الاتحاد السوفياتي** »(١) . وان امكانية اعادة الراسمالية قد تضاءلت باستمرار من جراء النجاحات التي حققها البناء الاشتراكي ، وقد انعدمت هذه الامكانية اليوم عمليا ، ذلك انه لا توجد في العالم قوى تستطيع اعادة الرأسمالية الى بلادنا وان تحطم المعسكر الاشتراكي الجبار . ان انتصار الاشتراكية في بلادنا اصبح تاما ونهائيا .

ان الدياليكتيك الماركسي يفرق بين الامكانية المجردة والامكانية الواقعية. ان الامكانية **المجردة** (الشكلية) هي تلك الامكانية التي لا يمكن تحقيقها في ظل ظروف تاريخية معينة . فتصادم كواكب المجموعة الشمسية بأجرام سماوية كبيرة اخرى ـ مثلا ـ هي امكانية مجردة ، وان درجة تحققها ضئيلة جدا .

ولا ينبغي ان نخلط بين الامكانية المجردة ، الشكلية والمستحيل . فالمستحيل هو ما لا يمكن تحقيقه ابدا ، ذلك انه يتناقض والقوانين الموضوعية.

---

(١) مواد المؤتمر الثاني والعشرين للحزب الشيوعي في الاتحاد السوفياتي ص ٤٥١ .

فليس من الممكن مثلا ان تتهادن مصالح البورجوازية والبروليتاريا . امـا الامكانية المجردة فلا تتناقض مع القوانين ويمكن ان تتحقق من وجهة مبدئية ، ولكن فقط عندما تنضج الظروف الملائمة لذلك .

ان الامكانية **الواقعية** هي الامكانية التي توجد المقدمات لتحقيقهـا في ظروف تاريخية ملموسة معينة . فتحرر **جميع** البلدان المستعمرة والتابعـة من نير الكولونيالية هو امكانية واقعية . وهذه العملية تتم امام اعيننا الان.

ان الفارق بين الامكانية المجردة والواقعية هو فارق نسبي . وفي مجرى التطور يمكن ان تتحول الامكانية المجردة الى امكانية واقعية . فحتى قبل سنوات معدودة كانت امكانية الانسان للطيران الى الكواكب الاخرى ، امكانية مجردة ، فلم توجد الوسائل التكنيكية الضرورية لهذا . اما في ايامنا فان هذه الامكانية اصبحت واقعية . ان واقعية هذه الامكانية قد ازدادت خصوصا بعد ان انجز رواد الفضاء السوفياتيون لاول مرة في التاريخ تحليقات لا سابق لها في الفضاء الكوني . ولم يعد بعيدا اليوم الذي سيخطو فيـه الانسان خطواته الاولى على سطح القمر وفي سائر كواكب المنظومة الشمسية. لقد كانت اماني الاشتراكيين الطوباويين حول امكانية الانتقال الى الاشتراكية في اوائل القرن التاسع عشر اماني مجردة ، ففي ذلك الوقت لم تكن قـد نضجت بعد الفترة المدعوة لتحقيق الاشتراكية ، ولم توجد البروليتاريـا الثورية المنظمة بما فيه الكفاية . اما في عصرنا الراهن فان هذه الامكانيـة اصبحت واقعية ، ففي جزء كبير من العالم قد تحولت الى واقع .

تحويل الامكانية الى واقع في ظروف الاشتراكية

ان تحول الامكانية الى واقع يتم في الطبيعة بشكل عفوي ، بلا وعي . اما في المجتمع فان الاهمية الحاسمة لجعل الامكانية واقعيـة هي نشاط الناس الواعي الهادف . اذ بدون تدخل فعال من جانب الانسان على اساس القوانين المعروفة لا يمكن للامكانية ان تتحول الى واقع . فامكانية حفظ السلام الموجودة اليوم ، مثلا ، تصبح واقعا نتيجة النضال النشيط لجميع قـوى البشرية المحبة للسلم من اجل السلام .

وفي مجرى النشاط العملي ، وعندما يعمل الناس على اعادة بناء العالم يكتشفون الامكانيات الموجودة فيه ويسعون من اجل تحويلها الى واقع . ومن الضروري بشكل خاص ان نأخذ بعين الاعتبار الامكانيات الواقعية وان نسعى الى تحقيقها في ظروف الاشتراكية .

ان النظام الاشتراكي السوفياتي يحـوي امكانيات عظيمة للتقـدم

الاقتصادي والسياسي والثقافي . وان هذه الامكانيات تؤخذ بعين الاعتبار بشكل حاذق وتحقق في الوقت المناسب تماما من قبل الحزب الشيوعي في الاتحاد السوفياتي الذي يدعم ويطور بعناية براعم الجديد التقدمي . ويهتم الشعب السوفياتي بأجمعه بتحقيق الامكانيات التقدمية ، ولهذا فانالامكانيات في المجتمع الاشتراكي تتحول الى واقع بوتائر لم يسبق لها مثيل .

ان الامكانية التي ظهرت نتيجة الثورة الاكتوبرية العظمى ، لاقامة الاشتراكية قد حققت عمليا وبابداع من قبل الشعب السوفياتي في فترة قصيرة جدا . ان بناء الاشتراكية اوجد امكانية واقعية جديدة ، تفوق في روعتها جميع ما عرفته البشرية من امكانيات تلك هي امكانية بناء الشيوعية.

ففي بلادنا اليوم توجد جميع الامكانيات لبناء الشيوعية . اننا نملك نظاما اجتماعيا ذا قوة بناءة هائلة . لدينا صناعة جبارة مجهزة بتكنيك حديث . وإقتصاد زراعي كبير ممكنن ، وأرقى علم في العالم . ان ثروات بلادنا الطبيعية لا حصر لها – هذه هي المقدمات الضرورية للتطور غير المحدود للاقتصاد . ولدينا كوادر موصوفة (اختصاصية) مرموقة قادرة على حل اعقد مهمات البناء الشيوعي . وان الشعب السوفييتي يقوده حزب حكيم تصلب في المعارك .

ان طرق تحويل امكانية بناء الشيوعية في بلادنا الى واقع قد حددها برنامج الحزب الشيوعي في الاتحاد السوفييتي ، الذي اعد خطة ملموسة لبناء الشيوعية . ان الشيوعية هي قضية الشعب بطاقاته وعقله . وهذا يعني ان تحويل امكانية بناء الشيوعية الى واقع يتوجب على كل انسان سوفييتي ان يعمل بنكران ذات في مجاله . ان مصير الشيوعية يتقرر مباشرة في المؤسسات ومشاريع البناء ، في الكولخوزات والسوفخوزات وفي المؤسسات العلمية . ويتوقف على الناس السوفييتيين ، على وعيهم ونشاطهم الفعال تنفيذ المشروع السباعي لتطوير الاقتصاد الوطني في الاتحاد السوفييتي ، الذي يمثل خطوة حاسمة في طريق الشيوعية .

وهكذا بدراستنا قوانين الدياليكتيك الماركسي ومفاهيمه الاساسية نكون قد حصلنا على صورة عن التطور الشامل وروابط العالم المادي . وان مهمتنا الان ان نبين كيف تتم معرفة هذا العالم المادي من قبل الانسان . ولهذا الهدف ينبغي ان ندرس (نظرية المعرفة المادية الدياليكتية) .

الفصل الثامن

نظرية المعرفة المادية الدياليكتيكية

ان المادية الدياليكتيكية ، منطلقة من التجربة الفنية التي كدستها البشرية ، والمكتسبات العظيمة للعلوم والتطبيق الثوري ، تعتبر ان العالم يمكن معرفته تماما ، وان العقل البشري قادر على أن يكون صورة صحيحة عن الواقع المادي .

لنبحث الان بالتفصيل ماذا تعني عملية معرفة العالم وكيف تتم هذه العملية .

١ . ما هي المعرفة ؟

المعرفة انعكاس فعال هادف للعالم المادي ولقوانينه في عقل الانسان . ان مصدر المعرفة هو العالم الخارجي المحيط بالانسان . انه يؤثر على الانسان ويولد لديه الاحساسات والتصورات والمفاهيم المناسبة . ان الانسان يرى الغابات والحقول والجبال ، ويستقبل حرارة الشمس ونورها ويسمع غناء الطيور ، ويشم عطر الزهور . فاذا لم تؤثر هذه الاشياء الموجودة خارج وعي الانسان عليه فانه لم يكن ليحصل على اي تصور عنها .

ان الاعتراف بموضوعية العالم واشيائه وظواهره باعتبارها **المصدر الوحيد** لمعارفنا هو اساس النظرية الماركسية ، المادية الدياليكتيكية عن المعرفة .

ان المثاليين لا يعتبرون الواقع الموضوعي مصدرا لمعارفنا . وكموضوع للمعرفة في الفلسفة المثالية يعلنون اما وعي الانسان الفرد (الذات)

واحساساته واما وعيا ما غيبيا يوجد خارج الانسان (« الفكرة المطلقة ») ، (« الروح العالمي » .. الخ) . وبمثل هذا يبشر رجال الكنيسة . فالانسان بالنسبة لهم غير قادر على معرفة جوهر الظواهر والطبيعة والحياة الاجتماعية. انه قادر فقط على تسجيل وتصنيف نتائج الابداع الالهي ، وحتى هذا يقوم به بعد ان تشمله رحمة الله .

لقد وجه الماديون قبل ماركس ضربة جدية الى المثالية والتفكير الكهنوتي ، حيث نظروا الى المعرفة كانعكاس للاشياء الخارجية في دماغ الانسان. غير ان وجهات نظرهم عن عملية المعرفة كانت محدودة وكميتافيزيقيين لم يتعلموا ان يطبقوا الدياليكتيك على عملية المعرفة . فقد نظروا للانعكاس كأثر سلبي للشيء في الدماغ البشري . فالمادي الفرنسي ديدرو في القرن الثامن عشر شبه الدماغ بالشمع الذي تترك الاشياء فيه اثرها . ان الماديين قبل ماركس لم يأخذوا بعين الاعتبار فعالية الذات العارفة اي الانسان ونشاطه الحيوي . وما عدا هذا فانهم لم يستطيعوا ان يقدروا دور التطبيق في المعرفة وفي هذا تكمن محدوديتهم .

ان ماركس وانجلز اذ تغلبا على محدودية الفلسفة التي سبقتهم في فهم عملية المعرفة صاغا نظرية من نوع جديد هي النظرية المادية الدياليكتيكية عن المعرفة .

ان الفارق الجذري للنظرية الماركسية عن المعرفة يكمن في انها **تعتبر التطبيق والنشاط المادي الانتاجي للناس اساسا لعملية المعرفة** . ففي هذا النشاط بالذات يتعرف الناس على الاشياء والظواهر . ان التطبيق ، في الفلسفة الماركسية يخدم كنقطة انطلاق ، كأساس لعملية المعرفة وكمعيار للحقيقة ولصحة المعارف . كتب لينين يقول : « ان وجهة نظر الحياة والتطبيق يجب ان تكون وجهة النظر الاولى والاساسية لنظرية المعرفة . وانها تؤدي حتما الى المادية(١) » .

وسنقف فيما بعد عند هذه القضايا بالتفصيل .

لقد كشف مؤسسو الماركسية دياليكتيك عملية المعرفة . ان المعرفة من وجهة نظر المادية الدياليكتيكية عملية لا انتهاء لها لاقتراب التفكير من المادة المعروفة ، لحركة التفكير من اللامعرفة الى المعرفة ، من المعرفة غير التامة ، غير المتكاملة نحو المعرفة الاتم والاكثر تكاملا . ان المعرفة اذ تستبدل نظريات قديمة بأخرى جديدة ، وعندما تضبط نظريات قديمة فانها تسير الى امام كاشفة جوانب جديدة وجديدة من الواقع .

---

(١) لينين ـ المؤلفات ـ ج١٤ ـ ص١٤٢ .

ولما كان التطبيق هو اساس المعرفة ، فلنشرح اذن الان ماذا يمثل وما هو دوره في عملية المعرفة .

٢ • التطبيق ــ نقطة الانطلاق واساس عملية المعرفة

ان التطبيق هو نشاط الناس الفعال في تحويل الطبيعة والمجتمع . واساسه العمل ، الانتاج المادي . وما عدا هذا فبالعمل يتعلق النضال السياسي الطبقي ، وحركة التحرر الوطني وكذلك التجربة العلمية والاختبارات . وللتطبيق طابع اجتماعي ، فهو قبل كل شيء ليس نشاط افراد منعزلين وانما مجموعات كبيرة من الناس ، لجميع الشغيلة اولئك الذين ينتجون الخيرات المادية .

وفي التطبيق يتم ليس فقط تحويل ما يوجد في الطبيعة من اشياء وانما يتم خلق ما لا وجود له في الطبيعة بشكل جاهز . ان الانسان ينتج كثيرا من المواد الاصطناعية ، التي تفوق في قوتها وجمالها وعمليتها كل ما هو معروف في الطبيعة .

ان التطبيق هو **نقطة انطلاق واساس** للمعرفة .

لماذا ؟ لان المعرفة نفسها انبثقت قبل كل شيء على اساس التطبيق وبشكل رئيسي تحت تأثير الانتاج المادي . فالانسان منذ الخطوات الاولى لوجوده كان مضطر لان يعمل ليؤمن وسائل عيشه . وفي مجرى العمل اصطدم بقوى الطبيعة وتعرف عليها اولا بأول . ان التطور المطرد للانتاج تطلب معارف جديدة وجديدة . ومنذ الماضي البعيد اصطدم الانسان بضرورة قياس قطع الارض وحساب ادوات العمل ومنتجاته . ونتيجة هذا ظهرت بوادر المعارف الحسابية . ولقد بنى الانسان المساكن وعمل الجسور والطرق واقام الانظمة المائية وغيرها من الوسائل . وكان لا بد لهذا من معارف لقوانين الميكانيك . وهكذا بالتدريج تحت تأثير الاحتياجات العملية تطورت قدرات المعرفة لدى الانسان ، وظهرت العلوم . ان التطبيق يكمن في اساس ظهور العلوم الاجتماعية . وان الماركسية نفسها ــ كما نعرف ــ انبثقت على الاساس الصلب لخبرة نضال البروليتاريا الثوري .

وما عدا هذا فان التطبيق يضع امام المعرفة مهاما محددة ويساعد على حل هذه المهام . وبهذا يدفع المعرفة الى امام . فعمل الكولخوزات والسوفخوزات الانتاجي ، في الاتحاد السوفييتي ، مثلا ، وضع امام علم الاحياء (البيولوجيا) مهمة هامة : هي اعداد اساليب وطرق لايجاد انواع من النباتات الجديدة ذات المردود العالي واصناف المواشي ذات الانتاجية

العالية . ان هذه المهمة كانت قد انجزت بنجاح من قبل الميتشوريين[1] . وقد انتشرت الاصناف الثمينة التي اوجدوها انتشارا واسعا في الكولخوزات والسوفخوزات في بلادنا .

واخيرا فان التطبيق يسلح المعرفة العلمية بالادوات والاجهزة وبهذا يساعد على نجاحات المعرفة . وقد كان من المستحيل التعرف على اسرار نواة الذرة بدون المسرعات ذات القوة الخارقة وغيرها من الاجهزة والادوات العلمية الشديدة التعقيد ، التي صنعتها الصناعة الحديثة . ولا يمكن تصور العلم اليوم دون الميكروسكوبات الكهربائية والصواريخ الكونية وكثير غيرها من ادوات المعرفة البسيطة والمعقدة . ان جميع هذه الادوات انما هي نتاج نشاط الناس المادي العملي .

ان التطبيق ليس اساس المعرفة فحسب ، بل انه هدفها . فالانسان اذ يتعرف على العالم المحيط به ويكتشف قوانين تطوره ، انما يقوم بهذا بالضبط ليستفيد من نتائج هذه المعرفة في نشاطه العملي . وفي الحقيقة لا يمكن باستمرار الاستفادة من هذه النتائج في النشاط العملي فورا . فتحطيم الذرة كان قد اكتشف قبل اكثر من عشر سنوات ، ولكن الانسان تعلم استخدام الطاقة الذرية لاهداف تطبيقية في وقت قريب جدا . ورغم ان المكتشفات العلمية كثيرا ما تظل بعيدة عن وضعها موضع التطبيق العملي فانها جميعا قد عينتها وولدتها حاجات الحياة .

وحدة النظرية والتطبيق

ان المعرفة هي نوع من انواع النشاط الانساني ، انها نشاط الناس النظري ، ولكن النظرية بمفردها ليست في وضع يمكنها من تغيير الواقع ، وهذا ما يفرقها عن التطبيق . ان المعرفة فقط تعكس العالم فقط ، وتعمم تجربة التطبيق لدى البشرية . ولكنها اذ تعمم التطبيق تظهر تأثيرا معاكسا عليه ، وتساعد على تطوره . ان النظرية بدون تطبيق تصبح غير ذات موضوع . وان التطبيق بدون نظرية يصبح اعمى . ان النظرية تشير الى الطريق وتساعد التطبيق على ان يجد اكثر الوسائل فعالية لتحقيق اهدافه العملية .

لنأخذ العلوم الطبيعية مثلا . فانها ظهرت على اساس التطبيق وتمثل نتيجة تعميم تجربة الناس الانتاجية . فانها في الوقت نفسه تسدي للانتاج مساعدة لا تثمن . فهي تساعد على اعداد طرق جديدة للانتاج وصنع مكائن

---

(1) الميتشوريين هم الذين يتبعون طريقة ميتشورين ، عالم النبات الروسي الشهير الذي اوجد انواعا عديدة جديدة لا سابق لها من النباتات عن طريق مزاوجة نوع بآخر .

واجهزة جديدة عالية الانتاجية ، ومواد اولية اصطناعية ومواد .. الخ .

وللنظرية الماركسية اللينينية اهمية استثنائية عظيمة في تطور المجتمع. فان تعميم خبرة النضال الثوري للبروليتاريا اذ يمثل انعكاسا للواقع صحيحا وعميقا للغاية ، فانه يخدم كمرشد لهـا في نضالهـا من اجل الاشتراكية والشيوعية . ان قوة تعاليم الماركسية اللينينية تكمن في انها صحيحة ، وانها اذ تكشف القوانين الحقيقية للتطور الاجتماعي ، تعطي الاحزاب الشيوعية امكانية ليس النشاط بشكل صحيح الان فقط بل والتنبؤ بالمستقبل ايضا ، وتخطيط نشاطها العملي لسنوات عديدة مسبقا . قال خروتشوف : « نحن الشيوعيين نعير اهتماما بالغا للنظرية الثورية ، واننا حققنا جميع نجاحاتنا بالضبط لاننا نسترشد دائما بالتعاليم الماركسية اللينينية . ان النظريـة الماركسية اللينينية هي بوصلتنا ونجمنا الهادي » .

ان وحدة النظرية والتطبيق هي المبدأ الاسمى للماركسية اللينينية . وان هذا المبدأ يكتسب اهمية بالغة خاصة في الظروف المعاصرة حيث تندمج النظرية الماركسية اللينينية بتطبيق بناء الشيوعية وحيث يكون حل المسائل التطبيقية لبناء الشيوعية في نفس الوقت حلا للمسائل النظرية الكبرى .

يقول برنامج الحزب الشيوعي في الاتحاد السوفياتي : « ان الاعداد النظري والحل العملي وفي الوقت المناسب للقضايا الجديرة التي تطرحها الحياة شرط ضروري للسير الناجح للمجتمع نحو الشيوعية(1) » .

ان اكمل تعبير عن مبدأ وحدة النظرية والتطبيق نجـده في نشاط الحزب الشيوعي في الاتحاد السوفييتي . ذلك ان حزبنا في كل نشاطه التطبيقي يسترشد بالنظرية الماركسية اللينينية وهو في الوقت نفسه يطور هذه النظرية على اساس متطلبات التطبيق .

وان النموذج الرائع للوحدة العضوية بين النظرية والتطبيق هو البرنامج الجديد للحزب الشيوعي في الاتحاد السوفييتي . وان الموضوعات النظرية الهـامة جدا المصاغة في البرنـامج والتي هي نتيجة تعميم خيرات البـنـاء الاشتراكي والشيوعي تخدم التطبيق ، كما ان الاجراءات العملية المرسومة في البرنامج مضاءة بالنور الوهاج للنظرية الماركسية اللينينية ، تطور في الوقت نفسه بابداع هذه النظريـة . فالموضوعة النظريـة الهامة عن ان دكتاتورية البروليتاريا قد استنفذت مهامها في الاتحاد السوفييتي – مثلا – مدعومة بالتجربة الغنية جدا التي كدسها نضال الشعب السوفييتي من اجل الاشتراكية والشيوعية. ان هذه التجربة تدلل بشكل مقنع على ان ديكتاتورية

---

(1) مواد المؤتمر الثاني والعشرين للحزب الشيوعي في الاتحاد السوفييتي – ص٥٥٨ .

البروليتاريا بعد ان انجزت رسالتها التاريخية وهي ضمان تصفية الطبقات المستثمرة ، وانتصار الاشتراكية والانتقال نحو البناء الواسع للشيوعية في الاتحاد السوفييتي ؛ فانها لم تعد ضرورية في بلادنا من وجهة نظر التطور الداخلي. ان دولة دكتاتورية البروليتاريا قد تحولت الى دولة الشعب بأسره .

ان البرنامج الجديد للحزب الشيوعي في الاتحاد السوفييتي يدلل على ان عملية بناء الاشتراكية والشيوعية هي في نفس الوقت عملية اغناء للنظرية الماركسية اللينينية على اساس التجربة العملية لملايين الناس .

٣ . من التأمل الحي الى التفكير المجرد

ان المعرفة لا تقف في مكان واحد ، انها تسير باستمرار وتتطور . ان تطور المعرفة هذا يجد تعبيره في سيرها من التأمل المباشر الحي الى التفكير المجرد . يقول لينين : « من التأمل الحي الى التفكير المجرد **ومن التفكير المجرد الى التطبيق** ، هذا هو الطريق الديالكتيكي لمعرفة **الحقيقة** ولمعرفة الواقع الموضوعي » (١) .

المعرفة الحسية ان المعرفة تبدأ دائما بالتعرف على الاشياء في العالم الخارجي بواسطة الحواس . وهذا ما تقنعنا به التجربة اليومية . فاذا ما قررنا دراسة شيء ما فاننا قبل كل شيء سوف ننظر اليه بامعان ، وسنتحسسه بأيدينا وسنذوقه و ... الخ . ان التأمل الحي المباشر للاشياء هو بالتأكيد المرحلة الاولى ، الخطوة الاولى في طريق المعرفة . انه الدرجة الاولى في نشاط الانسان من اجل المعرفة . ان الانسان عندما يكون على اتصال بالاشياء والظواهر في الطبيعة او في مجرى التطبيق فانه يحصل على الانطباعات الاولى عنها عن طريق حواسه . ان الاعضاء الحسية هي الابواب التي « يتغلغل » عن طريقها العالم الخارجي في وعي الانسان وبفضلها يتعرف الانسان على الالوان والروائح في الطبيعة وطعم الثمار ويسمع ما ينشأ عنها من أصوات .. الخ .

ان الشكل الاساسي للمعرفة الحسية هو الاحساس . ان الاحساس هو انعكاس صفات الشيء المنفردة وخواصه وجوانبه . فالاشياء يمكن ان تكون حارة او باردة ، مظلمة او مضيئة ، ناعمة او خشنة ، ان كل هذه الصفات وغيرها كثير تؤثر على حواسنا وتسبب احساسات محددة .

---

(١) لينين ـ المؤلفات المختارة ـ ج٣٨ ـ ص١٦١ .

ان تركيب الانسان العضوي يحوي جهازا فيزيولوجيا ملائما لتكوين الاحساسات . وان هذا الجهاز يتكون من الحواس والاعصاب التي يتم بواسطتها نقل التأثيرات الى الاجزاء المناسبة في الدماغ واخيرا الى تلك الاجزاء في المخ حيث تصاغ بشكل احساسات ملائمة . ان الاثارة الناجمة عن صوت معين في اذن الانسان تصبح احساسا بالصوت . وتأثير الضوء على العين احساسا بالضوء وهكذا .

ان الاهمية العظمى للاحساس في عملية المعرفة تكمن في انه يعطينا ما يتيح لنا ان نحكم على الشيء . ان عملية المعرفة اللاحقة كلها تعتمد على تلك المعلومات التي اعطتنا اياها الاحساسات . لقد عرف لينين الاحساس كصورة ذاتية للعالم الموضوعي . وهذا يعني ان الاحساس كانعكاس للاشياء الموجودة موضوعيا ليس صورة ميكانيكية منها في دماغ الانسان ، وانما تمثل صورة ذهنية لها . ان هذه الصورة تنبثق لدى كل ذات على انفراد (انسان) ومن المعلوم فانه تؤثر في طابع هذه الصورة ، بشكل محدد صفات الانسان المعني ودرجة تطور حواسه . لنأخذ المثال التالي : رفيقان اثنان يسمعان في وقت واحد موسيقى سمفونية . سمع الاول جيد ولهذا فان عزف الاوركسترا يمثل بالنسبة له تشكيلة غنية من الاصوات ، التي تثير لديه مختلف الصور وشتى المشاعر . اما الا خر فلا يملك سمعا جيدا ولم تفلح الاصوات في ان تخلق لديه انطباعا خاصا ولم تثر لديه اية مشاعر كما حصل للرفيق الاول . وبالتالي فان اثنين من الناس الاصحاء تقبلا بشكل مختلف تأثيرا خارجيا واحدا .

الا ينشأ عن هذا ان حواسنا لا تعطينا صورة صحيحة عن العالم ؟ ان مثل وجهة النظر هذه توجد في الفلسفة المثالية . ان المثاليين اللاادريين اذ ينطلقون من واقع ان الناس المختلفين لا يتقبلون بشكل واحد تماما واقعا بعينه يزعمون بأن العالم انما هو تشكيلات من احاسيس الذات وانه يوجد من العوالم بمقدار ما يوجد من الناس . وهذه وجهة نظر خاطئة ، فالحواس في الواقع لا تخدعنا . فاذا ما اثارت الشك معطيات احدى الحواس فاننا سنلجأ عندذاك الى مساعدة حاسة اخرى . وعندما لا يؤمن الانسان بما تراه عيناه يلجأ الى مساعدة يديه واذا كانت هذه ايضا غير كافية فانه سيستعين بأعين وايدي اناس آخرين . واذا لم يكفه حتى هذا فانه سيلجأ الى مساعدة الادوات ، للتجربة . للتطبيق . وهكذا فان الحواس التي يؤكد بعضها بعضا ، والتي تؤكدها حواس الناس الاخرين والتجربة والتطبيق تعطينا ؛ على

العموم ، صورة صحيحة عن الاشياء التي في متناولها .

وما عدا الاحساسات فان اشكال المعرفة الحسية هي ايضا الادراك الحسي والتصور . ان **الادراك الحسي** هو شكل اعلى من المعرفة الحسية . انه يعبر عن الشيء في كليته الحسية المباشرة ، وبمجموع جوانبه الخارجية وخصائصه . والتصور استعادة للادراك الحسي الذي نشأ في وعي الانسان سابقا . فبامكاننا مثلا ان نتصور صورة رفيق الدراسة رغم عدم رؤيتنا اياه سنين عديدة .

المعرفة المنطقية

ان اللوحة التي تعطينا اياها الحواس غنية وزاهية ، ورغم هذا فانها محدودة وبعيدة عن ان تكون كاملة . ان المعرفة الحسية تعطينا فقط صورة عن الجوانب المنفردة ، الخارجية للشيء . فبالحواس مثلا يمكننا ان نرى المصباح الكهربائي ، ولكن لا يمكننا ان نتصور التيار الكهربائي ومجرى الالكترونات التي تندفع بسرعة معينة . ولا يمكن عن طريق الحواس ان ندرك السرعة العظيمة للضوء وحركة الجزئيات « الاولية » في الذرة وكثيرا من الظواهر المعقدة الاخرى في الطبيعة والحياة الاجتماعية .

وبكلمة فان المعرفة الحسية ليس بامكانها ان تكشف الطبيعة الداخلية للاشياء وجوهرها وقوانين تطورها . في حين ان هذه هي بالضبط المهمة الاساسية للمعرفة . فمن المعروف جيدا ان معرفة قوانين وجوهر الاشياء هي وحدها التي يمكن ان تخدم كمرشد للانسان في نشاطه العملي . وهنا بالضبط يهب الى مساعدته التفكير المجرد او كما يسمونه ايضا التفكير المنطقي .

ان المعرفة **المنطقية** هي مرحلة اعلى ، جديدة نوعيا ، في تطور المعرفة . وان دورها يكمن في انها تكشف الخصائص والعلائم الرئيسية للشيء . وفي مرحلة المعرفة المنطقية تجري معرفة قوانين تطور الواقع الضرورية للانسان في نشاطه العملي .

ان الشكل الاساسي للتفكير المنطقي هو المفهوم . ان **المفهوم** يعكس ليس جميع جوانب الشيء وانما فقط الجوانب الجوهرية ، المشتركة حيث يجردها ويهمل السمات ذات الاهمية الثانوية . لنأخذ مثلا مفهوم « انسان » . ففي هذا المفهوم تنعكس ليس جميع مميزات كل الناس كل على انفراد . والمفهوم لا يحوى معلومات عن قومية الانسان وزمان ومكان ولادته او عيشه ولا عمره و .. الخ . ، انما يركز فيه على ما هو عام ، مشترك ، وجوهري يلازم كل انسان ـ اي القدرة على العمل وانتاج الخيرات المادية والقدرة على

التفكير . وكذلك تضم مفاهيم « خشب » و « حيوان » و « طبقة » و «انتاج» وغيرها ما هو مشترك وجوهري في الاشياء .

ان المفاهيم هي نتيجة نشاط العقل المستمر في التعميم ، ونتيجة اعداد دؤوب ومليء بالصعوبات لكمية هائلة من معطيات المعرفة الحسية . فالانسان اذ يدرس الاشياء بمساعدة الحواس فانه يقارن بينها ويعزل ما هو مشترك فيها ويجرده عن كل ما هو ثانوي ، ظاهري ، عفوي . وان الانسان قبل ان يكون مفهوم مثلث ومربع وغيرها من الاشكال الهندسية يواجه في نشاطه العملي الكثير من المثلثات والمربعات وغيرها من الاشياء الموجودة موضوعيا .

وفي صياغة المفاهيم تمتلك الاساليب المنطقية مثل التحليل والتركيب اهمية عظيمة . **فالتحليل** هو تجزئة الشيء او الظاهرة الى العناصر والجوانب المكونة لهما من اجل معرفة مكان تلك الجوانب في الظاهرة ، ومن اجل تعيين الجوهرية ، الرئيسية منها . اما **التركيب** فهو توحيد اجزاء وجوانب الظاهرة وهو يعطي الامكانية لفهم الظاهرة بتمامها، بوحدة جميع ملامحها وخصائصها.

ان التحليل والتركيب في المعرفة لا ينفصلان . فكارل ماركس في « الراسمال » عندما درس اسلوب الانتاج الراسمالي قسمه ذهنيا في البداية الى عدة جوانب (الانتاج ، التبادل .. الخ) ودرس كل جانب من هذه الجوانب . وبعد هذا وحد الجوانب التي درسها وبهذا حصل على معرفة الرأسمالية ككل . وهذا ما اعطاه الامكانية لان يكشف الاستغلال الرأسمالي ، ويبين بوضوح التناقضات التناحرية في الرأسمالية ويصل الى استنتاج عن فنائها المحتم .

ولاول وهلة تبدو المفاهيم والتجريدات افقر من الادراك الحسي المباشر . ولكن في الواقع فان كل مفهوم مهما كان بسيطا ، يعكس الطبيعة بشكل اعمق واتم واصدق ، كما قال لينين . انه يعكس الطبيعة بشكل اعمل واصدق لانه يبلور الجوانب الداخلية للواقع ، والتي هي في غير متناول المعرفة الحسية المباشرة . ويعكس الطبيعة بشكل اتم لانه يشمل ليس شيئا واحدا او مجموعة من الاشياء فحسب وانما كمية ، بل عددا غير محدود منها .

ان الانتقال من المعرفة الحسية الى المعرفة التجريدية يمثل قفزة دياليكتيكية في عملية المعرفة وفي حركتها من الادنى نحو الاعلى . وتتم هذه القفزة على اساس التطبيق . ان نشاط الناس العملي وحده الذي استهدف اعادة تكوين الاشياء والظواهر في العالم ، هو الذي اعطى امكانية التغلغل في جوهرها والتفريق بين المهم والثانوي ، الداخلي والخارجي . وكلما كان التطبيق اكثر تطورا وكلما كانت قوته المحولة اكبر كلما كانت معرفة الانسان اعمق واشمل .

ان المفاهيم تعكس العالم المتغير والتطبيق المتطور باستمرار ، ولذا فانها يجب ان تكون **مرنة ومتحركة** . ان كون المفهوم متحركا ومرنا يظهر في تضبيط وتعميق المفاهيم الموجودة وفي تكوين مفاهيم جديدة تناسب الظروف الموضوعية المتبدلة ، والتطبيق المتغير .

وعلى اساس المفاهيم تتكون اشكال اخرى للتفكير ـ هي **الحكم والاستنتاج** .

فالحكم هو شكل للتفكير يؤكد فيه شيء ما (مثال : الاشتراكية تعني السلم) او ينكر فيه شيء ما (مثال : الماركسية ليست صيغة جامدة) ، (دوكما) . وهكذا يظهر ان في تركيب الحكم تدخل مفاهيم معينة . ففي الاحكام المذكورة نرى مفاهيم « اشتراكية » ، « سلم » ، « ماركسية » ، « جمود » ، « دوكما » . ومن جهة اخرى لا يمكن كشف هذه المفاهيم دون احكام اخرى . مثلا « الاشتراكية نظام اجتماعي يقوم على الملكية الاجتماعية » وغيرها . ينشأ عن هذا ان المفاهيم والاحكام مترابطة فيما بينها . كما ان الاحكام نفسها مترابطة فيما بينها ايضا . وان الرابطة فيما بينها تكون شكلا خاصا للتفكير المنطقي ـ هو الاستنتاج ـ (الاستدلال) ، الاستنتاج هو التوصل الى حكم جديد (نتيجة) من احكام سابقة (مقدمات) . وبواسطة الاستنتاجات الاخرى يجري التوصل اليها استنادا الى المعارف الموجودة يمكن الحصول على معارف جديدة وفي هذا تكمن اهميتها الكبيرة في المعرفة .

ان التأليف المعقد بين المفاهيم والاحكام والاستنتاجات ووحدتها يكون اشكالا اعلى للمعرفة كالفرضية والنظرية . **الفرضية** هي رأي مسبق مفترض بشأن ظاهرة او حدث او قانون . ويمكن ان نضرب مثلا على الفرضيات بالاراء الموجودة عن منشأ الحياة على الارض ونشوء المجموعة الشمسية وغيرها . **والنظريات العلمية** تمثل معارف عميقة شاملة لبعض العمليات او الميادين المعينة في الواقع . ان هذه المعارف جرى التأكد منها بالتجربة والتطبيق . ومثال هذا النظرية المعاصرة عن نواة الذرة ، ونظرية النسبية في الفيزياء والنظرية المادية عن الوراثة في علم الاحياء (البيولوجيا) . وان النظرية العلمية الحقيقية عن تطور المجتمع هي الماركسية اللينينية .

وهكذا نجد بأن المعرفة في تطورها الدياليكتيكي قد اجتازت طريقا طويلا من ابسط الاحساسات حتى اعقد النظريات العلمية .

وحدة الحسي والمنطقي في المعرفة

ان المعرفة الحسية والتفكير المجرد في وحدة ، فهما يعكسان نفس العالم المادي ، واساسهما المشترك هو تطبيق البشرية . وان هاتين

الدرجتين في المعرفة لهما اساس فيزيولوجي واحد هو النظام العصبي للانسان .

ان التفكير المجرد غير ممكن بدون معرفة حسية ذلك ان معطيات الحواس تمثل المادة الوحيدة لتكوين المفاهيم . ولا يمكن ان يوجد اي شيء في التفكير لم يسبق ان حصل عليه الانسان بحواسه . ولكن التفكير المجرد بعد ان يكون قد ظهر على اساس الاحساس ، فانه يذهب الى اعمق مما تذهب اليه المعرفة الحسية ويغنيها ويوسع مداها . ان الانطباعات الحسية مضاءة بنور العقل تكتسب محتوى جديدا . وليس من الصعب ان نقتنع بهذا اذا ما قارنا ــ مثلا ــ بين ادراك مهندس مختص للوحة القيادة (وهي اللوحة التي تحوي الازرار والاضواء الكهربائية التي تبين سير العمل في المؤسسة والتي تدار المؤسسة منها ــ المترجم) في مركز كهربائي معاصر وبين ادراك شخص يرى هذه اللوحة لاول مرة . ان الاجهزة في اللوحة لا تتحدث بشيء بالنسبة للشخص الذي يراها لاول مرة ، اما الاخصائي الذي يلاحظ نفس العدادات والمؤشرات في هذه الاجهزة فانه يرى في تأشيراتها الحياة المعقدة للاجهزة في المركز الكهربائي كله .

ولما كانت المعرفة الحسية والمنطقية في وحدة وتكمل وتغني احداهما الاخرى ، لذا يجب ان لا نهمل في المعرفة لا معطيات الحواس ولا استنتاجات العقل . وفي تاريخ الفلسفة اتجاهات معروفة كانت تفهم عملية المعرفة بشكل وحيد الجانب .

ان ممثلي **التجريبية** (امبريزم من الكلمة الاغريقية « امبيريا » ــ التجربة) يستصغرون دور التفكير المجرد في المعرفة ، ويعتبرون بأن الانطباعات الحسية وحدها تعطي الانسان لوحة حقيقية عن العالم . واذ ينطلقون من ان المفاهيم لا يمكن ان ترى بشكل حسي (فنحن لا نستطيع ان نتصور « انسان بشكل عام » و او « خشب بشكل عام » و .. الخ) ، فانهم يزعمون بأن لا وجود للمفاهيم في الواقع ، وانها ثمرة خيال الانسان .

ان التجريبية واسعة الانتشار في الفلسفة وعلم الاجتماع البورجوازيين المعاصرين ، وليس هذا صدفة ذلك ان مفكري البورجوازية يخافون من التعميمات الواسعة ويسعون الى التهرب من حل القضايا الاجتماعية الاساسية ويريدون البقاء في ميدان الحقائق غير ذات الاهمية والاقتصار على الملاحظات السطحية .

وخلافا للتجريبيين فان ممثلي العقلية (راسيوناليزم) من الكلمة اللاتينية « راسيوناليس » وتعني (العاقل) لا يؤمنون بالحواس ويعتبرون العقل ، التفكير المجرد المصدر الوحيد للمعرفة الحقيقية . ان العقليين

يستصغرون دور المعرفة الحسية ويعتبرون الانسان قادرا على ان يعرف العالم بشكل بديهي محض . بصرف النظر عن اية تجربة . ان فصل المفاهيم وسائر اشكال التفكير عن الاحساسات والادراكات يؤدي بالعقليين في النهاية الى المثالية .

وينتج مما قلناه انه لا يجوز فصل المعرفة المنطقية عن الحسية لان هذا الفصل يؤدي حتما الى تشويه عملية المعرفة ، والى انقطاع التفكير عن الواقع ، وهو ما يميز جميع **الاتجاهات** المثالية . **ان المبالغة في شان جانب واحد من المعرفة ، وجعله مطلقا ، وفصل المعرفة عن الواقع** هي اسباب قدرة المثالية على الحياة ، انها **جذورها الكنوسيولوجية** . (١)

لقد سمى لينين المثالية بزهرة عقيمة . ولكن هذه الزهرة ليست بلا ارض ، انها ترعرعت على شجرة المعرفة الانسانية الحية الجبارة المثمرة . ان الجذور الكنوسيولوجية للمثالية هي الجذور التي تكمن في عملية المعرفة نفسها ، هذه العملية المعقدة جدا والمتناقضة كما رأينا .

ان المعرفة تحوى باستمرار في ذاتها امكانية انفصال التفكير عن الشيء المراد معرفته ، عن الواقع . وان هذا الانفصال يلاحظ في ابسط المفاهيم ، التي يستعملها الانسان باستمرار ، مثل « بيت بشكل عام » و « منضدة بشكل عام » . من المعلوم انه لا وجود في الواقع لـ « بيت بشكل عام » ولا لـ « منضدة بشكل عام » وانما توجد فقط بيوت ومناضد بعينها . اما مفاهيم « بيت » و « منضدة » فانها تحوى ، كما نعرف ، فقط السمات المشتركة ، الجوهرية اللازمة لكل بيت ولكل منضدة . ويكفي ان ننسى ان المفاهيم مصدرها الاشياء الحقيقية ، ونعزلها عن الواقع ونتصور ان بالامكان ان تظهر المفاهيم وان توجد بذاتها وبشكل مستقل عن الاشياء لنقع في المثالية .

وهكذا ظهرت المثالية الموضوعية التي يعتبر ممثلوها بأن المفاهيم توجد بشكل مستقل عن الاشياء واكثر من هذا انها « تخلق » الاشياء . اما المثاليون الذاتيون فانهم اذ يبشرون بأن المصدر المباشر لمعارفنا هو الاحساسات ، يعلنون بأن هذه الاحساسات هي وحدها التي توجد ؛ اما الاشياء والظواهر فانها عبارة عن مجموع من الاحساسات .

وبالتالي فان الجذور الكنوسيولوجية للمثالية تكمن ، كما قال لينين ، في النظرة الجامدة والوحيدة الطرف ، وفي الذاتية والعمى الذاتي .

غير انه لا بد لنا من ان نذكر بأن الجذور الكنوسيولوجية تخلق فقط

---

(١) كنوسيولوجيا ــ من الكلمة اليونانية القديمة « كنوسيس » وتعني المعرفة و «لوكوس» العلم ــ علم المعرفة او نظرية المعرفة .

مقدمات ، وامكانيات لظهور المثالية ، اما ما يحول هذه الامكانية الى واقع فهو قوى اجتماعية معينة . وهذه القوى هي الطبقات الرجعية في المجتمع ذات المصلحة في التخلي عن الحقيقة . ذلـك ان مصالحها الطبقية تقوى الانطلاق الذاتي ، الوحيد الطرف تجاه المعرفة ؛ وتشدد انفصال الفكر عن الواقع .

ومما يساعد على انتشار المثالية في المجتمعات الطبقية المتناحرة التضاد بين العمل الفكري والعمل اليدوي الذي يولد ما يوهم بأن وعي الناس مستقل عن نشاطهم المادي الانتاجي. انالطبقات المستغلة اذ تحتكر العملالفكري تنشر بكل الوسائل وتدعم المثالية ، مستغلة اياها لتبرير سيطرتها والمحافظة عليها .

وبالتالي فـان جذور المثالية لهـا جذور كنوسيولوجية فحسب بل **وجذورا طبقية** تتمثل في مصالح محددة للطبقات الرجعية .

وهكذا فان المعرفة تتطور من الحسية الى المنطقية على اساس التطبيق. ومن الطبيعي فان نتائج المعرفة بحـاجة الى تدقيق ، اي التأكد من كونهـا صحيحة وحقيقية . ولا يمكن ان يكون الامر على نحو آخر : ذلـك انه في الاحتياجات العملية للناس لا يمكن ان تنفع غير المعرفة الحقيقية .

وقبل ان نتحدث عن كيفية التحقق من نتائج المعرفة ، وكيف يجري التوصل اليها يجب ان نبين ما هي الحقيقة .

٤ • التعاليم الماركسية عن الحقيقة

موضوعية الحقيقة

ان المادية الدياليكتيكية تفهم **بالحقيقة** تلـك المعارف عن الشيء التي تعكس **بشكل صحيح** هذا الشيء وتتطابق معه. فالموضوعات العلمية مـن قبيل ان « الاجسام تتكـون من ذرات » وان « الارض موجودة قبل الانسان » وان « الشعب صانع التاريخ » و .. الخ ، ان هذه الموضوعات حقيقية .

بأي شيء تتعلق الحقيقة ؟ هل بالانسان الذي تظهر هذه الحقيقة في وعيه ام بالشيء الذي تعكسه ؟ ان المثاليين يعتبرون بـأن الحقيقة ذاتية ، وانها تقلق الانسان الذي يقرر بنفسه حقيقية معارفه بدون ان ينسجم فـي هذا مع الوضع الواقعي للاشياء . « ان الانسان هو معيار كل شيء » ، هكذا عبر الفيلسوف اليوناني القديم فيثاغورس منذ القـدم عن المفهوم المثالـي للحقيقة .

وخلافا للمثالية فـان المادية الدياليكتيكية ، مستندة الى منجزات العلم

والخبرة الطويلة للبشرية ، تعلم بـأن الحقيقة **موضوعية** . وما دامت الحقيقة تعكس العالم الموجود موضوعيا فان محتواها لا يتعلق بوعي الانسان . كتب لينين يقول ان الحقيقة الموضوعية هي ذلـك المحتوى لمعارفنا الذي لا يتعلق بالانسان ولا بالبشرية . ان محتوى الحقيقة يتحدد ككل من قبل العمليات الموضوعية التي يعكسها . لنأخذ مثال الموضوعة : « الارض لها شكل كرة » هذه الموضوعة حقيقية ، ذلـك انها تتجاوب والواقع . ولكن هل يتعلق شكل الارض بوعي الانسان ؟ كلا ابدا ذلك ان الارض موجودة قبل وجود الانسان منذ امد طويل وان شكلها الكروي قـد تكون تحت تأثير قوى طبيعية معلومة . واننا سنصل الى استنتاج مماثل اذا ما نظرنا الى اية حقيقة اخرى .

من الحقيقة النسبية الـى المطلقة

ان المادية الدياليكتيكية اذ تعترف بموضوعية الحقيقة تحل مسألـة هامة اخرى عن المعرفة : كيف يتعرف الانسان على الحقيقة الموضوعية ، هل يتم ذلـك مرة واحدة ، تماما ، بدون قيد وشرط ، وبشكل مطلق ام بشكل تقريبي نسبي . ان هذا الموضوع ـ كما اشار لينين ـ هو موضوع العلاقة بين الحقيقة المطلقة والحقيقة النسبية . ان الفوارق بـين الحقيقة المطلقة والحقيقة النسبية ترتبط بكون درجة انطباق المعرفة على الواقع وعمق تغلغل العقل البشري في الواقع ليسا بدرجة واحدة . فبعض المعارف تتطابق كليا مع الواقع ، ومضبوطة بشكل مطلق ، واخرى جزئيا فقط . ان الحقيقة المطلقة هي الحقيقة الموضوعية بكـاملها وانعكاس الواقع ، المضبوط بشكل مطلق .

هل يمكن معرفة الحقيقة المطلقة تماما ؟ من وجهة مبدئية نعم ، فمن جهة لا وجود لاشياء لا يمكن معرفتها ، ومن جهة اخرى فان امكانيات العقل البشري للمعرفة ليست محدودة . غير ان امكانيات المعرفة لـدى كل انسان على انفراد ولكل جيل من البشر محدودة بالظروف التاريخية التي يعيشون فـي ظلها ، وبالمستوى المحدد لتطور الانتاج والعلم والتكنيك القائم على التجربة . ولهذا فان معارف الانسان في كل مرحلة تاريخية معينة هي نسبية انهـا حتما تأخذ طابع الحقيقة النسبية . **الحقيقة النسبية هي** عدم التطابق التام بين المعرفة والواقع . وقد سمى لينين هـذه الحقيقة بالانعكاس **الصحيح نسبيا** للموضوع المستقل عن البشرية . ان المعرفة التي تتجاوب مع الواقع فيما هو اساسي ورئيسي بحاجة الى تضبيط لاحق وتعميق وتدقيق الواقع.

ولكن هل يمكن ان لا نعرف على هذا الاســاس وبشكل عـام الحقيقة المطلقة ؟ كلا ابدا . لا يمكن معرفة الحقيقة المطلقة مرة واحـدة ، وبشكل

متكامل ، تـــام . ان الوصول اليها يمكن ان يتم فقط في عملية المعرفة التي لا نهاية لها . غير ان الانسان يقترب من الحقيقة المطلقة لدى كل انجاز جديد في العلم ، وتجري معرفة عناصر وحلقات وجوانب جديدة . ان تقدم المعرفة يكمن بالضبط في ان الانسان اذ يتعرف على الحقائق النسبية فانه يتعرف على الحقيقة المطلقة . لنأخذ مثلا التعاليم الحديثة عن الذرة . انها تتجاوب ــ من وجهة مبدئية ــ مع الواقع ، ولكنها على العموم لا تزال معرفة نسبية . ذلك اننا لا نستطيع القول بـأن الذرة قد عرفت حتى النهاية وبشكل مطلق . ان الذرة تضم في داخلها اسرارا كثيرة وان حلها يتطلب جهود اكثر من علماء جيل واحد . ويواجه العلم حل مسألة معقدة جدا تتعلق بالتركيب الداخلي لمكونات الذرة من الاجزاء « الاولية » وبالاسباب التي تسبب تغيرها وتحولها من واحدة الى اخرى وكثير غيرها مـــن المسائل . وفـــي نفس الوقت فـــان النظريات عن الذرة تحوى نواة الحقيقة المطلقة ــ اي معرفة كاملة مضبوطة بشكل مطلق . ان حقيقة وجود الذرة نفسها وانه يوجد وتوجد فيهـــا نواة ذرية ، تخفي في ذاتهـــا احتياطيات ضخمة من الطـــاقة وكثير من الجزئيات المتحركة المتغيرة وكذلك المعارف الاخرى عن الذرة هي مطلقة لا تتبدل .

وهكذا فان الحقيقة النسبية تحوى بشكل ملزم في ذاتها مقدارا مـــن الحقيقة المطلقة . ان معرفة الانسان هي مطلقة ونسبية . نسبية لانهـــا غير مستنفذة وتتطور الى ما لا نهاية ، وتتعمق وتكشف جوانب جديدة وجديدة من الواقع . ومطلقة لانها تحوىعناصر المعرفة الخالدة المضبوطة بشكل مطلق.

ان للانسان تصورات عديدة عن جوانب الواقع المنفردة ، ذات الطابع الثابت المطلق . ومن هذه مثلا موضوعة الفلسفة الماركسية « المادة هي الاولى والوعي ثانوي » ، « الوعي هو خاصية الدماغ » وغيرها مثل قانون حفظ الطاقة وتحولها وبعض القوانين الاخرى واستنتاجات العلوم عن الطبيعة والمجتمع . ومن الحقائق المطلقة الموضوعات الاساسية للنظريـــة الماركسية اللينينية التي اثبت التطبيق صحتها . ورغم ان هذه النظرية تتطور باستمرار فان مبادئها الاساسية لا يمكن ان تدحض .

وهكذا فان الفكر البشري ، كما اشار لينين ، قـــادر ، بطبيعته ، على اعطائنا الحقيقة المطلقة التي تتكون من مجموع الحقائق النسبية . ان كل درجة في تطور العلم تضيف حبات جديدة في مجموع الحقيقة المطلقة هذا ، غير ان حدود الحقيقة بالنسبة لكل جيل علمي هي نسبية ، فهي تتسع تـــارة وتضيق اخرى تبعا للنمو المتواصل للمعرفة(1) .

---

(1) لينين ــ المؤلفات ــ ج١٤ ــ ص١٢٢ .

قبل نصف قرن كتب لينين ببصيرة نافذة ان العقل البشري الـذي اكتشف اشياء غير عادية كثيرة في الطبيعة سيكتشف اشياء اكثر ؛ معززا بهذه الطريقة سيطرته عليها . ان منجزات العلم المعاصر وقبل كل شيء منجزات العلم السوفييتي ان هي الا تجسيد واضح لهـذه التنبؤات اللينينية العميقة .

ان الانسان اليوم تغلغل في الاعماق الخفية للذرة واخضعها ووضع قواها التي لا تنضب في الحقيقة في خدمته . ان الذرة اليوم تحرك الاجهزة والمولدات الكهربائية وتدير محركات محطمة الجليد ؛ وتساعد على الشفاء من الامراض وتقوم بأشياء كثيرة نافعة اخرى .

ان الانسان يقهر تدريجيا الابعاد اللانهائية في الكون . والعقل البشري يتغلغل ليس فقط في اعمال المـادة وانما يوسع مجاله اذ يكشف اسرارا جديدة وجديدة في الفضاء الكوني . فالى امد جد قريب، وعلى التحديد قبل سنتين او ثلاث كان يعتقد بـأن الفضاء الكوني يمثل مجالا فارغا ؛ تضيئه فقط الاضواء الباهتة للنجوم البعيدة ونادرا ما تخترقه الشهب والنيازك . غير ان الاقمار الصناعية اعطت البشرية معلومات تفيد بـأن الارض محاطة بحزام من الجسيمات المشحونة ، وقـد جرى الحصول على معلومات عن طبقات الجو العليا وعن تركيبها وكثافتها وعن الاشعة الكونية والميكرومترويات (وهي جزئيات متناهية في الصغر مما هو بين الكواكب) .

ان البشرية اليوم على اعقاب تحقيق حلم الاجيال الا وهو قهر الفضاء . ففي وقت قريب ستطأ اقـدام الانسان سطح القمـر وغيره من الكواكب وستضاف حبات ثمينة للحقائق المطلقة التي لا عد لها .

حسية الحقيقة ان المادية الدياليكتيكية تنطلق من موضوعة تقول بأن الحقيقة التي نحصل عليها في عملية المعرفة تتعلق باستمرار بمجال حسي محدد من الواقع وتتطور في ظروف محددة ايضا . لا وجود لحقيقة مجردة . **ان الحقيقة ملموسة دائما** . هل الميكانيك الكلاسيكي حقيقي مثلا ؟ نعم انه حقيقي ، ولكن ليس في جميع المجالات بل في مجالات محددة فقط من الواقع . انه يعكس ؛ بشكل صحيح حركة الاجسام المرئية ، غير انه في ميدان العالم المجهري يفقد حقيقته . وهنا يكون الميكانيك الحديث الميكانيك الكفانتي حقيقيا . وهكذا مع كل حقيقة اخرى : فانها اذ تعكس بعض الظواهر المحددة لا تستطيع ان تعكس الاخريات بشكل صحيح .

ولكن بالنسبة لعملية بعينها فان الحقيقة لا يمكن ان تكون خالدة وقائمة

الى الابد ، ذلك ان هذه العملية بالذات تتطور ، وتتغير الظروف التي تسير فيها . ومن المعلوم بأن الحقيقة التي تعكسها تتغير ايضا . ان ما هو حقيقي في ظروف معينة . يمكن ان يصبح غير حقيقي في ظروف اخرى متغيرة .

فمثلا في ظروف الراسمالية ما قبل الاحتكارية كانت حقيقية موضوعة ماركس وانجلز عن ان الثورة الاشتراكية يمكن ان تنتصر اذا ما نشبت في جميع البلدان المتطورة او في اكثريتها . اما في ظروف الاستعمار فقد اصبحت حقيقية موضوعة لينين عن امكانية انتصار الاشتراكية اولا في عدة بلدان او حتى في بلد واحد على حدة . وكلا الاستنتاجين ، استنتاج ماركس وانجلز واستنتاج لينين حقيقيان ، وهما حقيقيان ليس بشكل عام ، وانما مطبقين على ظروف **ملموسة** ، هي الظروف التي اعد الاستنتاجان في ظلها .

وفي الظروف المعاصرة ، ظروف النضال الناجح للشعوب من اجل السلم والديمقراطية والاشتراكية فان مبدأ حسية الحقيقة هام جدا . وان هذا المبدا يتطلب اولا وقبل كل شيء فهما صحيحان لطابع العصر . ان المحتوى الاساسي لعصرنا هو الانتقال من الراسمالية الى الاشتراكية حيث النظام الاشتراكي العالمي يتحول الى عامل حاسم في تطور البشرية . وانطلاقا من هذه الخاصية للعصر بالضبط ، تحل الاحزاب الماركسية القضايا المركزية المعاصرة : الحرب والسلام والتعايش السلمي بين الدول ذات الانظمة الاجتماعية المختلفة ، وآفاق النضال من اجل الاشتراكية .

لناخذ مسالة الحرب والسلم ، هذه المسالة الهامة جدا بالنسبة لعصرنا .

من المعلوم ان لينين عندما حلل الجوهر الرجعي للاستعمار ، توصل الى استنتاج مفاده ان الحروب حتمية في ظل الاستعمار . وقد انطلق هنا من ان الاستعماريين يتحكمون بشكل مطلق في العالم كله ، مقسمين اياه بينهم ويشنون نضالا مريرا من اجل اعادة تقسيمه . وعندما كان لينين على قيد الحياة لم يكن قد وجد النظام الاشتراكي العالمي ، ولكنه منذ ذلك الوقت تنبأ بفضل ثقب نظره العبقري بأن البشرية ستواجه مهمة تاريخية لتحويل ديكتاتورية البروليتاريا من وطنية ، اي موجودة في بلد واحد ، الى اممية اي الى ديكتاتورية بروليتاريا عدد من البلدان المتقدمة على اقل تقدير ، قادرة على ان تؤثر تاثيرا حاسما على السياسة العالمية .

وقد تطلب لينين ان تواجه مسألة الحروب بشكل دياليكتيكي اي ان ناخذ بعين الاعتبار وبصرامة ، الظروف التاريخية الملموسة ، وتبدل ميزان القوى على المسرح العالمي . ان تناسب القوى اليوم قد تبدل جذريا لصالح السلم والاشتراكية، فلقد ظهر وتطور بشكل عاصف النظام الاشتراكي العالمي، وتوسعت وتطورت حركة الجماهير الشعبية من اجل السلم ، هذه الحركة

التي تقف في طليعتها الطبقة العاملة ـ العدو اللدود للحروب العدوانية ، وتعاظم عدد الدول الوطنية المحبة للسلم .

ان كل هذا هو الذي اعطى الحزب الشيوعي في الاتحاد السوفييتي وسائر الاحزاب الماركسية الاساس للتوصل الى استنتاج ان الحرب في الظروف الراهنة لم تعد حتمية ، وانه توجد اليوم ظروف للحيلولة دون وقوعها . جاء في برنامج الحزب الشيوعي في الاتحاد السوفييتي : « بنتيجة التفوق المتعاظم لقوى الاشتراكية على قوى الاستعمار ، وقوى السلم على قوى الحرب ظهرت امكانية حقيقية لالغاء الحروب من حياة المجتمع حتى قبل الانتصار التام للاشتراكية على الارض ، ومع بقاء الراسمالية في جزء من العالم » . وعلى الضد من هذا الحل الماركسي الحقيقي ، الخلاق لقضية الحرب والسلم يقف مختلف الجامدين والمنعزلين محاولين معارضته . انهم لا يريدون ان ينسجموا مع الظروف المتبدلة ويتمسكون بالاستنتاجات والموضوعات القديمة ، وانهم اذ ينقطعون عن الواقع الملموس ولا يريدون ان يروا التناسب الجديد القوي على المسرح العالمي يعلنون ان الحروب لا زالت حتمية في ايامنا ، ان المتحجرين بأفكارهم امكانية درء الحرب العالمية الجديدة ، يساعدون على تفكيك صفوف الشغيلة . وفي الحقيقة ، هل يوجد معنى للبناء ولخلق الحياة الجديدة اذا كانت كل منجزاتنا معرضة في اي لحظة للتدمير بالقنابل الذرية .

ان الاحزاب الماركسية اللينينية اذ تدين الجمود والانعزال في كامل نشاطها المتعدد الجوانب فانها بالتالي تطبق مبدأ الانطلاق التاريخي الملموس في مواجهة الواقع .

ان النموذج الحاذق والتطبيق الدؤوب لهذا المبدأ هو كامل نشاط الحزب الشيوعي في بلادنا في البناء الشيوعي . وبالنظر للظروف التاريخية الملموسة اتخذ الحزب قرارات هامة جدا لاعادة تنظيم قيادة الصناعة والبناء ، واحياء الاراضي البكر ، واعادة تنظيم محطات الالات والمكائن الزراعية واعادة تنظيم التعليم . وعلى اساس الاخذ ، بصرامة ، بعين الاعتبار الظروف الموضوعية ومستوى الانتاج الذي جرى التوصل اليه والامكانيات الموجودة ، اعد البرنامج الجديد للحزب الشيوعي في الاتحاد السوفييتي الذي اقره المؤتمر الثاني والعشرون ، برنامج بناء الشيوعية .

٥ . التطبيق ـ معيار الحقيقة

ان ايجاد معيار للحقيقة يعني العثور على الدليل الموضوعي ، المستقل

عن الانسان . والذي يعطينا امكانية تمييز الحقيقة والتفرقة بين المعرفة الحقيقية والوهم .

ان المعيار الوحيد للحقيقة هو التطبيق . يمكن ان تختلف طويلا حول حقيقية فكرة معينة او نظرية علمية ، غير ان هذا الخلاف يمكن ان يحله فقط التطبيق – اي ، الانتاج والحياة السياسية ، والتجربة العلمية . كتب ماركس : « ان مسألة ما اذا كان للتفكير الانساني حقيقية مادية ام لا ليست مسألة نظرية ابدا . انها مسألة **عملية** . ان على الانسان الا يبرهن في التطبيق حقيقة ، اي واقعية تفكيره وارتباطه بهذا العالم(١) » .

ان المثاليين من مختلف التيارات لا يوافقون على هذه الموضوعة الهامة للمادية الديالكتيكية . انهم ينكرون اهمية التطبيق في المعرفة ، ويعتبرون ان معيار الحقيقة هو الانسان نفسه ، وتفكيره . فالذرائعيون (البراكماتيون) وهم ممثلو اكثر التيارات انتشارا في الولايات المتحدة والفلسفة البورجوازية المعاصرة ، يؤكدون ان ما هو نافع هو حقيقي . ان مثل هذا الفهم للحقيقة يؤدي بالذرائعيين الى تبرير الاعمال الرجعية للرأسمالية المعاصرة . فلان استغلال العمال والحروب الاستعمارية ، ونهب البلدان الضعيفة التطور تجلب الارباح للراسماليين فانها صحيحة وشرعية .

وفي الحقيقة فان المنفعة لا يمكن ان تكون معيارا للحقيقة . وعلى العكس من ذلك فان المعارف الحقيقية هي النافعة للبشرية . ان الانسان يستطيع ان يعتمد فقط على المعارف الحقيقية الصحيحة في نشاطه العملي ، وان الحقيقة وحدها هي التي يمكن ان توصله الى النتائج المتوقعة . ولهذا فانالانسان اذا ما وصل؛ انطلاقا من المعارف التيحصل عليها ، الى الهدف الذي وضعه لنفسه ، عن طريق النشاط العملي وحقق النتائج المتوقعة فا نهذا يعني ان معارفه تنسجم والواقع اي انها حقيقية .

لنأخذ مثالا . قبل اكثر من خمسين سنة كون العالم الروسي العبقري ك. ي. تسيولكوفسكي ، لاول مرة في العالم نظرية علمية عن تحليق الصواريخ ، فقد قال بفكرة جريئة فوق العادة وخيالية تماما في تلك الايام عن امكانية استخدام الصواريخ للتحليق الى الاجرام السماوية الاخرى .

وقد تطلب الامر جهودا وقوى لتحقيق الافكار العبقرية التي قال بها تسيولكوفسكي هذا . وفي ١٤ ايلول ١٩٥٩ في الساعة العاشرة ودقيقتين و ٢٤ ثانية وصل الصاروخ السوفييتي الكوني الثاني الى القمر . ولاول مرة تحقق تحليق من الارض الى جرم سماوي آخر . وبهذا تأكدت عمليا

---

(١) كارل ماركس و ف. انجلز – المؤلفات المختارة – بجزئين ج٢ ص٣٨٣ .

افكار تسيولكوفسكي . « ان الانسان سيأخذ احجارا من القمر . هكـذا كتب الهام تسيولكوفسكي قبل نصف قرن . واليوم بعد ان انجز السوفييت تحليقاتهم الاولى في الفضاء الكوني اصبح قريبا اليوم الذي ستتحقق فيه امنية العالم العظيم .

وفي التطبيق ، في النضال الثوري للطبقات وفي النشاط السياسي للدول ومختلف الاحزاب وفي نضال الشعوب من اجل السلم والتقدم يجري التأكد من صحة النظريات والافكار الاجتماعية . ان صحة النظرية الماركسية اللينينية وحقيقيتها تؤكدها الحياة نفسها بشكل مقنع جـدا ، وتطبيقات الحركة الشيوعية العالمية .

ان سير البشرية من الراسمالية الى الشيوعية الذي لا يغلب هو الدليل الذي لا خلاف عليه على القوة الحيوية الكبرى والصحة الرائعة لتعاليـم الماركسـية اللينينية المنتصرة ابدا .

فهـــرس

Mouyn

